276

محمود عبدالله

أيام هزت العالم وغيرت وجه التاريخ

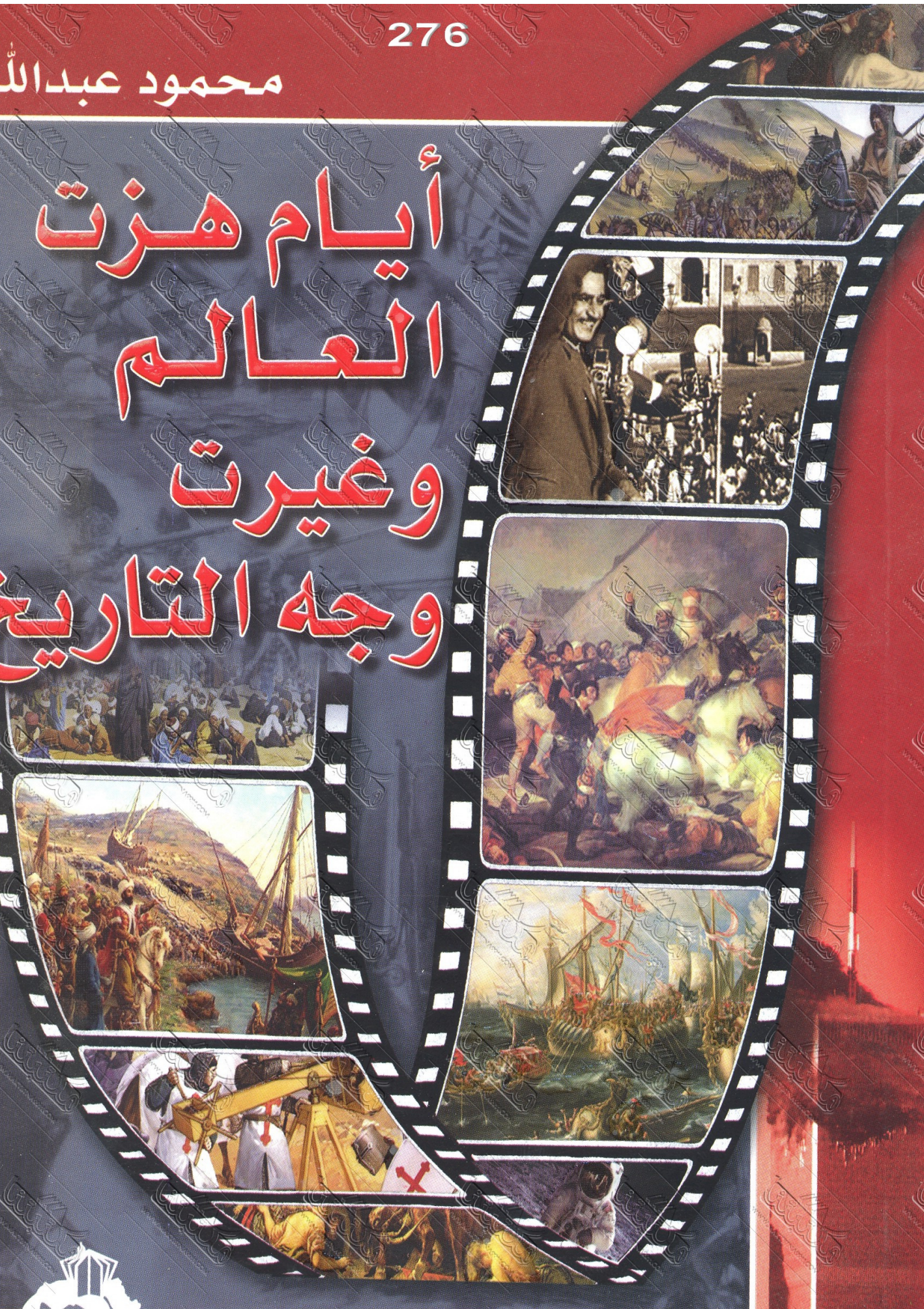

Ahmed Mady

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

http://www.maktbtna2211.com/

أيام هزت العالم وغيرت وجه التاريخ

هذا الكتاب

في التاريخ البشري أحداث ووقائع غيرت وجه العالم وحفرت مسالك جديدة في التاريخ الإنساني وربما عبرت بالبشرية من مرحلة لأخرى في مسيرتها الطويلة.

قد تتنوع تلك الحوادث بين : معارك حربية أو أحداث سياسية أو اكتشافات علمية واختراعات ولكنها كلها ستشترك في أمر واحد غير آثارها العظيمة وهو أن كلاً منها حوى يوماً فاصلاً كانت له نتائجه التي سجلها التاريخ.

وفي هذا الكتاب الذي بين يدي قارئنا العزيز سنحاول أن نقف معه عند مجموعة كبيرة من تلك الأيام التاريخية الفاصلة ونتأمل معاً كيف سار التاريخ الإنساني في مراحله الرئيسية ومحطاته المتعددة لنخرج في النهاية بصورة عامة تزيد من ثقافتنا الإنسانية ومن علمنا بالتاريخ الحضاري الإنساني وهي فائدة لاشك عظيمة.

S.R. 32
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ريال

1/10/2012
Riyadh

978-9 EA 76-672-9

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

كتابنا القادم

ألف وأحلام

يوسف معاطي

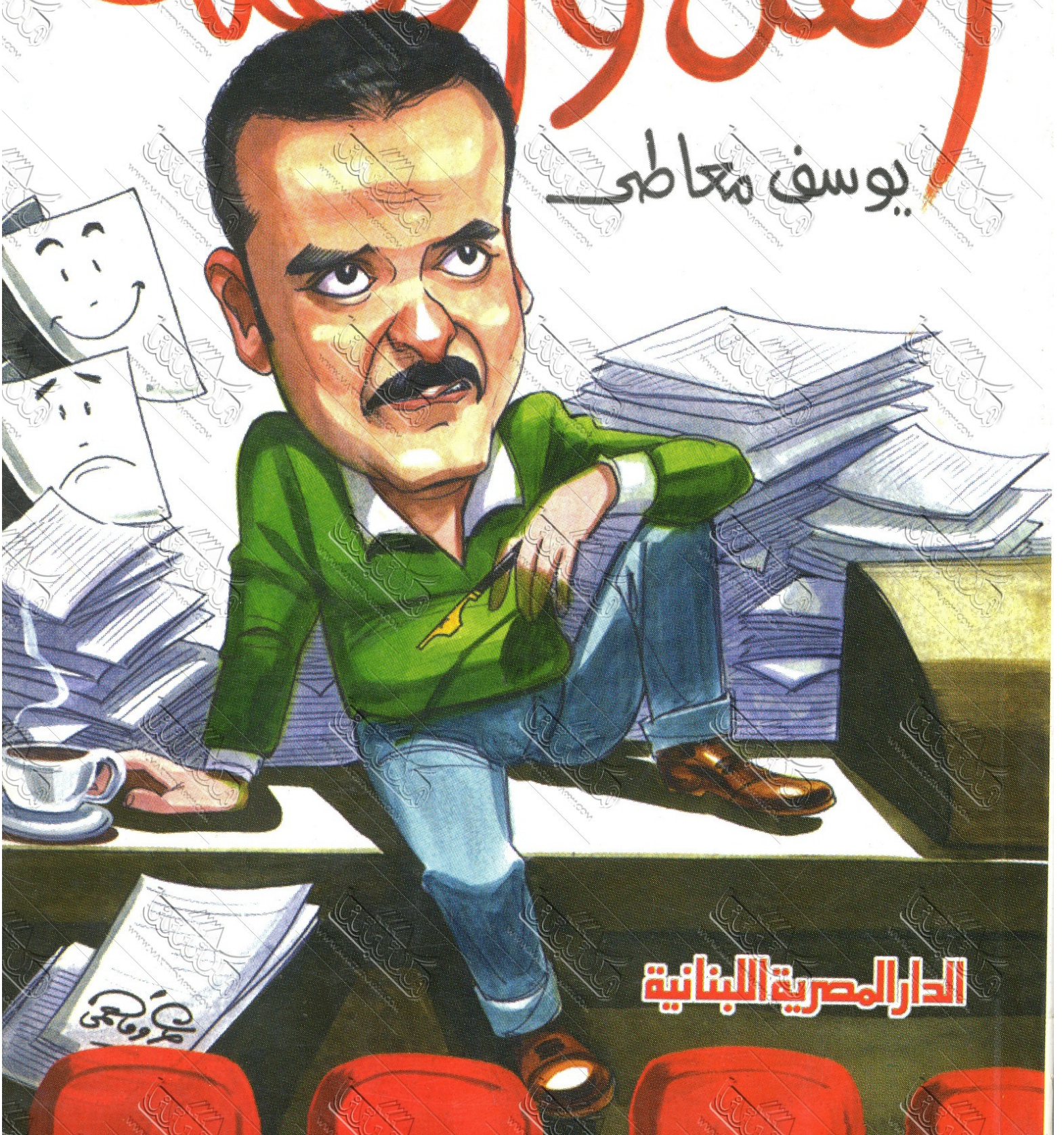

الدار المصرية اللبنانية

أيامٌ هزَّت العالَمَ وغيرَتْ وَجْهَ التَّاريخِ

محمود عبدالله

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

اسم الكتاب: **أيامٌ هَزَّت العَالَمَ.. وغيرَتْ وَجْهَ التَّاريخ**

اسم المؤلف : **محمود عبدالله**

المراجعة اللغوية والتدقيق: **طه عبدالرؤوف سعد**

تصميم الغلاف: **قسم الجرافيك بدار الكتاب العربي**

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١١/١٩٧٧٣

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 978 - 977 - 376 - 672 - 9

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربي ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبي ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النوري ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفيتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

حقوق الطبع

محفوظة

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربي للنشر وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إليكترونية أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

الطبعة الأولى

٢٠١٢

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودي هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

darketab@yahoo.co- daralwalid@yahoo.com-info@darketab.com

www.darketab.com http://www.facebook.com/groups/darketab

http://twitter.com/darketab http://www.youtupe.com/darketab

أيامٌ هزّت العالَمَ

وغيرت وجهَ التّاريخِ

تقديم

في التاريخ البشري أحداث ووقائع غيرت وجه العالم وحفرت مسالك جديدة في التاريخ الإنساني، وربما عَبَرَتْ بالبشرية من مرحلة لأخرى في مسيرتها الطويلة..

قد تتنوع تلك الحوادث بين : معارك حربية.. أو أحداث سياسية.. أو اكتشافات علمية واختراعات .. ولكنها كلها ستشترك في أمر واحد ـ غير آثارها العظيمة ـ وهو أن كلاً منها حوى يوماً فاصلاً كانت له نتائجه التي سجلها التاريخ..

وفي هذا الكتاب الذي بين يديْ قارئنا العزيز سنحاول أن نقف معه عند مجموعة كبيرة من تلك الأيام التاريخية الفاصلة، ونتأمل معاً كيف سار التاريخ الإنساني في مراحله الرئيسية، ومحطاته الأساسية، لنخرج في النهاية بصورة عامة تزيد من ثقافتنا الإنسانية، ومن علمنا بالتاريخ الحضاري الإنساني، وهي فائدة ـ لا شك ـ عظيمة ..

سنبدأ من التاريخ المكتوب، مرتبين الأحداث والأيام حسب تسلسلها التاريخي، بعد أن نورد مقدمة تمهيدية عن الأيام الفاصلة في تاريخ البشرية في تاريخها غير المكتوب..

وفي النهاية نرجو أن يكون عملنا ـ شبه الموسوعي ـ هذا إضافة قيمة للمكتبة العربية، وللقارئ العربي في كل مكان..

مقدمة تمهيدية
أيام التاريخ غير المكتوب

بدأ الإنسان في تسجيل تاريخه عبر الكتابة في مرحلة تاريخية متأخرة نسبيّاً، فأقدم الكتابات التاريخية المسجلة لا تتجاوز ٦ آلاف عام من التاريخ الإنساني، وسنجد أن حضارة عظيمة مثل الحضارة الفرعونية يعود تاريخ أقدم ملوكها (مينا نارمر) إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، وفي بلاد الرافدين (العراق القديم) تعود الحضارة إلى الألف السادس قبل الميلاد، وتقترب منها الحضارة الصينية في المدى نفسه، وفيما قبل المراحل المسجلة من عمر البشرية لا يمكن الوقوف عند تواريخ مسجلة للأحداث الهامة التي مرت بها الأمم والشعوب، ورغم ذلك يمكن الوقوف عند بعض العلامات والمحطات التي ليس لها تاريخ دقيق موثق إلينا، ومنها :

(أ) ـ اكتشاف النار

في الفكر الغربي تسود فرضية هي أن الإنسان جاء نتاجاً لتطور بعض الكائنات الأخرى، وأنه وجد نفسه في هذا الكون وحيداً خائفاً تقوده غرائزه، ثم بدأ في تنظيم حياته عبر التكاثر والتعاون مع بني جنسه، فتعلم الكلام واكتشف النار.. هذه النظرة الغربية تخالف قطعاً ما تقدمه الكتب السماوية عن خلق الإنسان كائناً عاقلاً متكلماً مكرماً تحت العناية الإلهية، وكيف نزل إلى الأرض من الجنة وهو يعلم الأسماء والأشياء التي في الحياة، وأن الله لم يتخل عنه بعد نزوله، فتعهده بالرسالات والوحي لتقويم مسيرته..

حسب تلك الفرضية الغربية. كان اكتشاف النـار وكيفيـة اسـتعمالها أهـم حـدث شهدته الإنسانية .. في البداية كان الإنسان مثلـه مثـل رفاقـه الحيوانـات عـلى الأرض ضحية لبيئته . فلم يكن لديه حماية من الطقس البارد أو من المطـر الغزيـر والعواصـف الثلجية التي يعرف الجيولوجيون أنها قد حدثت في عصور ما قبـل التـاريخ . الرجـال البدائيون كانوا صيادين، وكان عليهم أن يتجولوا فيما حولهم بحثـاً عـن الطرائـد مـن أجل طعامهم، لـذلك لم يكـن باسـتطاعتهم أن يـستقروا ويعيـشوا في مكـان واحـد . وبالطبع كان عليهم أن يخرجوا للصيد كل يوم لتوفير حاجاتهم اليومية، وعندما يكـون الصياد بعيداً عن الكهف يشتاق لبيئته، وكان يقلق على عائلته من أن تهاجمها الحيوانات المفترسة . وفي الليل لم يكن باستطاعة الجميع أن يناموا؛ لأن معظم الحيوانات المفترسـة تنشط أثناء الليل، وكان على أحد ما في الأسرة أن يبقى مستيقظاً ليحمى الآخرين.

يظـن العلـماء أن الإنـسان القـديم اكتـشف النـار منـذ حـوالي نـصف مليـون عام (٥٠٠٠٠٠ سنة) لأحد السببين: قـد يكونـوا رأوا النـار الناتجـة عـن الثـورات البركانية، والثورات البركانية هي انفجارات طبيعية تحدث في بـاطن الأرض وتقـذف ألسنة لهب وكميات ضخمة مـن الغـازات الـساخنة والرمـاد . أو ربـما رأى الإنـسان القديم حرائق الغابات التي يسببها البرق . ومهما يكن فإن اكتشاف النار حدث.

ويـرجح العلـماء أصـحاب تلـك النظريـة أن اكتـشاف النـار حـدث بإحـدى الطريقتين: إما بواسطة الاحتكاك أو بواسطة الْقَدْحِ، وتتمثـل الطريقـة الأولى في حـك أجسام سريعة الالتهاب بعضها ببعض بما يكسبها الحـرارة شـيئاً فـشيئاً حتـى مرحلـة الاحتراق، وأما الطريقة الثانية فتتمثل في قدح بعض الأجسام التي تولد شرارة صغيرة تكون مصدر النار. ومن أهم المواد المستخدمة قديما في القدح حجر الصوان.

ثم تعلم الإنسان استعمال النار حالاً وأصبح يعتمد عليها. وبالعيش في كهـف والنـار عند مدخله، أصبحت العائلة فجأة في أمان من الحيوانات المتوحشة، لأنها تخاف النار ولـن تقترب منها طالما بقيت النار مشتعلة، كان باستطاعة الجميع أن ينـاموا، وقـد وفـرت النـار

الدفء، وكذلك وفرت موقدًا لطهي الطعام. هكذا كانت البدايات، ثم أسرع الإنسان الخطى في استخدام النار، إذْ كان لزامًا عليه التمرن على إيقادها في كل حين وفي كل مكان، ومع مرور السنين استطاع الإنسان اكتشاف بدائل للأعواد الجافة والحجر الصوان فقد استبدلها بالمصابيح الزيتية فأصبح باستطاعته امتلاك النار، وكانت تلك مرحلة جديدة من مراحل استخدام النار في حياة الإنسان. فبعد تعظيم النار وعبادتها أصبح بمقدور الإنسان السيطرة على النار وتوظيفها في مختلف مجالات الحياة ...

كما قلنا هذه النظرية لا تتسق مع المعلومات التي يوردها أصدق وأصح الكتب السماوية ـ القرآن الكريم ـ عن خلق الإنسان وبداية وجوده على الأرض، وإنما أوردناها لأنها هي الصورة التي يتم تدريسها في جامعاتنا ومدارسنا عن بداية الحياة البشرية.

أما نحن المسلمين، فنؤمن أن الإنسان الأول ـ آدم ـ قد نزل إلى الأرض وهو يعلم النار، لأنه بكل بساطة كان يعلم ـ ويُعلم أبناءه ـ أنه إن لم يؤمن بالله ويطيعه فإن النار (جهنم) ستكون مثواه، والعياذ بالله..

ومهما يكن من أمر فإن النار من الأشياء الأساسية التي اعتمد عليها الإنسان في حياته منذ وطأت قدماه الأرض.

(ب) ـ اكتشاف الزراعة

نفس ما قلناه في اكتشاف النيران يقال في الزراعة، فالإنسان الأول (آدم) وأبناؤه، عرفوا الزراعة واشتغلوا بها، وفي قصة ابني آدم اللذيْن قتل أحدهما الآخر، كان القاتل (قابيل) مزارعاً، وكان القتيل (هابيل) راعياً..

أما في النظرية الغربية التي تنحي الدين جانباً، فقد ظهرت الزراعة سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد خلال فترة ما قبل التاريخ.

وقد قسم هذا الحدث وهذه الفترة إلى طورين رئيسيين: وهما العصر الحجري القديم والحجري الحديث.

يمتد العصر الحجري القديم من ظهور الإنسان على سطح الأرض إلى ١٠٠٠٠ قبل الميلاد، وكان الإنسان يتنقل من مكان إلى آخر باحثا عن قوته عن طريق قطف الأشجار البرية وعن طريق الصيد. وكان يصنع أدواته وأدوات الصيد من الحجارة وعظام الحيوانات.

أما العصر الحجري الحديث فيمتد من ١٠٠٠٠ إلى ٣٢٠٠ قبل الميلاد ويعتبر ظهور الزراعة أهم حدث خلال هذه الفترة سنة ٨٠٠٠ ق.م، حيث تمكن الإنسان من زرع الأرض وتدجين الحيوانات، وبذلك تغير نمط عيش الإنسان فأصبح مستقرًا بعد أن كان متنقلاً، حيث شيد مساكن خاصة به من الجلود والأخشاب والقش بعد أن كان يسكن الكهوف والمغارات.

ومن أولى المناطق الزراعية في العالم: مصر القديمة، وبلاد الرافدين (العراق)، وجنوب القارة الأمريكية، والهند، والصين.

وقد تميزت هذه المناطق بظروف طبيعية ملائمة: من الأراضي الصالحة وتوفر المياه، واعتدال المناخ.

وهذه المناطق هي أقدم التجمعات السكانية في العالم ومهد أقدم حضاراتها.

(ج) ـ اكتشاف المعادن

في التأريخ الغربي يقصد بعصر اكتشاف المعادن العصر الذي يلي العصر المسمى بالعصر الحجري الحديث، وقد اكتشف فيه الإنسان القديم المعادن، وبدأ يستعملها في قضاء حوائجه، ويصنع منها الأدوات المختلفة، ويبدأ هذا العصر حسب تقدير بعض الأثريين بعد العام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، وينتهي عند القرن الحادي والثلاثين قبل الميلاد.

وقد ملك مصر فيه مينا نارمر الذي استطاع أن يخضع أقاليمها تحت ملكه، فسُمي موحد القطرين الشمالي والجنوبي لذلك، وليس لأنه أول من دعا إلى التوحيد كما زعم البعض.

ويسمي علماء الآثار تلك الفترة (فترة عصر المعادن) بفترة الحضارة المصرية الأولى ؛ لأن المصريين بدءوا فيه في بناء نواة المدنية، فكانت مدن طيبة وممفيس وبوتو

وهيراكونوبليس وأليفاتانين وبوباستيس وتانيس، وأبيدوس وسايس وأكسويس وهليوبوليس.

وتعرف فيه الإنسان على المعادن وطرق صهرها، مثل النحاس والبرونز، وظهرت الأدوات المنزلية المختلفة، مثل الأزاميل والخناجر والحراب، ولكنها كانت قليلة في البداية ثم ازداد استعمال النحاس، وازدادت أهميته في الفترات التالية، وظهر في هذا العصر أيضا الذهب والفضة، فصُنع منهما الحلي بأنواعها المختلفة، وكانت منطقة المعادى تعد في هذا العصر مركزاً تُصب فيه موارد النحاس من شبه جزيرة سيناء.. وفى هذا العصر أيضا تطورت صناعة نسيج الأقمشة والأخشاب والأواني الفخارية، وبنيت المساكن من اللّبِن بدلاً من الطين والبوص، وفرشت بالحصير المصنوع من نبات البردي، وصنعت الوسائد كذلك.

لكن أهم ما ميز هذا العصر هو صناعة الآنية الحجرية المصقولة، وقد راجت هذه الصناعة في منطقة البداري، إذ عُثر بها على أدوات تعود لذلك العصر، وكذلك أصناف المرمر، كما صنعت آنية من الجرانيت والديوريت والنيس، وهى جميعا أحجار صلبة تحتاج إلى مجهود كبير في صنعها، وإلى دقة ومهارة في إعدادها؛ مما يدل على أن المصريين قد وصلوا وقتها إلى درجة عالية من المهارة والذوق الفني.

هذا وقد كان المصريون في ذلك الوقت يعيشون على زراعة الشعير والقمح في أطراف الوادي ؛ كما اشتغلوا بتربية الماعز والأغنام والماشية والخنازير واصطياد الحيوانات البرية والبحرية، وعملوا بزرع أشجار الثمار أيضاً.

ـ اختراع الكتابة:

تخبرنا النصوص الدينية أن نبي الله إدريس هو من خط بالقلم وعلم الناس الكتابة، وعلى هذا فقد عرف البشر الكتابة مبكراً، فإدريس هو ثاني الأنبياء بعد آدم، ويسبق نبي الله نوحًا في الوجود.

أما في النظرية الغربية فتقول إنه مع تطور حياة الإنسان الأول وتكوين المجتمعات البشرية، وجد الإنسان نفسه غير قادر على التفاهم مع الآخرين فاهتدى إلى اللغة وعايش المجتمعات الأخرى. فاخترع الكتابة لحفظ إنتاجه الفكري وميراثه الثقافي والعلمي من الاندثار ولتتوارثه الأجيال اللاحقة.

ففي سنة ٥٠٠٠ ق م ابتدع الإنسان الكتابة في بلاد الرافدين مع التوسع في الزراعة وبداية ظهور المدن والمجتمعات الحضرية، ورواج التجارة وظهور العربة ذات العجلة والسفن الشراعية. فكانت اللغة أداة اتصال وتفاهم.

وتم اختراع الكتابة التصويرية في بلاد ما بين النهرين قبل العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد حيث كانت تدون بالنقش على ألواح من الطين أو المعادن أو الشمع وغيرها من المواد. وتطورت الكتابة من استعمال الصور إلى استعمال الأنماط المنحوتة بالمسامير والتي تعرف بالكتابة المسمارية. وأول كتابة تم التعرف عليها هي الكتابة السومرية والتي لا تمت بصلة إلى أي لغة معاصرة. وبحلول عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد تم اعتماد الخط المسماري لكتابة اللغة الأكدية، كما استعمل نفس الخط في كتابة اللغة الآشورية واللغة البابلية، وهي كلها لغات سامية مثل اللغتين العربية والعبرية.

وتواصل استعمال الخط المسماري للكتابة في لغات البلاد المجاورة لبلاد ما بين النهرين مثل لغة الحطيين (الحيثيين) في سوريا والأناضول واللغة الفارسية القديمة، وكانت تستعمل إلى نهاية القرن الأول الميلادي. وتم فك رموز الخط المسماري في القرن التاسع عشر وبذلك تسنى للعلماء قراءة النصوص الإدارية والرياضية والتاريخية والفلكية والمدرسية والطلاسم والملاحم والرسائل والقواميس المسمارية.

ويوجد حوالي ١٣٠٠٠٠ لوح طيني من سورية في المتحف البريطاني من الحضارات القديمة ومملكة ماري السورية التي اكتشف فيها أكبر مكتبة في التاريخ القديم وبلاد الرافدين.

وأيام حكم الملك حمورابي (١٧٢٨ – ١٦٨٦ق.م.) وضع شريعة واحدة تسري أحكامها في جميع أنحاء مملكة بابل. وهذه الشريعة عرفت بشريعة حمورابي الذي كان يضم القانون المدني والأحوال الشخصية وقانون العقوبات. وفي عصره دونت العلوم. فانتقلت الحضارة من بلاد الرافدين شرق سوريا والعراق في العصر البابلي القديم إلى جميع أنحاء المشرق وإلى أطراف العالم القديم.

والكتابة في أوروبا بدأت على شكل صور تعبر عن الحياة اليومية، كبعض النقوش والصور التي عمرها ٣٥٠٠٠ سنة كما وجدت في كهوف«لاسكو» في فرنسا و«التميرا» في إسبانيا .وكانت لغة مصورة في شكلها البدائي.. وقد كانت الكتابة في بداية عهدها عبارة عن صور توحي تماما بما رسم فيها. ثم تطورت إلى صور رمزية توحي بمعنى معين. وكانت هذه الرموز يصعب فهم العامة لها. فلجؤوا إلى استعمال رموز توحي بأصوات معينة، وهذه الرموز الصوتية كانت خطوة أساسية في نشوء الأبجدية وفي تطوير الكتابة فيما بعد .

وفي مصر ظهرت اللغة الهيروغليفية لأول مرة في مخطوط رسمي ما بين عامي ٣٣٠٠ ق.م. و٣٢٠٠ ق.م. وكان يسمي هيروغليفي. وكلمة هيروغليفية تعني بالإغريقية نقش مقدس. وفي هذا المخطوط استخدمت الرموز فيه لتعبر عن أصوات أولية. وأخذت الهيروغليفية صورها من الصور الشائعة في البيئة المصرية. وكانت تضم الأعداد والأسماء وبعض السلع. وفي عصر الفراعنة استعملت الهيروغليفية لنقش أو زخرفة النصوص الدينية على جدران القصور والمعابد والمقابر وسطح التماثيل والألواح الحجرية المنقوشة والألواح الخشبية الملونة. وظلت الهيروغليفية ككتابة متداولة حتى القرن الرابع ميلادي. وظهرت الهيراطيقية كنوع من الكتابة لدي قدماء المصريين. وهي مشتقة من الهيروغليفية. لكنها مبسطة ومختصرة. وهي مؤهلة للكتابة السريعة للخطابات والوثائق الإدارية والقانونية. وكانت هذه الوثائق تكتب بالحبر

علي ورق البردي. وظلت هذه اللغة سائدة بمصر حتى القرن السابع ق.م. بعدها حلت اللغة الديموطقية محلها.

ـ طوفان نوح

من الأيام التاريخية التي ذكرتها الكتب السماوية، ذلك الطوفان العظيم الذي غمر الأرض كلها، وأغرق الكافرين الذين كفروا بنبي الله نوح، ومنهم أحد أولاده، وقصة الطوفان معروفة لدى جميع الأمم، وإن أصابها التحريف وتحولت لأساطير في بعض الحضارات.

نجد في الكتابات السومرية: نجد كيف أخبر الإله إنليل الناس أن الآلهة الأخرى عزمت على إهلاك البشرية، ولكنه هو نفسه يريد إنقاذها. وبطل القصة هنا هو زيوسودرا، ملك مدينة سيبور،وقد أخبر الإله إنليل زيوسودرا ماذا يفعل لينجو من الطُّوفان. ورغم أن النص المتعلق ببناء السفينة غير موجود، إلا أن الأجزاء الأخرى من القصة والتي تروي كيف نجا البطل من الطُّوفان، تظهر أن هذا المقطع كان موجوداً، وبالاعتماد على الرواية البابلية للقصة نصل إلى نتيجة حقيقية بأنه لابد أن تكون النسخة السومرية الكاملة متضمنة تفاصيل شاملة عن الطُّوفان وأسبابه وكيفية بناء السفينة.

وفي الكتابات البابلية (أوت نابيشتيم) هو البطل البابلي الموازي للبطل السومري زيوسودرا، والشخصية المهمة الأخرى هي شخصية جلجامش، حسب الأسطورة، يقرر جلجامش أن يجد أسلافه ليحصل على سر الخلود، حُذِّر جلجامش من الصعوبات والمخاطر التي تنتظره خلال رحلته هذه، قيل له: إنه سيمر على جبال ماشو ومياه الموت؛ وإن هذه الرحلة لم يقم بها أحد سوى إله الشمس شامشا حتى الآن، إلا أن جلجامش اجتاز بشجاعة كل المخاطر ووصل إلى أوت نابيشتيم.

وفي الأساطير الإغريقية قرر الإله زيوس إغراق الناس الذين يملئون الأرض فساداً كل يوم بالطُّوفان، ديوكاليون وزوجته بيرا فقط هما اللذان نجيا من الطُّوفان، لأن بروميثيوس والد ديوكاليون نصحه ببناء سفينة، ونزل الزوجان إلى جبل بيرناسوس بعد تسعة أيام من صعودهم إلى القارب.

ـ إرسال الرسل والأنبياء

من الأحداث الرئيسية في التاريخ البشري أيضاً إرسال الرسل والأنبياء للبشر، وهو ما بدأ بعد أن غفل الناس عن التوحيد الذي خُلق عليه آدم، وبدءوا في الانحراف عن الطريق القويم.

القاعدة التي يقررها القرآن ها هنا أنه لم تخل أمة من الأمم من الأنبياء والرسل، وذلك كي لا يكون للكفار حجة يوم القيامة :﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [سورة فاطر : ٢٤].

كان إدريس (عليه السلام) أول الأنبياء بعد آدم، وبعده نوح (عليه السلام)، وقد ذكر القرآن كبار الرسل مثل : هود، وصالح، وإبراهيم، ويوسف، وموسى، وداود، وغيرهم وأغفل ذكر رسل آخرين:﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ ﴾[سورة غافر: ٧٨].

واليوم يؤمن أكثر من ثلث سكان العالم بالديانات السماوية الثلاث : اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ولا يوجد مكان في العالم يخلو من أي من أتباعها.

معركة أكتيوم البحرية

انتهى العصر البطلمي والحضارة الهيلنستية ..
وبدأ عصر الأباطرة في روما.. واحتُلت مصر
ستة قرون..

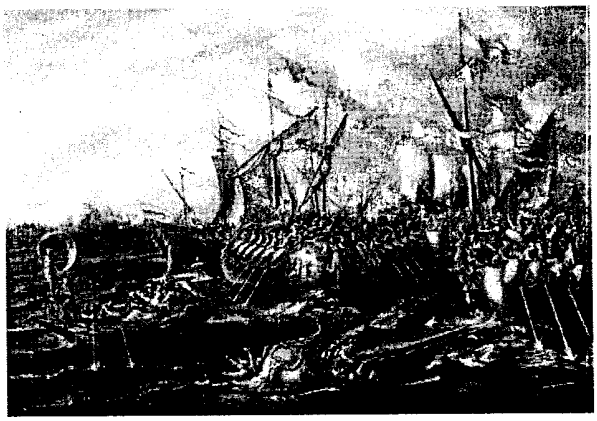

في ذروة مجده اغتيل القائد الروماني الشهير يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ الروماني (السناتو) في مارس من سنة ٤٤ ق.م، واضطربت روما العظيمة وعمتها الفوضى، وفي تلك اللحظات العصيبة برز مارك أنطونيوس صديق قيصر الحميم، فعمل على القضاء على الشغب ودعا للانتقام من قتلة قيصر، الذين فروا خارج روما، وصار حاكماً فعليّاً لروما، وكان يتوقع حين تُفتح وصية قيصر أن تمنحه مزيداً من القوة والسلطة، ولكن كانت المفاجأة أن الوصية التي قرأت على أهالي روما، منحت أغلب ممتلكات قيصر ولقبه، لـ«جايوس أوكتافيوس»، الشاب المغمور الذي كان قيصر خالاً لوالدته وتبناه في العام الذي اغتيل فيه.

كان أوكتافيوس ابن الثمانية عشر عاماً خارج روما حين اغتيل قيصر، وسرعان ما عاد إليها حين علم بالخبر والوصية، فلم يلق ترحيباً من أنطونيوس الذي عامله باستخفاف، ولكني الشاب استطاع بذكاء أن يستميل منافسي أنطونيوس في مجلس الشيوخ، وبعد حرب بينه وبين أنطونيوس لم يستطع أحدهما حسمها، لم يجدا بدّاً من التحالف لمحاربة قتلة قيصر، مع تقسيم الإمبراطورية بينهما، وتزوج أنطونيوس من أوكتافيا أخت أوكتافيوس.

كان قيصر قبل اغتياله قد زار مصر غازياً حيث تزوج ملكة مصر البطلمية كليوباترا السابعة، وأنجبت منه «قيصرون»، وبعد الاغتيال برزت كليوباترا على الأحداث مطالبة بلقب قيصر وعرشه لابنها قيصرون، في طموح منها للسيطرة على الإمبراطورية الرومانية، وقد وجد أنطونيوس في مطلب كليوباترا تهديداً لسلطاته في الجزء الذي يحكمه من الإمبراطورية، وأراد في الوقت نفسه استغلالها في السيطرة على

القسم الآخر من الإمبراطورية الذي يحكمه أوكتافيوس، فالتقى أنطونيوس بكليوباترا وتحالف معها، وبدا أن الأمور تتجه لحرب فاصلة بينهما وبين أوكتافيوس.

حشد الفريقان قوتهما، وعززا أساطيلهما البحرية، وكانت المواجهة ..

في الثاني من سبتمبر سنة ٣١ ق.م التقى الأسطولان في البحر الأيوني بالقرب من المستعمرة الرومانية أكتيوم في اليونان، ورغم أن أسطول أنطونيوس كان أقوى تسليحاً وأكثر عدداً فإنه قد مر بمشكلات عدة وهو ينتظر أسطول عدوه، فقد تفشت الملاريا بين رجاله، ومات عدد من المُجدفين، وانخفضت الروح المعنوية لقواته بسبب قطع قوات أوكتافيوس لخطوط إمداداته، كما فر أحد قادة جيش أنطونيوس منضماً إلى أسطول أوكتافيوس حاملاً معه الخطة التي وضعها أنطونيوس للمعركة، وفي وسط تلك الظروف المعاندة اضطر أنطونيوس لحرق السفن التي لا يجد لها رجالاً، وجمع سفنه وخاض المعركة..

في نهاية اليوم كانت المعركة تسير لصالح أوكتافيوس، فانسحب أسطول كليوباترا إلى عرض البحر دون أن يشارك، وفر أنطونيوس وكليوباترا من ساحة المعركة.

كنتيجة مباشرة للهزيمة البحرية خسر أنطونيوس أعداداً غفيرة من جنود جيشه البري الذي كان يستعد لملاقاة أوكتافيوس على الأرض، فقد تسلل في جنح الظلام ١٩ فيلق مشاة، و١٢ ألفاً من الفرسان، ورغم أن قوات أنطونيوس حققت نصراً في الإسكندرية في ٣٠ يوليو ٣٠ ق.م فقد تواصل فرار جنوده، وحاول أن يفر من الحرب عندما أدرك ضعف موقفه، ولكن أعداءه دسوا عليه رسالة كاذبة مفادها إلقاء القبض على كليوباترا، فانتحر.

وحين علمت كليوباترا بنبأ انتحار أنطونيوس، انتحرت هي الأخرى في ١٢ أغسطس ٣٠ ق.م !

أما أوكتافيوس فقد قتل قيصرون ابن كليوباترا وقيصر لاحقاً في ذلك العام، ليبقى هو الابن الوحيد ليوليوس قيصر.

وبذلك فقد تمكن أوكتافيوس بانتصاره في أكتيوم من إطلاق سيطرته على كافة الممتلكات الرومانية في البحر المتوسط؛ وصار بوسعه أن ينقل روما من النظام الجمهوري إلى الإمبراطوري، ليصبح هو المواطن الأول فيها، وأول أباطرتها، وسقطت مصر تحت الاحتلال الروماني لأكثر من ستة قرون.

تنصُّر بولس الطرسوسي

إذا كانت المسيحية الحالية تعتبر المسيح ربها.. فإن بولس هو نبيها ومؤسسها الحقيقي..

تمثال بولس في الفاتيكان

كانت لحظة تنصر بولس الرسول ـ كما يطلق عليه المسيحيون ـ لحظة فارقة في تاريخ المسيحية، فقد نقل بولس المسيحية من فضاء التوحيد إلى أجواء الوثنية والشرك، وخلقها خلقاً جديداً لم يعرفه عيسى ابن مريم ولم يدع إليه يوماً..

حسب التأريخ المسيحي المتداول ولد بولس في مدينة طرسوس الواقعة في آسيا الصغرى(تركيا اليوم)، بين السنة الخامسة والعاشرة للميلاد. كان اسمه عند الولادة شاول، وترعرع في كنف أسرة يهودية منتمية لسبط بنيامين بحسب شهادته في رسالته إلى أهل روما، كما أنه كان أيضاً مواطناً رومانيّاً، وقد عمل كصانع خيام، وكان مهتمّاً بدراسة الشريعة اليهودية حيث انتقل إلى أورشليم (القدس) ليتتلمذ على يد أحد أشهر المعلمين اليهود في ذلك الزمن.

كان شاول شديد العداء للمسيحية والمسيحيين، ومشاركاً في تعذيبهم، وقد خرج يوماً بعد استئذان الكهنة اليهود إلى مدينة دمشق (سنة ٣٥م) لتعقب المسيحيين الفارين وإعادتهم إلى دمشق، وفي الطريق ـ حسبما يروي بولس ـ وقعت له حادثة غيرت مسار حياته، فقد ظهر له المسيح وكلمه وعاتبه على اضطهاده له وأتباعه، فآمن بولس بالمسيح وندم على اضطهاد المسيحيين، وبعد تلك الرؤيا اقتيد بولس وهو مصاب بالعمى إلى مدينة دمشق، ورد إليه بصره، وغير اسمه من شاول إلى بولس.

قضى بولس فترة من عمره في بادية الشام، ثم عاد إلى دمشق، وهناك تآمر عليه اليهود ليقتلوه وأبلغوا عنه الحاكم فقام رفاقه بتسهيل هروبه من المدينة.

بعد ثلاث سنين (سنة ٤٠م) عاد بولس إلى أورشليم وهو راغب بلقاء تلاميذ المسيح، فمكث عند بطرس خمسة عشر يوماً قابل خلالها يعقوب البار، عقب ذلك

ابتـــدأ برحلاتـــه التبـــشيرية الـــشهيرة في الغـــرب، ولكنـــه قـــام أولاً بالتبـــشير في سوريا وكيليكية. وفي العشرين سنة اللاحقة قام بتأسيس العديد من الكنائس في آسيا الصغرى وثلاث كنائس على الأقل في أوروبا .

هيمنت شخصية بولس ورسائله وتعاليمه على الديانة المسيحية، وصارت منبعاً للعقائد المسيحية، وبلورت أفكاره عن موت المسيح وقيامته، وعن كون الكنيسة جسد المسيح السري، بلورت الإيمان المسيحي المعروف حالياً..

حول بولس ـ الذي لم ير المسيح قط ـ المسيح من عبد ورسول إلى ابن لله، وأدخل فكرة الخطيئة والصلب والفداء التي تقوم عليها المسيحية اليوم، فتحولت ديانة عيسى من الإسلام والتوحيد إلى التثليث، وعلى عكس المسيح الذي أقر بالشرائع اليهودية المنظمة لحياة الناس، أبطل بولس الشريعة، واستحدث أحكاماً منافية للفطرة، فلم يعد الختان من شرائع المسيحية رغم أن المسيح نفسه كان مختوناً حسب التعاليم اليهودية، وتغير الموقف المسيحي من الخمر والخنزير المحرمين في اليهودية، بفعل وصايا وتعاليم بولس..أي أنه غير المسيحية عقيدة وشريعة التى أنزلت على عيسى عليه السلام.

سقوط روما في أيدي البرابرة

"إن أعظم ما يواجه التاريخ من مشاكل
مشكلتان. أولهما كيف نفسر قيام الدولة
الرومانية، وثانيتهما كيف نفسر سقوطها"

(وول ديورانت في كتابه : قصة الحضارة)

في عام ٢٨٦م انقسمت الإمبراطورية الرومانية لقسمين رئيسيين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية (التي تُعرف بالإمبراطورية البيزنطية)، والإمبراطورية الرومانية الغربية التي تمثل القسم الغربي من الإمبراطورية، ومنذ الانقسام لم تعد روما عاصمة إمبراطورية، فقد صارت ميديولانوم (ميلانو الحالية) العاصمة للإمبراطورية الغربية، وفي عام ٤٠٢م نُقلت العاصمة إلى رافينا، وقد توحدت الإمبراطوريتان في فترات متقطعة بين القرنين الثالث والخامس، وكان ثيودوسيوس الأول (الذي حكم بين عامي ٣٧٩ ـ ٣٩٥) آخر إمبراطور حكم الإمبراطورية الرومانية الموحدة، وانقسمت الإمبراطورية بعد وفاته في عام ٣٩٥م بشكل دائم.

مع بداية القرن الخامس بدأت معاناة روما ومعاناة الإمبراطورية الغربية كلها، ففي عام٤١٠م، نُهبت روما لأول مرة من جانب قوى خارجية منذ غزوات الغال (الفرنسيين) في القرن الرابع قبل الميلاد، بسبب عدم الاستقرار الذي عاشته الإمبراطورية، فقد دخل الجنود البرابرة القوط روما وحرقوا المدينة ودمروا ما بها.

وفي سنة ٤٥٥م اقتحمت قبائل الفندال مدينة روما وعاثوا فيها فساداً وخربوها تخريباً عظيماً ولا سيما في الآثار الفنية والأدبية.

وفي سنة ٤٧٥م أُقصى الإمبراطور يوليوس نيبوس من عاصمة الإمبراطورية (رافينا) وأُعلن ابنه رومولوس أوغسطس إمبراطوراً.

وهنا يظهر أودواكر، الذي كان قائداً لوحدة مرتزقة جرمانية، وصار رئيساً للبرابرة المتمردين، ففي الرابع من سبتمبر ٤٧٦ قام أودواكر بالإطاحة برومولس، ونهب روما ونصب نفسه حاكماً على إيطاليا، ليصير أول ملوك البرابرة في إيطاليا.

وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية، ورغم استعادة الإمبراطورية الرومانية الشرقية لها لفترة قصيرة، لم تكن الإمبراطورية الرومانية الغربية لتنهض مرة أخرى. وبسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، بدأت حقبة جديدة في تاريخ أوروبا الغربية هى : العصور الوسطى.

قسطنطين يعتنق المسيحية

انتهى عهد الاضطهاد الديني وبدأ عهد الاضطهاد المذهبي..

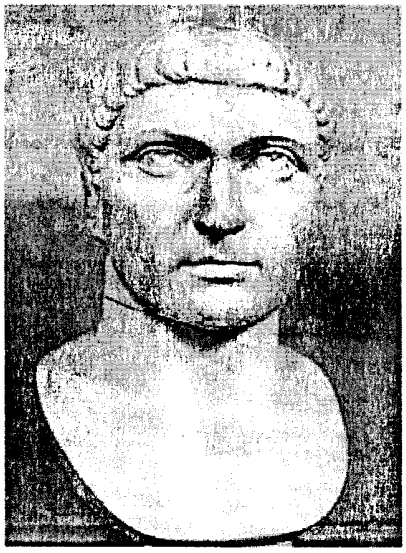

تمثال قسطنطين

في عام ٣١٣م أصدر الإمبراطور قسطنطين الأول مرسوم ميلانو الذي أعلن فيه إلغاء العقوبات المفروضة على من يعتنق المسيحية وبذلك أنهى فترة اضطهاد المسيحيين. كما قام بإعادة أملاك الكنيسة المصادرة.

وبذلك التحول التاريخي انتقلت المسيحية من عصر الاضطهاد إلى عصر التمكين والانتشار وحكمت أوربا قروناً..

حين ظهرت المسيحية كانت الإمبراطورية الرومانية تهيمن على العالم، خاصة بلاد الشرق حيث ولد المسيح ودعا لدينه، وقد اعترف المسيح - حسبما يروي الإنجيل الحالي - بسلطة قيصر السياسية، وذلك في المقولة الشهيرة :دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله..

ومع انتشار المسيحية في البلاد المحيطة بفلسطين بعد رفع المسيح عليه السلام، رفض المسيحيون تأليه الإمبراطور الروماني وعبادته كما رفضوا الخدمة في الجيش الروماني، ولذلك نظرت الحكومة الرومانية إلى المسيحيين على أنهم فرقة هدامة تهدد أوضاع الإمبراطورية وكيانها.

وقد بدأ اضطهاد الدولة الرومانية الرسمي للمسيحيين في عام ٦٤م على أيدي الإمبراطور نيرون وحتى عام وفاته ٦٨م بتحريض من زوجته بوبيا سبينا، وعرف هذا الاضطهاد بالاضطهاد الأول، أما الاضطهاد الثاني فقد تم بين عامي ٩٥ – ٩٦م زمن الإمبراطور دوميتيان.

في عصر نيرون كثرت المؤامرات والاغتيالات السياسية التي كان له يد في تدبيرها، وكانت أمه «أجريبينا» إحدى ضحاياه وكذلك «أوكتافيا» زوجته الأولى، وأيضاً قتل معلمه سينيكا. أما أشهر جرائمه على الإطلاق فكانت حريق روما الشهير سنة ٦٤م حيث راوده خياله أن يعيد بناء روما، وقد ظلت روما أياماً حتى التهمت النيران عشرة أحياء من جملة أنحاء المدينة الأربعة عشر، وبينما كانت النيران تتصاعد والأجساد تحترق وفى وسط صراخ الضحايا كان نيرون جالساً في برج مرتفع يتسلى

بمنظر الحريق مع زوجته اليهودية وبيده آلة الطرب يغنى أشعار هوميروس التي يصف فيها حريق طروادة.

هلك في هذا الحريق آلاف من سكان روما واتجهت أصابع اتهام الشعب والسياسيين تشير إلى نيرون في هذا الحريق المتعمد، وتزايدت كراهية الشعب له، وكان لا بد له من كبش فداء أمام شعبه فاختار المسيحية ككبش فداء لجريمته، فألصق التهمة بالمسيحيين، وبدأ يلهى الشعب بالقبض على المسيحيين واضطهادهم وسفك دمائهم بتقديمهم للوحوش الكاسرة أو حرقهم بالنيران أمام أهل روما وفى جميع أنحاء الإمبراطورية، حتى كان يختار ولاة الأقاليم بمدى قسوتهم في قتل المسيحيين، وسيق أفواج من المسيحيين لإشباع رغبة الجماهير في رؤية الدماء، وعاش المسيحيون في سراديب تحت الأرض وفى الكهوف فراراً من الاضطهاد.

واستمر الاضطهاد أربع سنوات ذاق خلالها المسيحيون كل ما يتبادر إلى الذهن من أصناف التعذيب، وكان من ضحاياه بولس وتلميذا المسيح بطرس ومرقص الذين قتلوا عام ٦٨م، وفي السنة نفسها انتحر نيرون بعد أن أُقصي عن العرش.

خلال القرنين الثاني والثالث تأصلت المسيحية بعمق في القسم الشرقي من الإمبراطورية. واستمرت الكنائس الثلاث: إنطاكية وروما والإسكندرية في تطورها وتنظيمها، ولكنها تعرضت في هذين القرنين إلى ما لا يقل عن ثمانية اضطهادات كبرى بحيث أخذ اضطهاد المسيحيين شكلاً مزمناً يخف تارة ويشتدُّ أخرى.

كان تراجان (تولى سنة ٩٨م) هو أول إمبراطور أعلن أن المسيحية ديانة محرمة، ولكي يضع حدّاً لانتشار المسيحية، حكم على كثيرين من المسيحيين بالموت، وأرسل بعضا آخر إلى المحكمة الإمبراطورية بروما.

أحيا تراجان التشريعات الصارمة ضد جميع الهيئات والجماعات السرية. وقد اعتُبرت اجتماعات المسيحيين الدينية من هذا النوع. وقد ظلت الدولة تسير في تعاملها مع رعاياها المسيحيين، على هدى هذه القوانين التي استنها تراجان لأكثر من قرن من الزمان.

شهد القرن الثالث صوراً أخرى من ألوان الاضطهاد للمسيحيين، وذلك في عهد الإمبراطور دقلديانوس الذي حكم من سنة ٢٨٤ حتى سنة ٣٠٥م.

حرص دقلديانوس معظم سنوات حكمه على اتباع سياسة تسامح ديني مع المسيحيين، ثم تحولت سياسته ضدهم في أواخر حكمه، فأصدر أربعة مراسيم فيما بين سنتي ٣٠٢-٣٠٥م تحث على اضطهاد المسيحيين، وقد شهدت هذه المراسيم حرق الأناجيل والكتب الدينية، ومُنع المسيحيون من التجمع وحُرم عليهم القيام بأي صلوات أو طقوس دينية، وقُتل كل رجال الدين المسيحي وصودرت جميع أملاك الكنيسة، وكان وقع الاضطهاد شديدا على الأقباط في مصر لدرجة أنهم اتخذوا من سنة ٢٨٤م وهو تاريخ تولي دقلديانوس الحكم بداية للتقويم القبطي.

ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصاً في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية، أم كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية؟

أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب. لقد اعتنقت أمه هلينا الدين المسيحي حين طلقها قنسطنطيوس ؛ ولعلها أفضت إلى ولدها بفضائل المسيحية، وما من شك في أنه تأثر بما ناله من انتصارات في المعارك الحربية التي خاض غمارها مستظلاً بلواء المسيح وصليبه.

أحاط قسطنطين نفسه في بلاطه ببلاد غالة (فرنسا) بالعلماء والفلاسفة الوثنيين، ويتضح من رسائله التي بعث بها إلى الأساقفة المسيحيين أنه لم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التي كانت تضطرب لها المسيحية - مع أنه لم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية.

وقد كان في أثناء حكمه كله يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون ؛ فكان يستدعيهم إليه، ويرأس مجالسهم، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم من آراء. لقد شهد قسطنطين في حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات، وانطبع في نفسه بلا ريب انتصار المسيحية رغم كل اضطهاد. نعم إن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة في

الدولة، ولكنهم كانوا إذا قيسوا إلى غيرهم قلة متحدة، مستبسلة قوية، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية، وكان فيها عدد كبير من النفوس التي لا عقيدة لها ولا نفوذ في الدولة.

ولقد أعجب قسطنطين بجودة نظام المسيحيين إذا قيسوا بغيرهم من سكان الإمبراطورية، وبمتانة أخلاقهم، وحسن سلوكهم، وبجمال الشعائر المسيحية وخلوها من القرابين الدموية، وبطاعة المسيحيين لرؤسائهم الدينيين، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم في أنهم سيحظون بالسعادة في الدار الآخرة. ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان. ويعيد إلى الأسرة ما كان لها من شأن قديم، ويخفف من حدة حرب الطبقات، وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد، ذلك بأن معلميهم قد غرسوا في نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنية، ولقنوهم حق الملوك المقدس.

كان قسطنطين يأمل أن يكون ملكاً مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتي وسلطان الكنيسة الدنيوي يقيمان نظاماً روحياً يناسب نظام الملكية، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها. لكن قسطنطين اضطر إلى أن يتحسس كل خطوة يخطوها بحذر، لأن الوثنية كانت هي الغالبة على العالم الذي يعيش فيه. ولذلك ظل يستخدم ألفاظاً توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثني، وقام خلال السنين الأولى من سلطانه المفرد في صبر وأناة بجميع المراسيم التي يتطلبها منه منصب الكاهن الأكبر، والتي تحتمها عليه الطقوس التقليدية، وجدد بناء الهياكل الوثنية، وأمر بممارسة أساليب العرافة، واستخدم في تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معاً، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض. ولما توطدت دعائم قوته أخذ يجهر تدريجياً بمحاباة المسيحية، فمحا بعد عام ٣١٧م من نقوده واحدة بعد واحدة ما كان على وجهها من صور وثنية، ولم يحل عام ٣٢٣م حتى كان كل ما عليها من الرسوم نقوشاً محايدة لا هي مسيحية ولا وثنية.

ومن المراسيم القانونية الباقية من عهده مرسوم مشكوك فيه ولكنه لم يثبت كذبه، يخوّل الأساقفة المسيحيين حق الفصل فيما يقوم في أبرشياتهم من منازعات قضائية، وأعفت قوانين أخرى أملاك الكنيسة العقارية من الضرائب وجعلت الجماعات المسيحية شخصيات معنوية قضائية، وأجازت لها امتلاك الأرض وقبول الهبات، وجعلت الكنيسة هي الوارثة لأملاك الشهداء الذين لم يعقبوا ذرية.

وكذلك وهب قسطنطين أموالاً إلى المجامع الدينية المحتاجة إليها، وشاد عدداً من الكنائس في القسطنطينية وغيرها من المُدن، وحرّم عبادة الأوثان في عاصمته الجديدة. وكأنه نسي مرسوم ميلان الذي كفل حرية العقيدة فحرّم اجتماع الشيع الدينية الملحدة، وأمر آخر الأمر بتدمير مجامعهم الدينية.

وربى أبناءه تربية مسيحية سليمة، وأعان بالمال أعمال البر المسيحية التي كانت تقوم بها أمه. وابتهجت الكنيسة بهذه النعم التي فاقت كل ما كانت تتوقعه؛ وكتب يوسيبوس صحائف كانت في واقع الأمر عقود مدح لقسطنطين وإقراراً بفضله، واحتشد المسيحيون في جميع أنحاء الإمبراطورية ليعبروا عن شكرهم لانتصار إلههم.

لقد غير قسطنطين وجه الإمبراطورية، وفتح للمسيحية أبواب مستقبل جديد، انتقلت فيه الكنائس المسيحية من الاضطهاد، إلى عصر الصراع المذهبي وحكم الدنيا باسم الدين.

الهجرة النبوية

صار للإسلام وطن .. ودولة

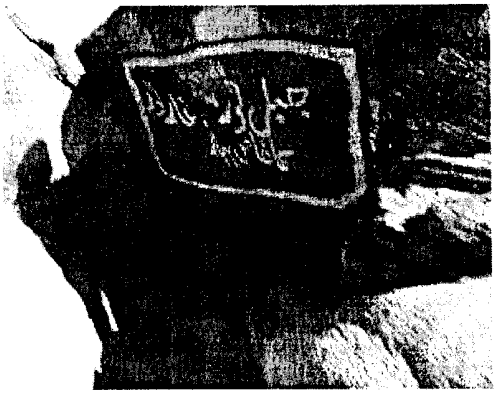

رغم أن محمداً نبي الإسلام (ﷺ)، كان معروفاً بين قومه بالصدق والأمانة والاستقامة الخُلقية حتى عامه الأربعين، ورغم أنه جاء قومه بميراث جدهم إبراهيم من التوحيد والشعائر، وبمعجزة بيانية عجزوا عن محاكاتها أو مجاراتها، فقد قاوموا دعوته بعنف، واتهموه بالسحر والجنون والكهانة وقول الشعر، واضطهدوا أتباعه، حتى اضطروهم للهجرة للحبشة مرتين، وحاصروهم ثلاث سنوات في شعب أبي طالب لا يبيعون لهم ولا يتزوجون منهم ولا يعاملونهم بأي معاملة مادية..

استخدم كفار مكة كل السبل لمقاومة «الدين الجديد»، استخدموا الترغيب فعرضوا على محمد المال والملك والسلطان، واستخدموا الترهيب فعذبوا أتباعه وآذوه وفي النهاية قرروا قتله مجتمعين، وفي كل الحالات بقي محمد على إيمانه وثقته بربه طوال ثلاث عشرة سنة، يؤازره الوحي، وتثبت قلبه كلمات الله..

في وسط تلك الظروف كانت الهجرة ليثرب حدثاً تاريخيّاً فارقاً، جعل للإسلام وطناً ومكن المسلمين من بناء نواة دولة استطاعت فيما يقرب من مائة عام أن تمتد من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً، لتصير من أكبر الدول التي عرفها التاريخ..

وقد انتبه عمر بن الخطاب لتلك الحقيقة فاختار الهجرة ـ ولم يختر ميلاد النبي (ﷺ) أو تاريخ نزول الوحي عليه ـ بداية للتقويم الإسلامي، لأنه أدرك أنها تاريخ بداية دولة الإسلام وتمكينه في الأرض.

كان النبي (ﷺ) يعلم منذ نزل عليه الوحي أنه سيضطر للهجرة من مكة، ففي حديثه مع ورقة بن نَوفَل عندما اصطحبته زوجه خديجة - رضِي الله عنها - إلى ابن عمها، عندها قال له ورقة: «هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، ليتني أكون حيّاً

إذ يُخرِجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَمُخرِجِيَّ هم؟!»، قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثْل ما جئتَ به إلا عُودِي، وإنْ يُدرِكْني يومُك أنصُرْكَ نصرًا مُؤزَّراً»..

وقد سبقت تلك الهجرة المباركة عدة هجرات؛ منها: الهجرة الأولى إلى الحبشة؛ والتي هاجر فيها عشرة رجال وخمس نسوة، وكذلك الهجرة الثانية إلى الحبشة؛ وقد هاجر فيها بضع وثمانون مسلماً، وكذا الهجرة إلى الطائف؛ وكان فيها النبي ﷺ وحده.

أما عن أهم أسباب الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة فهي:

(١) ـ انغلاق سبل الدعوة في مكة مع رفض أهلها الشديد للإسلام الذي يهدد مصالحهم المادية، ويغير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لغير ما يحبون.

(٢) ـ استعداد أهل المدينة لقبول الإسلام واستضافة المسلمين، بما يعني أن ينتقل الإسلام من مرحلة الدعوة لمرحلة الدولة والتمكين.

(٣) ـ تعرض النبي (ﷺ) وأصحابه للاضطهاد والتعذيب في مكة، ليرجعوا عن دينهم.

(٤) – كانت الهجرة ضَرُورية لإقامة الدَّولة الإسلاميَّة.

فقد رأي النبي – ﷺ– أنه مكلف برسالة عالمية وليست محلية أو قومية، وأن هذه العالمية لرسالته لم تكن طموحا خاصًّا، يتطلع النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى تَحقِيقه، وهو يعلم أن السبيل إلى ذلك شاق وعسير قِياسًا بما لقيه من محاولات نشر الدعوة داخل المحيط الضيق الذي لم يتعد قبيلته أو القبائل المجاورة في مكة وما يُحِيط بها، بيد أن النبي – صلى الله عليه وسلم – استشعر مسئولية قولِ الله – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

من أجل هذا أحس النبي - ﷺ- أن تحقيق عالمية رسالته لا يأتي إلا من خلال نظامٍ سياسي وكيان اجتماعي يحميهما نظام عسكري في موطِنٍ أمين، أو بالأحرى من خِلال دولة تكفل لهذه الدَّعوة الانتشار والذُّيوع، وتحمِي أتباعها وتُؤمِّنهم؛ ومن ثَمَّ تطلَّع النبي - ﷺ- إلى تحقِيق ذلك؛ وكانت الهجرة هي الخطوة الفارقة في تاريخ الإسلام.

مقتل الخليفة عثمان بن عفان

ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟!

محمد بن عبد الله ﷺ واصفاً عثمان بن عفان – رضى الله عنه–

صورة من المسلسل التليفزيوني الفتنة الكبرى

كان يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة من سنة ٣٥ هـ فارقاً في تاريخ الأمة الإسلامية.. ففيه وقعت «الفتنة الأولى» التي فتحت الباب لـ«الفتنة الكبرى» التي لا يزال المسلمون يعانون نتائجها لليوم، بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام..

في أواخر عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بدأ نوع من التذمر من سياسات ولاته في بعض الولايات التابعة للخلافة، خاصة في مصر، وقد وفدت على المدينة وفود من تلك الولايات لمقابلة الخليفة وتقديم الشكاوى إليه مباشرة، وكان من الواضح أن هناك أياديَ خفيفة، ساهمت مع بعض الأخطاء من قبل ولاة الخليفة في إذكاء غضب جماهير الولايات، فامتد سخط الجماهير إلى الخليفة نفسه، وتزعم بعض أبناء الصحابة بمصر ـ كمحمد بن أبي بكر الصديق ـ الثورة على عثمان، وواجهوه ببعض الأمور التي رأوا فيها انحرافاً وتبديلاً عن سنة رسول الله وخليفتيه أبي وبكر وعمر، فرد عليهم مبيناً صحة ما فعل، وحدث شد وجذب طلبوا فيه من الخليفة أن يسلمهم ابن عمه مروان بن الحكم، الذي كان بمثابة الوزير من عثمان، لاعتقادهم أنه السبب في الأخطاء التي يشكون منها، وانتهى الأمر بأن أصدر الخليفة قراراً بتولية محمد بن أبي بكر على مصر، التي كان أهلها يشكون من سياسات ولاتها، ولكن ابن أبى بكر ورفاقه أثناء تحرّكهم في قافلتهم لمحوا شخصا يمتطى جواده بسرعة فائقة في الصحراء فطاردوه ولحقوا به واستوقفوه وبتفتيشه عثروا معه على رسالة مغلقة ففتحوها فوجدوا كتابًا إلى والى مصر يأمره بالإمساك بابن أبى بكر وحبسه هو ومن معه لحين وصول خبر جديد بشأنهم إليه ... وكانت الرسالة مهورة بختم عثمان بن عفّان فعاد الوفد أدراجهم إلى المدينة وواجهوا عثمان الذي أنكر علمه بفحوى الرسالة رغم إقراره بصحّة ختمه عليها فتم تحديد إقامته بمنزله لحين التشاور في الأمر.

تطور الأمر ودخلت فيه عناصر أخرى، وحاصر الثائرون بيت عثمان، ومنعوه من الصلاة بالمسجد.

كانت الجيوش الإسلامية في الثغور والولايات، و لم يكن هناك جيش في المدينة، فلم يكن هناك من يحمي الخليفة من مثل هؤلاء، وأكد عثمان على باقي أهل المدينة من الصحابة وأبنائهم (ومنهم علي وابناه الحسن و الحسين وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير) ألا يتعرضوا للمتمردين حتى لا يكون هناك سفك للدماء بين المسلمين، ولم يدر بخلد أحد أن يصل الأمر إلى القتل..

طال الحصار أكثر من شهر ومنع المتمردون الماء من الوصول لبيت عثمان، بينما وقف أبناء كبار الصحابة كالحسن والحسين وابن الزبير يحمون الدار من الاقتحام، وأصبح الخليفة صائماً.. وفتح المصحف يقرأ فيه، فدخل عليه بضعة عشر رجلاً نجحوا في التسلل من أسطح الدور المجاورة، وما فيهم أحد من الصحابة و لا أبنائهم إلا محمد بن أبي بكر، وحين عاتبه عثمان وذكره بأن أباه أبا بكر كان يوقر عثمان ويشهد له بالفضل، أفاق محمد وندم، وحاول الدفاع عن عثمان، ولكن المتمردون نجحوا في قتله..

بعد مقتل عثمان بدأت الفتن تتوالى، فقد بحث المتمردون عن رجل يولونه الخلافة وفكروا في علي بن أبي طالب، ولكنه ظل يتهرب منهم، حتى وجد أنه لا مفر من أن يتولى المنصب ليكون للمسلمين خليفة، وخرج الصحابيان الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله يطالبان بالثأر لعثمان، وانضمت إليهما أم المؤمنين عائشة، وحاربوا علي بن أبي طالب في موقعة الجمل، كما طالب معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً للشام بدم الخليفة القتيل، وكان من أبناء عمومته، وتطور الأمر للصراع بين علي

ومعاوية، وانتهى الأمر باستشهاد على بن أبي طالب على أيدي الخوارج سنة ٤٠ هـ، وفي العام التالي بويع معاوية بالخلافة ليحول الخلافة لملك وراثي، وتبدأ الأمة مرحلة جديدة من تاريخها.

موقعة بلاط الشهداء

"لـولا انتـصار شـارل مارتـل الهمَجِـي علـى
المُـسْلمينَ وقائـدهمُ الغـافقي، لظلـتْ إسْـبانيَا
تنعم بسمَاحةِ الإسلام"

أحد مؤرخي الفرنجة

في الحادي والعشرين من أكتوبر ٧٣٢م، وعلى مقربة من باريس، وقعت تلك المعركة التي أثرت على تاريخ أوربا والعالم بأسره .

فتح المسلمون الأندلس بين عامي ٧١١م ـ٧١٤م، وأخذوا في دفع فتوحاتهم حتى إلى ما وراء جبال البرنيه «البرانس» الآن، ففتحوا ولايات فرنسا الجنوبية، وبسطوا نفوذهم على سهل نهر الرون، ولكن الخلافات العصبية القبلية أدت لهزيمة المسلمين في موقعة تولوز سنة ٧٢١م، وقتل أمير الأندلس فيها «السمح بن مالك» ومعه زهرة جند الأندلس، فارتد المسلمون إلى حدود فرنسا استعداداً لجولة أخرى، ولكن الفوضى الكبيرة التي اجتاحت الأندلس بسبب الصراع القبلي والعنصري بين البربر والعرب من جهة، والعرب فيما بينهم «قيسية ويمانية» من جهة أخرى؛ أعاقت حركة الفتح زهاء عشرة أعوام، حتى تم تعيين القائد العظيم «عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي» والياً على الأندلس سنة ٧٣٠م.

كان «عبد الرحمن الغافقي» جنديّاً عظيماً، وقائداً محنكاً، وسياسيّاً ماهراً، ومؤمناً ورعاً، شديد الحب للجهاد في سبيل الله، وتضطرم نفسه برغبة عارمة للانتقام لمصاب المسلمين في تولوز، لذلك أخذ في إعداد العدة لغزو بلاد فرنسا مرة أخرى، وقام بإصلاحات إدارية وتنظيمية بالأندلس أدت لتهدئة الأوضاع، واستقرار الداخل الأندلسي، وفي هذه الفترة المضطربة حاول أحد زعماء البربر الطموحين والطامعين في الحكم واسمه «منوسة» أن ينتهز الفرصة، ويستقل بحكم الولايات الشمالية، ومن أجل هذا الغرض الجامح دخل في حلف مع الكونت «أودو» حاكم إقليم «أكوتين» في جنوب فرنسا.

شعر عبد الرحمن الغافقي بخطورة الأمر فقرر المبادرة بالتحرك قبل استفحال الفتنة، وبالفعل أرسل جيشاً لتأديب «منوسة»، واستطاع هذا الجيش أن يقضي على جيش «منوسة» ويقتله، فشعر حليفه الفرنسي الكونت «أودو» بالخطر القادم نحوه، فتأهب للدفاع عن مملكته، وعندها توجه «عبد الرحمن الغافقي» بكل جيوشه المسلمة من عرب وبربر في أعظم جيش شهدته إسبانيا وفرنسا وذلك في سنة ٧٣٢م، واخترق شمال الأندلس كالإعصار العاتي، وانقض المسلمون على إقليم «أكوتين» كالسيل

الجارف، وحاول «أودو» إيقافهم ولكنه هزم هزيمة فادحة، وتمزق جيشه تماماً، وفر هو ناحية الشمال، وواصل المسلمون فتحهم للجنوب الفرنسي، حتى وصلوا إلى مدينة «صانص» على بعد مئة ميل من العاصمة باريس، أي افتتح المسلمون نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط.

كان ملك الفرنج أو فرنسا وقتها هو «تيودوريك الرابع»، ولكن ملوك الفرنج كانوا في ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط، وكان محافظ القصر الفرنجي واسمه «شارل مارتل» هو الملك الحقيقي المستأثر بكل سلطة، فاجتمع قادة الفرنج معه، وتشاوروا في كيفية التصدي لهذا الاكتساح الإسلامي لبلادهم، وكان «شارل مارتل» من أدهى رجال الفرنج، وأكثرهم حنكة، وكان على عداوة كبيرة مع الكونت «أودو» لذلك تركه فريسة سهلة للمسلمين ولم ينجده، فأشار «شارل مارتل» على قادة الفرنج أن ينتظروا حتى يقدم عليهم المسلمون، وقال لهم بالحرف الواحد: «الرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم بالغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا على الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر».

حشد شارل مارتل جيشاً ضخماً من الفرنسيين والعشائر الجرمانية البربرية الوثنية، والعصابات المرتزقة من كل حدب وصوب، حتى أصبح هذا الجيش أضعاف جيش المسلمين على الرغم من ضخامة جيش المسلمين، وعسكر الفرنج عند سهل «تور» بين فرعي نهر «اللوار»، وواصل المسلمون زحفهم حتى اقتربوا من معسكر الفرنج، فأرسل «عبد الرحمن الغافقي» دورية استطلاعية لاستكشاف استعدادات العدو، ولكن هذه الدورية أخطأت في تقدير ضخامة الجيش الفرنجي، فاقتحم عبد الرحمن ومن معه نهر اللوار لملاقاة الأعداء، ففوجئ بضخامة الجيوش الفرنجية، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه، وكان وضع الجيش الإسلامي غير مطمئن بسبب رغبة قبائل البربر في الانسحاب بالغنائم المهولة التي غنموها خلال اجتياح الجنوب الفرنسي، والإرهاق الذي أصابهم من كثرة القتال.

بدأ القتال بين الجيشين في أواخر شعبان على شكل مطاردات جانبية، ومبارزات فردية حتى يوم ٢ رمضان ١١٤هـ - ٢١ أكتوبر ٧٣٢م، حيث اندلعت المعركة العامة الشاملة واستمرت دون تقدم فريق على الآخر، حتى بدأ التعب على الفرنج، ولاح النصر في جانب المسلمين، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ استطاع الفرنج أن يفتحوا ثغرة إلى معسكر الغنائم، فارتدت أعداد كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى الخلف لحماية الغنائم، ودب الخلل في صفوف المسلمين، وعبثاً حاول القائد «عبد الرحمن الغافقي» تنظيم الصفوف، وحث الجنود على الثبات والبقاء، وأثناء ذلك يصاب «عبد الرحمن» بسهم قاتل يخر معه شهيداً في أرض المعركة، ويعم الاضطراب والفوضى في الجيش الإسلامي، وانتهز الفرنج الأمر وشددوا الهجوم على المسلمين، وكثر القتل بينهم، ولكنهم صمدوا حتى جن الليل، وافترق الجيشان دون فصل، وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي، ودب اليأس من النصر بينهم، فقرروا الانسحاب نحو أقصى الجنوب الفرنسي، فلما طلع الفجر لم يجد الفرنج المسلمين في معسكراتهم، وعندما تقدم شارل مارتل بحذر نحو المعسكرات المهجورة إلا من الجرحى والمرضى، كان يخشى أن تكون هناك خدعة يرتد بعدها العرب للحرب، وعندما تيقن من انسحاب أعدائه، قتل جميع من في المعسكرات من جرحى المسلمين الذين لم يستطيعوا الانسحاب بلا رحمة، ولم يفرق بين جريح وأسير ومريض. إنما أعمل فيهم السيف، ونهب ما فيه من العتاد والسلاح وحول هذه المعسكرات إلى بحيرات من دماء! ولكنه تخاذل عن متابعة الجيش المنهزم، خشية أن تتحول انتصاراته إلى هزيمة.

لم تحظ معركة بكل هذا التهليل من جانب أوروبا كتلك المعركة، حيث تغنى بها الشعراء والأدباء والفنانون، لاعتقادهم بأنه لو تم النصر للمسلمين في هذه المعركة لاكتسح الإسلام أوروبا كلها كما كان يأمل عبد الرحمن الغافقي. وبالتالي كانت هذه المعركة الحد الفاصل بين عصر وعصر، وانقلبت الموازين، وأمنت أوروبا من الزحف العربي الكاسح الذي اجتاح نصف فرنسا علي يد عبد الرحمن الغافقي

بابا روما يدفع الجزية للعرب

في ذلك اليوم كان من الممكن أن يتغير التاريخ، فقد حاصر المسلمون روما وكادت تخر ساجدة

في ذلك اليوم كان من الممكن أن يتغير التاريخ، فقد حاصر المسلمون روما وكادت تخر ساجدة كما قال المؤرخون، لولا أن أم البابا توجهت لقائد المسلمين ومعها بناتها، وسجدن له ورجونه أن يقبل الجزية.. ففعل..

في عام ٢٣١هـ، قرر مجموعة من المجاهدين المتطوعين بعد التشاور فيما بينهم غزو مدينة روما وعرضوا الفكرة على حكومة صقلية ووالیها (الفضل بن جعفر الهمذاني)، فرفع الأمر بدوره إلى أمير الأغالبة، الذين كانوا يحكمون تونس، وقتها (أبي العباس محمد بن الأغلب) فأعجبته الفكرة وأمد المجاهدين بكميات من العتاد والمؤن والرجال، وانطلقت الحملة البحرية في السنة نفسها نحو سواحل إيطاليا حتى وصلت إلى مصب نهر تيفيري وتقع روما عند منتهى هذا النهر، وكانت أسوار مدينة روما وقتها لا تشمل كل المدينة القديمة، بل كان الحي الديني الذي فيه كنيستا بطرس وبولس الشهيرتان، وطائفة كبيرة من المعابد والهياكل والقبور القديمة خارجًا عن الأسوار، وقد تركت بلا حراسة ظنًّا من النصارى أنها منطقة مقدسة محمية من السماء! فانقض المجاهدون على ذلك الحي وغنموا كل كنوزه وكانت فوق الوصف، ثم ضربوا الحصار على مدينة القياصرة، وأوشكت المدينة على السقوط، فارتاع البابا سرجيوس الثاني بابا روما وقتها من الهجوم الشامل وأرسل نداءات استغاثة لملوك وأمراء أوروبا، فبادر إمبراطور الفرنج وقتها لويس الثاني بإرسال حملة كبيرة من جنوده لنجدة روما وكنائسها، ونظرًا للخلافات التي دبت بين زعماء الحملة المسلمين أنفسهم، رفع المسلمون الحصار وعادوا إلى صقلية مثقلين بالغنائم والأسرى.

كشفت هذه المحاولة الجريئة التي قام بها المجاهدون المسلمون عن مدى ضعف مدينة روما التي كانت يومًا ما عاصمة العالم القديم، ومركز النصرانية العالمية،

وهشاشة دفاعاتها، فقرر المسلمون معاودة الكرة مرة أخرى ريثما تسنح الفرصة، وكان ذلك سنة ٢٥٦ هجرية، وبدعم قوى من أمير الأغالبة وقتها (محمد بن أحمد بن الأغلب). وكان هذا الأمير قد نجح قبل ذلك بعام واحد في فتح جزيرة مالطة أي سنة ٢٥٥ هجرية، فارتفع سقف طموحاته لنيل شرف فتح روما، وبالفعل اجتمعت أساطيل المجاهدين مع أساطيل الأغالبة، وساروا على نفس طريق الحملة السابقة حتى وصلوا إلى مصب نهر تفيري، فأسرع بابا روما وقتها وهو ليون الرابع وقد تعلم الدرس من الغزوة السابقة، أسرع وطلب من أساطيل جنوة ونابولي رد الحملة البحرية المسلمة على روما، ونشبت عند مياه ميناء أوستيا معركة بحرية هائلة بين الفريقين، كاد المسلمون فيها أن يسحقوا الأساطيل النصرانية، لولا هبوب عاصفة بحرية مدوية على أوستيا، أدت إلى توقف القتال.

لم تثن هذه العاصفة القوية من عزم المسلمين ورغم خسائرهم الكبيرة من جراء العاصفة، فإنهم أصروا على مواصلة الغزوة، وحاصروا المدينة بمنتهى القوة حتى أوشكت على السقوط، ما دفع بابا روما يوحنا الثامن الذي خلف ليون الرابع الذي هلك حزنًا على مصاب النصرانية، لأن يرضخ لشروط المسلمين، ويدفع لهم الجزية سنويًّا وقدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة، وكان وقع ذلك الأمر شديدًا على الأمم النصرانية عامة وفي أوروبا خاصة، إذ كيف يدفع البابا الجزية للمسلمين.

كان سقوط روما سيفتح الباب أمام المسلمين لفتح مناطق أخرى من أوروبا، وكان سيقضي على البابوية الكاثوليكية التي ظلت توقد الحروب ضد المسلمين، وتدعم أمراء الأندلس المسيحيين، وتحرضهم على طرد المسلمين.

دخول الفاطميين مصر

في مصر لا تزال آثار الفاطميين قائمة: عادات اجتماعيـــة مرتبطـــة بالمناســـبات الدينيـــة، وأضرحة، وموالد، وبدع دينية..

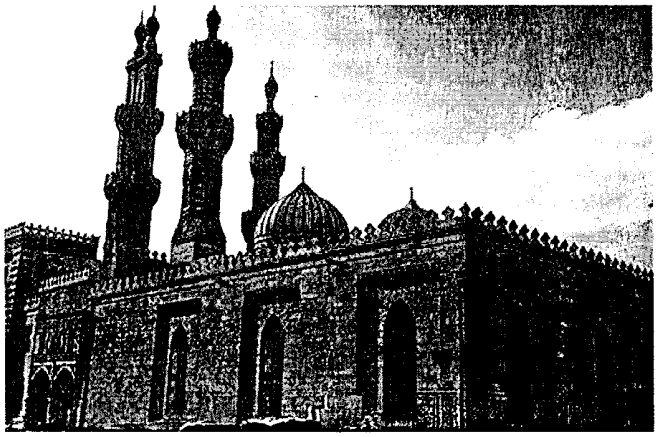

في ربيع الآخر من سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠م قامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا، برياسة عبيد الله المهدي الذي بويع بالخلافة وتلقب بأمير المؤمنين. وقد قضى عبيد الله قرابة الربع قرن في التأسيس وإرساء القواعد لدولته الشيعية التي تنازعت الخلافة الإسلامية مع الخلافة العباسية في بغداد.

كان الفاطميون يطمحون للسيطرة على العالم الإسلامي، والانفراد بالسلطة فيه، وكان الاستيلاء على مصر خطوة مهمة لتحقيق هذا الهدف، فستكون القاعدة التي يمكن الانطلاق منها للتوسع شرقاً ومجابهة الدولة العباسية، لذا حاول المهدي الاستيلاء عليها بعد سنوات أربع من مبايعته (سنة ٣٠١ هـ)، وما إن تولى القائم بأمر الله الولاية خلفاً لأبيه المهدي حتى أرسل قواته لمدينة الإسكندرية المصرية سنة ٣٢٢ هـ، ولكن قوات الإخشيد حاكم مصر نجحت في هزيمتهم وردهم، فتأجلت المطامع الفاطمية في عهد القائم بالله (تولى من سنة ٣٢٢ـ ٣٣٤ هـ)، وابنه المنصور بالله (تولى من ٣٣٤ هـ ـ٣٤١هـ)، حتى تولى المعز لدين الله بن المنصور.

في سنة ٣٥٥ بدأ المعز التخطيط لغزو مصر، وجاءت وفاة والي مصر القوي كافور الإخشيدي في سنة ٣٥٧ هـ لتسهل المهمة، فأرسل المعز واحداً من أكفأ قواده وهو جوهر الصقلي على رأس جيش قوي في ربيع الأول من سنة ٣٥٨م، ولم يجد الجيش مشقة في دخول البلاد في شعبان من السنة نفسها، بل دخلها دون مقاومة بعد أن أعطى الأمان للمصريين.

بعد شهور رأى جوهر الصقلي أن الوقت قد حان لحضور الخليفة المعز إلى مصر، وأن الظروف مهيأة لاستقباله في القاهرة عاصمته الجديدة، فكتب إليه يدعوه إلى

الحضور وتسلم زمام الحكم. فخرج المعز من المنصورية عاصمته القريبة من القيروان، في ٢١ من شوال ٣٦١ هـ= ٥ من أغسطس ٩٧٢م وحمل معه كل ذخائره وأمواله حتى توابيت آبائه حملها معه. واستخلف على المغرب أسرة بربرية محلية هي أسرة بني زيري، وكان هذا يعني أن الفاطميين قد عزموا على الاستقرار في القاهرة، وأن فتحهم لها لم يكن لكسب أراضٍ جديدة لدولتهم، وإنما لتكون مستقرّاً لهم ومركزاً يهددون به الخلافة العباسية.

وصل المعز إلى القاهرة في ٧ رمضان ٣٦٢هـ= ١١ يونيو ٩٧٢م، وأقام في القصر الذي بناه جوهر، وفي اليوم الثاني خرج لاستقبال مهنئيه وأصبحت القاهرة منذ ذلك الحين مقرّاً للخلافة الفاطمية، وانقطعت تبعيتها للخلافة العباسية السنية.

قضى المعز لدين الله القسم الأكبر من خلافته في المغرب، ولم يبق في مصر إلا نحو ٣ سنوات، ولكنها كانت ذات تأثير في حياة دولته، فقد نجح في نقل مركز دولته إلى القاهرة، وأقام حكومة قوية أحدثت انقلاباً في المظاهر الدينية والثقافية والاجتماعية في مصر، ولا تزال بعض آثاره تطل علينا حتى الآن، وجعل من مصر مركزًا لنشر دعوته الإسماعيلية والتطلع إلى التوسع وبسط النفوذ.

رسخ دخول الفاطميين مصر من الانقسام الذي كان العالم الإسلامي يعانيه آنذاك، خاصة وقد ظهرت خلافة ثالثة في الأندلس سنة ٣١٦ هـ، كما رسخ من الصراع المذهبي بين السنة والشيعة، وقد أدت تلك الصراعات لضعف الأمة وهو ما ساهم في نجاح الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس، ولم تفلح الخلافة الفاطمية ـ التي كانت قد انتزعت فلسطين من الدولة العباسية قبل الحملة بعام ـ في مواجهة الغزو الصليبي وحماية بيت المقدس.

في مصر لا تزال آثار الفاطميين قائمة: عادات اجتماعية مرتبطة بالمناسبات الدينية، وأضرحة، وموالد، وبدع دينية، ومصطلحات وألفاظ تعكس الصراع بين السنة والشيعة آنذاك.

موقعة ملاذكرد

أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور
البيزنطي بعد أن تعهد بدفع فدية كبيرة
قدرها مليون ونصف دينار

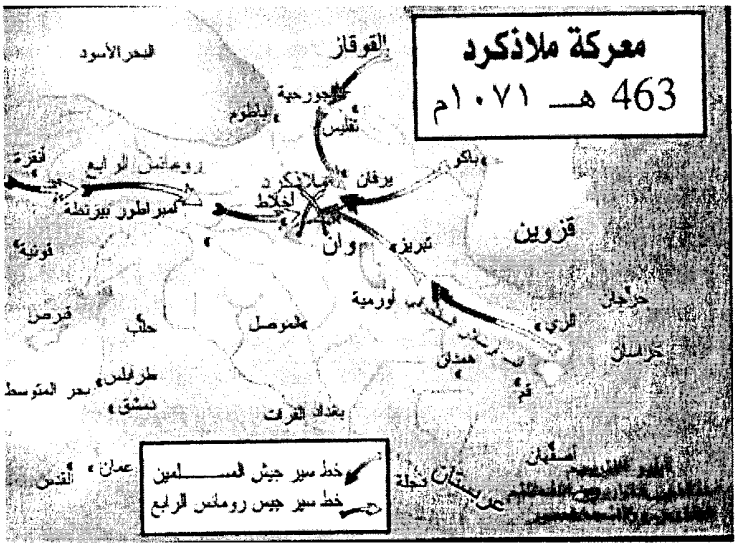

تولى ألب أرسلان حكم دولة السلاجقة سنة (٤٥٥ هـ= ١٠٦٣م) خلفًا لعمه طغرل بك الذي أسس الدولة ومد سلطانها تحت بصره حتى غدت أكبر قوة في العالم الإسلامي.

وقضى ألب أرسلان السنوات الأولى من حكمه في المحافظة على ممتلكات دولته وتوسيع رقعتها، وتأمين حدودها من غارات الروم .ثم تطلع إلى ضم المناطق المسيحية المجاورة لدولته؛ فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يكثرون من الإغارة على إقليم أذربيجان حتى صاروا مصدر إزعاج وقلق لسكانه، وهو ما دفع بالسلطان السلجوقي إلى ضرورة كبح جماح هؤلاء الغزاة.

وأزعج ذلك إمبراطور الروم رومانوس ديوجينس، وأدرك أن التوسع السلجوقي لا يقف عند هذا الحد، وأن خطره سيهدد بلاده، فعزم على تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده بالإغارة على بلاد الشام الشمالية، فهاجم مدينة «منبج» ونهبها وقتل أهلها، غير أن ذلك لم يكن كافيًا لدفع خطر السلاجقة على بلاده، فأعد جيشًا كبيرًا لضرب السلاجقة، وتحجيم قوتها وإضعافها.

جهّز الإمبراطور البيزنطي رومانوس جيشًا ضخمًا يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم، والفرنجة، والروس، والبلغاريين، واليونانيين، والفرنسيين، وغيرهم، وتحرك بهم من القسطنطينية عاصمة دولته، ممنيًا نفسه بنصر حاسم يقضي على خطر السلاجقة، فقد أطمعته قواته الغفيرة وعتاده الكثيف بأن النصر آتٍ لا ريب فيه، واتجه إلى ملاذكرد حيث يعسكر الجيش السلجوقي .

أدرك ألب أرسلان حرج موقفه؛ فهو أمام جيش بالغ الضخامة كثير العتاد، في حين أن قواته لا تتجاوز أربعين ألفا من التركمان، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم، ونجح في تحقيق نصر خاطف يحقق له التفاوض العادل مع إمبراطور الروم؛ لأنه كان يدرك صعوبة أن يدخل معركة ضد جيش الروم؛ فقواته الصغيرة لا قبل لها

بمواجهة غير مضمونة العواقب، فأرسل إلى الإمبراطور مبعوثًا من قبله ليعرض عليه الصلح والهدنة؛ فأساء الإمبراطور استقبال المبعوث ورفض عرض السلطان، وأشاح بوجهه في غطرسة وكبرياء مطمئنًّا للفوز والظفر، ولم ينتظر سماع كلام مبعوث السلطان، وطالبه أن يبلغه بأن الصلح لن يتم إلا في مدينة الري عاصمة السلاجقة.

أيقن السلطان ألا مفر من القتال بعد أن فشل الصلح والمهادنة في دفع شبح الحرب؛ فعمد إلى جنوده يشعل في نفوسهم روح الجهاد وحب الاستشهاد، وأوقد في قلوبهم جذوة الصبر والثبات، ووقف فقيه السلطان وإمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري يقول للسلطان مقويًا من عزمه: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.

وحين دانت ساعة اللقاء في (آخر ذي القعدة ٤٦٣ هـ= أغسطس ١٠٧١م) صلّى بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وتحنط، وقال: إن قُتلت فهذا كفني.

أحسن السلطان ألب أرسلان خطة المعركة، وأوقد الحماسة والحمية في نفوس جنوده، حتى إذا بدأت المعركة أقدموا كالسباع تفتك بمن يقابلها، وهاجموا أعداءهم في جرأة وشجاعة، وأمعنوا فيهم قتلا وتجريحًا، وما هي إلا ساعة من نهار حتى تحقق النصر، وانقشع غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال .ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيرًا في أيدي السلاجقة، وسيق إلى معسكر السلطان.

أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفع فدية كبيرة قدرها مليون ونصف دينار، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم، وأن تعقد معاهدة صلح مدتها خمسون عامًا، يلتزم الروم خلالها بدفع الجزية السنوية، وأن يعترف الروم بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلادهم، وأن يتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات السلاجقة.

ثم أعاد السلطان غريمه وأسيره الإمبراطور البيزنطي إلى بلاده، وخلع عليه خلعة جليلة، وخصص له سرادقًا كبيرًا، وأعطاه قدرًا كبيرًا من المال لينفق منه في سفره ثم أفرج عن عدد من ضباطه ليقوموا بخدمته، وأمر عددا من رجاله بصحبته حتى يصل إلى دياره سالمًا .

ولم تكد تصل أخبار الهزيمة إلى القسطنطينية حتى أزال رعاياه الإمبراطور «اسمه من سجلات الملك»، وقالوا إنه سقط من عداد الملوك، وعُيِّن ميخائيل السابع إمبراطورا؛ فألقى القبض على رومانوس الرابع الإمبراطور السابق، وسمل عينيه.

بعد انتصار الأتراك في هذه المعركة تغيّرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة؛ فاصطبغت بالصبغة التركية بعد انحسار النفوذ البيزنطي تدريجيًّا عن هذه المنطقة، ودخول سكانها في الإسلام، والتزامهم به في حياتهم وسلوكهم.

وواصل الأتراك السلاجقة، غزوهم لمناطق أخرى بعد ملاذكرد، حتى توغلوا في قلب آسيا الصغرى، ففتحوا قونية وآق، ووصلوا إلى كوتاهية، وأسسوا فرعًا لدولة السلاجقة في هذه المنطقة عرف باسم سلاجقة الروم، ظل حكامه يتناوبون الحكم أكثر من قرنين من الزمان بعد انتصار السلاجقة في ملاذكرد، وأصبحت هذه المنطقة جزءًا من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا .

وكان من ثمار دخول هذه المنطقة في حوزة السلاجقة انتشار الأتراك واللغة التركية وهو ما كان له أثره في مظاهر الحضارة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، غير أن هزيمة الروم في موقعة ملاذكرد جعلتهم ينصرفون عن هذا الجزء من آسيا الصغرى، ثم عجزوا عن الاحتفاظ ببقية الأجزاء الأخرى أمام غزوات المسلمين الأتراك من السلاجقة والعثمانيين، وقد توالت هذه الغزوات في القرون الثلاثة التالية لموقعة ملاذكرد، وانتهت بالإطاحة بدولة الروم، والاستيلاء على القسطنطينية عاصمتها، واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية، وتسميتها بإسلامبول أو إستانبول.

الحملة الصليبية الأولى

"إن بلاد الشرق تفيض لبناً وعسلاً"..

البابا أوربان الثاني محرضاً على الحملات الصليبية

في ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م، وقف البابا الكاثوليكي أوربان الثاني في مجمع كليرمونت بفرنسا يخطب في الحاضرين، وعلا صوته مطلقاً صيحته الشهيرة: إنها إرادة الرب.. وكانت تلك الصيحة تدشيناً للحروب الصليبية على الشرق العربي المسلم، التي ستستمر ما يقرب من قرنين من الزمان..

أمر البابا كل مسيحي ومسيحية بالخروج لنجدة القبر المقدس (قبر المسيح) من أيدي الكفرة (يعني المسلمين)، ثم أفاض في حديث مليء بالكذب والأباطيل عن الاضطهاد الذي يتعرض له النصارى والحجيج ببلاد المسلمين؛ فأدى ذلك لاشتعال روح حماسية عارمة بأوروبا نحو حرب المسلمين والخروج إلى بلادهم. وقد أرسل أوربان أحد الرهبان المتعصبين واسمه بطرس الناسك، وكان ذا موهبة خطابية فائقة، فطاف أوروبا بأسرها يدعو النصارى لمحاربة المسلمين، ونتيجة لخطب ومواعظ بطرس الناسك الحماسية والمليئة بالمؤثرات من بكاء وعويل وأكاذيب خرج مئات الآلاف من نصارى أوروبا استجابة لنداء البابا ورغبة في المغفرة ودخول الجنة بزعمهم، فكانت الحملة الصليبية الأولى التي يتجاهلها مؤرخو أوربا، ولا يعدونها من الحملات الصليبية، رغم أنها كانت البداية الحقيقية لما تلاها من حملات..

لقد كانت استجابة الناس من أبناء الطبقة الدنيا في غرب أوروبا سريعة وحماسية، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك. لقد طلب البابا من الأساقفة أن يواصلوا الدعوة إلى الحملة الصليبية، ولكن تأثيرهم كان ضئيلا إذا قيس بتأثير المبشرين والدعاة الفقراء الذين تشبهوا بالحواريين في فقرهم . وكان هناك عدد من هؤلاء الدعاة الحفاة أبرزهم بطرس الناسك.

كان بطرس الناسك هذا راهباً في أميان، وهجر الدير بتكليف من البابا لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية. وفي شمال شرق فرنسا واللورين أمضى شتاء سنة ١٠٩٥/ ١٠٩٦ م يتجول من مكان لآخر داعياً إلى حملة البابا. وفي كل مكان كان

يذهب إليه يسحر ألباب الفقراء بفصاحته التي تناقض هيئته المزرية، إذ كان رث الثياب، بينه وبين حماره شبه عجيب.

وحينما حل كان الفقراء المأخوذون ببطرس الناسك يتسابقون لنزع شعرات من جسد الحمار المسكين وذيله، طلبا للبركة. لقد أخذ بطرس الناسك يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثير من غيره في ذلك الوقت الذي ميزه التدين الشعبي العاطفي. وقد كان الرجل محور أسطورة اعتبرها المؤرخون حقيقة تاريخية، كما ألهمت الفنانين والأدباء على مدى عدة أجيال. وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل إثارة الغرب الأوروبي لشن حربه الصليبية ضد الشرق العربي الإسلامي.

لم يصبر الفلاحون حتى يرحلوا في الموعد الذي حدده البابا لرحيل الفرسان، فمع تباشير ربيع سنة ١٠٩٦ م كانوا قد جمعوا محاصيلهم، ولكنهم لم يخزنوها تحسباً لشتاء قد يجوعون فيه، كما جرت عادتهم طوال سنوات وسنوات. لقد حملوا هذه المحاصيل فوق عرباتهم الثقيلة التي تجرها الثيران، ومعها الزوجات والأطفال والمتاع الهزيل. وفي النهاية تحرك موكب الفلاحين صوب الشرق.. حيث قبر معبودهم (المسيح)..

كانت جماعات العامة والفلاحين التي تجمعت حول بطرس الناسك أكبر من أن تستطيع أي مدينة أو قرية في غرب أوروبا أن تعولها، ومن ثم تكونت من هذه الأعداد الغفيرة فرق وجيوش بائسة، بقيادة واحد من الفرسان المقامرين أو المشعوذين، في فوضى تبعث على الرثاء. وكانت أول فرقة من حملات الفلاحين، أو حملات الرعاع، هي تلك التي قادها فارس شرس نبيل المولد من بلدية بواسي هو والتر المفلس، الذي لم يكن في جيشه سوى ثمانية فرسان. وقد سخر الألمان من والتر المفلس وأتباعه الذين باعوا أملاكهم لكي يذهبوا في رحلة حمقاء، وقالوا إنهم بادلوا ما هو مضمون بما هو غير أكيد، وأنهم تركوا مسقط رأسهم ووطنهم في سبيل أرض ترتبط بوعد مشكوك فيه. ولكن الألمان عندما رأوا جموع أتباع والتر المفلس تعبر أراضيهم في طريقها إلى حوض نهر الراين أو البلقان، غيروا من رأيهم وكفوا عن السخرية، وأخذوا ينضمون إلى المشروع الصليبي.

ولم تواجه هذه الحملة سوى متاعب قليلة في نهاية رحلتها عبر المجر،ولكن أعمال النهب والسلب، التي بدأ أتباع والتر المفلس يمارسونها فى بلغاريا، جعلت البلغار يهاجمونهم ويقتلون منهم عدداً كبيراً، على حين لاذ الناجون بالغابات عدة أيام حتى وصلوا في النهاية تحت أسوار العاصمة البيزنطية، القسطنطينية. وهناك أمر الإمبراطور بأن يعسكروا خارج المدينة انتظارًا لوصول جيش بطرس الناسك. وهكذا، انتهت رحلة الألفين ومائتي ميل بالنسبة لأتباع والتر المفلس.

في ذلك الوقت كان بطرس قد أعد نفسه للرحيل وتحت قيادته جيش من المشاة والفرسان ترافقهم أعداد أكبر من غير المحاربين، رجالا ونساء وأطفالا. وغادر هذا الجيش الأراضي الألمانية في ٢٥ إبريل سنة ١٠٩٦م. وسمح له ملك المجر بعبور بلاده بشرط ألا يثير المتاعب.

وفي المجر تولى بطرس قيادة جيش الفقراء. وكان المشهد مثيراً ... إذ كان بطرس في مقدمة الجيش يمتطي حماره، وخلفه الفرسان يعتلون صهوات جيادهم، تتبعهم العربات الثقيلة التي تجرها الثيران حاملة معها المؤن والأموال التي كان بطرس قد جمعها من أثرياء الغرب الأوروبي. بيد أن بطرس الذي كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذي تألف من المقاتلين والطامعين، والذي ضم مئات من الأفاقين، والمجرمين، وبنات الهوى، والفلاحين، والفقراء من أهل المدن، فضلا عن عدد صغير من الفرسان.

فعند مدينة سملين عند حدود المجر مع الإمبراطورية البيزنطية قامت الحملة بمذبحة رهيبة، أزهقت أرواح أربعة آلاف من أبناء المدينة التي تحولت إلى خرائب تصاعد منها دخان الحرائق التي أشعلها الفرنج في كل مكان. وإذ خاف بطرس من انتقام المجريين، فقد اختبأ مع جيشه داخل غابات المجر، ثم تجمع جيشه مرة أخرى عندما وصلوا الحدود البيزنطية . وخاف نيكيتاس قائد الحامية البيزنطية في مدينة نيش (Nish)الحدودية على مدينته من تصرفات هذه الجموع الخرقاء، فاتخذ بعض

الاحتياطات لمواجهتهم عند الضرورة ... ولم يخيب الصليبيون ظنه: فقد أحرقوا مساكن القرويين مع سكانها الأحياء في داخلها، ونهبوا وسلبوا .وهاجم البيزنطيون جيش بطرس الناسك فقتلوا الكثيرين من رجاله، وأسروا عدداً آخر، كما استولوا على الأموال والتبرعات التي كان ذلك الراهب قد جمعها من أغنياء غرب أوروبا. وبعد أيام ثلاثة من التشتت والاختباء عاودت شراذم جيش بطرس التجمع وسارت صوب مدينة صوفيا، وهناك لقيهم مندوبون عن الإمبراطور البيزنطي وأبلغوهم باستياء الإمبراطور، وأبلغوهم بأوامره التي تقضي بألا يمكث الصليبيون في أي مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام.

ثم وصلت الشراذم الباقية من حملة بطرس الناسك إلى أسوار القسطنطينية في مطلع شهر أغسطس ١٠٩٦م . ودعي ذلك الناسك العجيب لمقابلة الإمبراطور البيزنطي.

أدرك الإمبراطور أن هذه الجموع الهائجة الجائعة لن تصمد أمام المسلمين الذين طالما أذاقوا جيوشه المدربة المنظمة مرارة الهزيمة، ونصح الإمبراطور الصليبيين بأن ينتظروا حتى قدوم جيوش الأمراء، بيد أن بطرس غرته كثرة أتباعه، فقبل من الإمبراطور الهدايا التي أعطاه إياها، ورفض النصائح التي أسداها إليه. وفي الوقت نفسه أخذ الصليبيون يعيثون فسادا في مدينة القسطنطينية التي بهرتهم بجمالها، ونهبوا وأحرقوا وسرقوا، ووجد الإمبراطور نفسه مضطرا لأن ينقلهم بسرعة عبر المضايق إلى آسيا الصغرى. وهناك ارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين. وبسبب الطمع والفوضى وقع الصليبيون في شباك كمين أعده الأتراك السلاجقة وأجهزوا على الحملة الشعبية، وقتل والتر المفلس، على حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية.

لقد دشنت تلك الحملة الفاشلة الحروب الصليبية التي استمرت طوال قرنين من الزمان، وقد كان لها آثار ونتائج كبرى على العالمين المسيحي والإسلامي..

في العالم الإسلامي أفاق المسلمون على صدمة سقوط أنطاكية وبيت المقدس والرها وطرابلس بأيدي الصليبيين عام ١٠٩٩م، وقد كان لتلك الصدمة توابعها من محاولات استيقاظ ونهوض وتوحد بين المسلمين، وبحثت الجماهير عمن يستطيع قيادة المقاومة للمشروع الاستعماري الصليبي، فظهرت شخصيات مثل عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، الذين عملوا على توحيد مصر والشام والعراق والجزيرة العربية، ونجحوا في توحيد الخلافتين العباسية والفاطمية، وظهرت قوى سياسية ودول إسلامية جديدة في مصر والشام، قادت المنطقة خلال القرنين التاليين، وعلى رأسها دولتا الأيوبيين والمماليك.

كان الضغط الصليبي المستمر على بلاد المشرق سبباً في غفلة المسلمين وعجزهم عن نجدة إخوانهم في المغرب العربي والأندلس الذين كانوا يعانون ضغطاً قوطيّاً فرنسيّاً نجح في اقتطاع الأندلس وطرد العرب والمسلمين منها على مر العقود..

كان الصليبيون هما الرابح الأكبر من الحملات الصليبية، فقد اختلطوا بالشرق العربي المسلم، ونهلوا من حضارته وعلومه وعاداته، ما كان رافداً مهمّاً ورئيسيّاً للنهضة العلمية والحضارية التي بنى عليها الغرب حضارته الحديثة، في الوقت الذي استنفدوا فيه طاقات الشرق وثرواته، طوال قرنين من الزمان..

سقوط بغداد في أيدي المغول

واختلف المؤرخون في عدد ضحايا الغزو المغولي حين دخلوا بغداد، فقدرهم بعض المؤرخين بمليون وثمانمائة ألف نسمة، على حين قدرهم آخرون بمليون نسمة..

بعد سنوات من الاضطرابات والمشاكل تم انتخاب مونكو خان كي يكون الخان الأكبر الجديد للإمبراطورية المغولية في سنة ١٢٥١م.

وكانت المغول، الذين جعلوا غزو العالم رسالتهم في الحياة لم يقوموا بأي حملة عسكرية واسعة النطاق منذ غزواتهم الأوروبية، أي من عام ١٢٣٦ حتى ١٢٤١م، لذا فإنهم بعد استقرار الوضع المالي للإمبراطورية، وافق قادتهم على استئناف الغزو، وكانت وجهتهم هذه المرة الشرق العربي وجنوب الصين.

وضع مونكو خان شقيقه هولاكو قائداً عامّاً للجيش ومسؤولاً عن الشؤون المدنية في بلاد فارس، فقام بغزو بلاد فارس، ثم توجه بجيشه نحو بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، التي كانت فقدت سلطتها الفعلية على العالم الإسلامي، وإن بقيت قيمتها الرمزية والدينية.

أرسل هولاكو قبل غزوه للعراق رسالة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله رسالة في (رمضان ٦٥٥ هـ/ مارس ١٢٥٧م) يدعوه فيها إلى أن يهدم حصون بغداد وأسوارها ويردم خنادقها، وأن يأتي إليه بشخصه ويسلم المدينة له، وأوصاه بأن يستجيب حتى يحفظ مركزه ومكانته ويضمن حريته وكرامته، وإن أبى واستكبر فسيحل بأهله وبلاده الدمار والخراب، ولن يدع أحداً حيّاً في دولته.

جاء رد الخليفة العباسي على كتاب هولاكو شديداً ودعاه إلى الإقلاع عن غروره والعودة إلى بلاده، ثم أرسل هولاكو رسالة ثانية إلى الخليفة ذكر له فيها أنه سوف يبقيه في منصبه بعد أن يقر بالتبعية للدولة المغولية، ويقدم الجزية له؛ فاعتذر الخليفة العباسي بأن ذلك لا يجوز شرعاً، وأنه على استعداد لدفع الأموال التي يطلبها هولاكو مقابل أن يعود من حيث أتى.

كان رد هولاكو على رسالة الخليفة أشد إنذاراً وأكثر وعيداً وفي لهجة عنيفة وبيان غاضب وكلمات حاسمة؛ فحل الفزع في قلب الخليفة؛ فجمع حاشيته وأركان دولته

واستشارهم فيما يفعل؛ فأشار عليه وزيره (ابن العلقمي) أن يبذل الأموال والنفائس في استرضاء هولاكو وأن يعتذر له، وأن يذكر اسمه في الخطبة، وينقش اسمه على السكة، فمال الخليفة إلى قبول هذا الرأي في بداية الأمر غير أن مجاهد الدين أيبك المعروف بـ(الدويدار الصغير) رفض هذا الاقتراح، وحمل الخليفة العباسي على معارضته متهماً ابن العلقمي بالخيانة والتواطؤ مع هولاكو؛ فعدل الخليفة عن رأيه السابق ومال إلى المقاومة.

يئس هولاكو من إقناع الخليفة العباسي بالتسليم؛ فشرع في الزحف نحو بغداد وضرب حولها حصاراً شديداً، واشتبك الجيش العباسي الذي جهزه الخليفة العباسي بقيادة مجاهد الدين أيبك بالقوات المغولية فكانت الهزيمة من نصيبه، وقتل عدد كبير من جنوده لقلة خبرتهم بالحروب وعدم انضباطهم، وفر قائد الجيش مع من نجا بنفسه إلى بغداد.

كان الجيش المغولي هائلاً يبلغ حوالي ٢٠٠ ألف مقاتل مزودين بآلات الحصار، ولم تكن عاصمة الخلافة العباسية تملك من القوات ما يمكنها من دفع الحصار ودفع المغول إلى الوراء، في الوقت الذي كان يظن فيه هولاكو أن ببغداد جيشاً كبيراً، ثم تكشفت له الحقيقة حين اشتد الحصار، ونجحت قواته في اختراق سور بغداد من الجانب الشرقي، وأصبحت العاصمة تحت رحمتهم.

أحس الخليفة بالخطر، وأن الأمر قد خرج من يديه؛ فسعى في التوصل إلى حل سلمي مع هولاكو، لكن جهوده باءت بالفشل؛ فاضطر إلى الخروج من بغداد وتسليم نفسه وعاصمة الخلافة إلى هولاكو دون قيد أو شرط، وذلك في يوم الأحد الموافق (٤ صفر ٦٥٦ هـ/ ١٠ فبراير ١٢٥٨م) ومعه أهله وولده بعد أن وعده هولاكو بالأمان.

كان برفقه الخليفة حين خرج ٣ آلاف شخص من أعيان بغداد وعلمائها وكبار رجالها، فلما وصلوا إلى معسكر المغول أمر هولاكو بوضعهم في مكان خاص، وأخذ يلاطف الخليفة العباسي، وطلب منه أن ينادي في الناس بإلقاء أسلحتهم والخروج من

المدينة لإحصائهم، فأرسل الخليفة رسولاً من قبله ينادي في الناس بأن يلقوا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار، وما إن فعلوا ذلك حتى انقض عليهم المغول وقتلوهم جميعا.

ودخل الغزاة الهمج بغداد وفتكوا بأهلها دون تفرقة بين رجال ونساء وأطفال، ولم يسلم من الموت إلا قليل، ثم قاموا بتخريب المساجد ليحصلوا على ذهب قبابها، وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما فيها من تحف ومشغولات قيمة، وأتلفوا عدداً كبيراً من الكتب القيمة وألقوا بها في نهر دجلة، حتى ليقال إن ماء دجلة ظل يجري أسود لأيام من كثرة ما ألقي فيه من كتب، وأهلكوا كثيراً من أهل العلم فيها، واستمر هذا الوضع نحو أربعين يوماً، وكلما مشطوا منطقة أشعلوا فيها النيران، فكانت تلتهم كل ما يصادفها، وخربت أكثر الأبنية وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وغيرها من المعالم الإسلامية الشامخة التي كانت آية من آيات الفن الإسلامي.

واختلف المؤرخون في عدد ضحايا الغزو المغولي حين دخلوا بغداد، فقدرهم بعض المؤرخين بمليون وثمانمائة ألف نسمة، على حين قدرهم آخرون بمليون نسمة، وفي اليوم التاسع من صفر/ ١٥ فبراير دخل هولاكو بغداد مع حاشيته يصحبهم الخليفة العباسي، واستولى على ما في قصر الخلافة من أموال وكنوز، وكانت الجيوش المغولية أبقت على قصر الخلافة دون أن تمسه بسوء. ولم يكتف هولاكو بما فعله جنوده من جرائم وفظائع في العاصمة العباسية التي كانت قبلة الدنيا وزهرة المدائن ومدينة النور، وإنما ختم أعماله الهمجية بحبسه الخليفة المستعصم بالله مع كنوزه وأمواله التي جمعها أيام سلطانه وصولجانه، وأبقاه في حبسه بلا طعام ولا ماء حتى أسلم الروح.

وبموت الخليفة العباسي في (١٤ صفر ٦٥٦ هـ/ ٢٠ فبراير ١٢٥٨م) تكون قد انتهت دولة الخلافة العباسية التي حكمت العالم الإسلامي خمسة قرون من العاصمة بغداد، لتبدأ بعد قليل في القاهرة عندما أحيا الظاهر بيبرس الخلافة العباسية من جديد.

موقعة عين جالوت

يوم قُهر الجيش الذي لا يُقهر.. وأُبطلت اللعنة
التي حلت بالعالم

في مارس ١٢٦٠ م دخل القائد المغولي كتبغا دمشق، بعد أن أعطى الأمان لأهلها ولكنه خربها وكان حاكمها الناصر يوسف الأيوبي. وانطلق المغول بعد السيطرة على دمشق جنوباً في بلاد الشام حتى استولوا على بيت المقدس وغزة والكرك والشوبك بعد أن تحالف حاكمها المغيث عمر مع المغول، وكان من الواضح أن مصر هي محطتهم القادمة.

كان يحكم دولة المماليك في مصر في ذاك الوقت المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك وهو صبي صغير يبلغ من العمر ١٥ سنة، فقام السلطان المظفر سيف الدين قطز ـ وهو من المماليك البحرية ـ بخلعه بعد إقناع بقية أمراء ووجهاء الدولة بأنه فعل ذلك للتجهيز والتوحد ضد الخطر المحدق بالدولة المملوكية بشكل خاص والمسلمين بشكل عام. كان الوضع النفسي للمسلمين سيئًا للغاية وكان الخوف من المغول مستشريًا في جميع طبقات المجتمع الإسلامي، وقد أدرك قطز ذلك وعمل على رفع الروح المعنوية لدى المسلمين. واستمال منافسيه السياسيين في بلاد الشام وحاول ضمهم إلى صفوفه وكان ممن انضم معه بيبرس البندقداري الذي كان له دور كبير في قتال المغول فيما بعد.

كانت مصر هي الحصن العربي والإسلامي الأخير أمام الهجمات المغولية التي تحالفت مع الصليبيين في الشام، وكان سقوط مصر في أيدي المغول معناه سقوط قلب العالم الإسلامي، وبداية الهيمنة الكاملة للمغول على العالم، ومن هنا تأتي خطورة موقعة عين جالوت، فهي قد كسرت الهجمة المغولية على الشرق العربي، وكانت بداية تراجع واضمحلال دولة المغول. وقد قام السلطان المظفر قطز بدور كبير في دفع الأمراء المماليك وعامة المصريين للمقاومة، في وقت كان العالم يحيا فيه في رعب من جيوش المغول، ويضفي على مقاتليها صفات خارقة لا يمكن هزيمتها.

خرج قطز بجيشه للقاء المغول قبل أن يصلوا الحدود مصر، وفي عين جالوت بدأت المعركة..

حين اصطدم الجيشان ثبتت القوات الإسلامية ثباتاً رائعاً مع قلة عددها، مما دفع كتبغا إلى استخدام كل طاقته دون أن يترك أي قوات للاحتياط خلف الجيش المغولي..

كل هذا وقطز يرقب الموقف عن بعد، ويصبر نفسه وجنده عن النزول لساحة المعركة حتى تأتي اللحظة المناسبة..

ومع الفجوة الهائلة في العدد بين الفريقين إلا أن اللقاء كان سجالاً حتى هذه اللحظات..

كان هذا هو الجزء الأول من الخطة الإسلامية: استنزاف القوات المغولية في حرب متعبة، والتأثير على نفسياتهم عند مشاهدة ثبات المسلمين وقوة بأسهم..

ثم جاء وقت تنفيذ الجزء الثاني من الخطة .. ودقت الطبول دقات معينة لتصل بالأوامر من قطز إلى بيبرس ليبدأ في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة.. محاولة سحب جيش المغول إلى داخل سهل عين جالوت، وحبذا لو سُحب الجيش بكامله، بحيث تدخل قوات المغول في الكمائن الإسلامية تمهيداً لحصارها..

وبدأ ركن الدين بيبرس في تنفيذ هذا الجزء من الخطة على صعوبته، فكان عليه أن يُظهر الانهزام أمام المغول، ويتراجع بظهره وهو يقاتل، على ألا يكون هذا التراجع سريعاً جدّاً حتى لا يلفت أنظار المغول إلى الخطة، ولا بطيئاً جدّاً فتهلك القوة الإسلامية القليلة أثناء التراجع..

وبدأ ركن الدين بيبرس في الانسحاب التدريجي المدروس، وكلما رجع خطوة تقدم جيش المغول في مكانه.. وقام المسلمون بتمثيلية الانهزام خير قيام، وتحمس كتبغا

ومن معه للضغط على المسلمين، وبدءوا يدخلون السهل وهم يضغطون على المسلمين، ومر الوقت ببطء على الطرفين، ولكن في النهاية دخل جيش المغول بكامله إلى داخل سهل عين جالوت، وانسحب ركن الدين بيبرس بمقدمة الجيش إلى الناحية الجنوبية من سهل عين جالوت، وفي غضون حماسة كتبغا للقضاء على جيش المسلمين لم يترك أيّاً من قواته الاحتياطية خارج السهل بل أخذ معه كل جنوده!! وبذلك نجح الجزء الثاني من الخطة الإسلامية نجاحاً مبهراً..

وبدأ تنفيذ الجزء الثالث من الخطة.. وجاءت إشارة البدء من قطز عن طريق الطبول والأبواق.. ونزلت الكتائب الإسلامية من خلف التلال إلى ساحة المعركة.. نزلت من كل جانب، وأسرعت فرقة قوية لتغلق المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، وبذلك في دقائق معدودات أحاطت القوات الإسلامية بالمغول إحاطة السوار بالمعصم.

واكتشف كتبغا الخطة الإسلامية بعد فوات الأوان، وحُصر هو والمغول في داخل سهل عين جالوت، وبدأ الصراع المرير في واحدة من أشد المعارك التي وقعت في التاريخ.. لا مجال للهرب، ولا مجال للمناورات.. السهل منبسط والمساحات مكشوفة، وليس هناك من حماية إلا خلف السيوف والدروع.. لا بديل عن القتال حتى الموت.. حرب ضارية بشعة.. أخرج المغول فيها كل إمكانياتهم، وبدءوا يقاتلون بحمية بالغة.. والمسلمون صابرون ثابتون.. وظهر تفوق الميمنة المغولية وبدأت تضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت القوات الإسلامية تتراجع تحت الضغط الرهيب للمغول، وبدأ المغول يخترقون الميسرة الإسلامية، وبدأ الشهداء يسقطون، ولو أكمل المغول اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش الإسلامي، وتتعادل بذلك الكفتان، وقد ترجح كفة المغول.. ويصبح إغلاق السهل خطراً على المسلمين..

شاهد قطز رحمه الله المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بقوات احتياطية، ولكن الضغط المغولي استمر، وقطز رحمه الله يشاهد ذلك، ويدفع بقوات

إضافية إلى الميسرة، ولكن الموقف تأزم جدّاً، هنا لم يجد قطز رحمه الله إلا حلاً واحداً لا بديل له.. لابد أن ينزل بنفسه رحمه الله إلى ساحة القتال..

لقد ألقى بخوذته على الأرض.. تعبيراً عن اشتياقه للشهادة، وعدم خوفه من الموت، وأطلق صيحته الشهيرة التي قلبت الموازين في أرض المعركة..وإسلاماه.. وإسلاماه!!..وألقى بنفسه وسط الأمواج المتلاطمة من البشر..

وفوجئ الجنود بوجود القائد الملك المظفر قطز في وسطهم.. يعاني مما يعانون ويشعر بما يشعرون.. ويقاتل كما يقاتلون.. والتهب حماس الجنود، وهانت عليهم جيوش المغول، وحملوا أرواحهم على أكفهم، وانطلقوا في جسارة نادرة يصدون الهجمة المغولية البشعة..

واشتعل القتال في سهل عين جالوت.. وعلا صوت تكبير الفلاحين على كل شيء.. ولجأ المسلمون بصدق إلى ربهم في هذا اليوم المجيد من شهر رمضان.. وبدأت الكفة تميل من جديد لصالح المسلمين.. وارتد الضغط على جيش المغول، وأطبق المسلمون الدائرة تدريجيًّا على المغول..

وتقدم أمير من أمراء المماليك المهرة في القتال واخترق الصفوف المغولية حتى وصل إلى كتبغا قائد المغول فقتله، وهنا تغير ميزان المعركة .. انهار الجيش المغولي وصار همّ مقاتليه الفرار بحياتهم !!!

ركز المغول جهدهم على فتح ثغرة في مدخل سهل عين جالوت الشمالي.. واستطاعوا بعد لأى شديد أن يُحْدثوا ثغرة في الصف المسلم الواقف على باب المدخل، وخرجت أعداد كبيرة يسرعون الخطى في اتجاه الشمال وجيوش المسلمين تجري خلفهم ..

ووصل المغول الفارون إلى بيسان (حوالي عشرين كيلومتر إلى الشمال الشرقي من عين جالوت) ووجدوا أن المسلمين جادون في طلبهم، فلم يجدوا إلا أن يصطفوا من

جديد، لتدور موقعة أخرى عند بيسان أجمع المؤرخون على أنها أصعب من الأولى، وقاتل المغول قتالاً رهيباً، ودافعوا عن حياتهم بكل قوة، وبدءوا يضغطون على المسلمين، وكادوا يقلبون الأمور لمصلحتهم، ورأى قطز كل ذلك.. فانطلق قطز يحفز الناس، ويدعوهم للثبات..

ثم أطلق صيحته الخالدة :واإسلاماه، واإسلاماه، واإسلاماه.. قالها ثلاث مرات، ثم قال في تضرع:«يا الله!! انصر عبدك قطز على المغول..» ! وما إن انتهى من دعائه وطلبه ـ رحمه الله ـ إلا وخارت قوى المغول تماماً.. وبدأ الجنود الذين روعوا الأرض قبل ذلك يتساقطون كالذباب على أرض بيسان.. قضى المسلمون تماماً على أسطورة الجيش الذي لا يقهر..لقد أبيد جيش المغول بكامله!! لم يبق على قيد الحياة من الجيش أحد بالمرة.. ونزل قطز من على فرسه..ومرَّغ وجهه في الأرض.. يسجد شكراً لله.

فتح القسطنطينية

كتب هذا الفتح نهاية العصور الوسطى

بدأت محاولات المسلمين لفتح القسطنطينية منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وتحديداً سنة ٣٥ هجرية، وتكررت المحاولات في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وفي عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك، ولكن في كل مرة كانت الجيوش تعود من عند أسوار المدينة المنيعة بعد محاصرتها طويلاً..

منذ ظهرت الدولة العثمانية المسلمة في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي، وقد جعلت لنفسها هدفاً استراتيجيّاً وهو السيطرة على الأناضول وفتح القسطنطينية لإكمال تلك السيطرة..

وقد بدأت محاولات العثمانيين لفتح المدينة منذ قيام الدولة سنة ١٢٩٩م، ولكنها صارت أكثر جدية وتركيزاً منذ عهد السلطان بايزيد الأول الملقب بالصاعقة (تولى بين عامي ١٣٨٩ـ١٤٠٢م)، وكاد ينجح في فتحها لولا اجتياح السلطان المغولي تيمور لنك للدولة العثمانية في ربيع سنة ١٤٠٢م، وإلحاقه ببايزيد هزيمة ماحقة تفتتت على إثرها الدولة العثمانية واحتاجت لخمسين سنة تالية لتستعيد قوتها.

في فبراير من سنة ١٤٥١م تُوج محمد الثاني ابن السلطان مراد الثاني سلطاناً على الدولة العثمانية، وهو شاب في الثانية والعشرين، ولكنه كان قد وضع فتح القسطنطينية هدفاً، وكان أبوه قد أعده لهذه المهمة بعناية فائقة فرباه على العلم والدين، وجعله يتولى أعمالاً جسيمة ومناصب قيادية وهو في الرابعة عشرة من عمره، فنشأ وهو لا يرى أمامه أي غاية في الحياة سوى فتح القسطنطينية، لذلك لما تولى السلطنة أخذ في الإعداد مباشرة للفتح العظيم.

أخذ محمد الثاني في إعداد جيش الفتح فدعا المسلمين للتطوع والاشتراك في الجيش حتى وصل تعداده إلى ربع مليون مقاتل، وأخذ في تجهيزه بأحدث الأسلحة واستقدم المهندس المجري «أوربان» وهو أشهر صانعي المدافع، وكلفه بصنع المدفع

السلطاني، وهو أكبر مدفع في التاريخ، واهتم بتقوية الأساطيل العثمانية حتى بلغ عدد سفنه ٤٠٠ سفينة مختلفة الأحجام، وأخذ في بث الشحن الإيماني والمعنوي في قلوب جنوده وتذكيرهم بالأحاديث النبوية التي تثني على الجيش الذي يفتح القسطنطينية، وبث الدعاة والوعاظ داخل صفوف الجيش لرفع إيمانيات الجنود.

عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة غلطة المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي، كما عقد معاهدات مع جنوة والبندقية وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن المدينة .

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح، استمات الإمبراطور البيزنطي قسطنطين في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره، ولكن السلطان كان عازمًا على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه. ولما رأى الإمبراطور البيزنطي ذلك عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك.

قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة أيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: «إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية».

في فبراير ١٤٥٣م انطلق محمد الثاني بجيوشه الجرارة من مدينة «أدرنة» الملقبة بعاصمة الغزاة، فوصل بعد شهرين إلى أسوار القسطنطينية وخطب في جنوده قبل الهجوم لاستثارة عزائمهم وحميتهم للجهاد، ووصاهم بوصايا الإسلام في التعامل مع البلاد المفتوحة والشعوب المغلوبة.

استمات قسطنطين وقائد جنوده «جوستنيان» في الدفاع عن المدينة، وكانت القسطنطينية شديدة التحصين، بل هي أحصن مدن العالم، وحاول قسطنطين التفاوض مع محمد الثاني وعرض عليه الخضوع والدخول في طاعته ودفع أموال طائلة، ولكن محمد الثاني رفض ذلك كله وأصر على فتح المدينة.

في المقابل شن العثمانيون الهجوم الكاسح على عدة محاور برًّا وبحرًا، وقام محمد الفاتح بفكرة لم يشهد التاريخ مثلها، حيث نقل الأسطول البحري إلى البر مسافة ٣ كم ثم أنزله عند القرن الذهبي وبالتالي أصبح الأسطول العثماني داخل القسطنطينية، وقام بحفر أنفاق تحت الأرض في مناطق مختلفة لاختراق تحصينات المدينة.

وبالجملة استخدم العثمانيون أساليب جديدة ومتنوعة في فتح القسطنطينية، حتى جاءت لحظة الفتح التاريخية، وفي ليلة الفتح أمر السلطان محمد الثاني جنوده بالتوبة والخشوع والتقرب إلى الله والتهجد والدعاء استعدادًا للفتح الكبير، وبات المسلمون المجاهدون بخير ليلة، أما النصارى فقد باتوا بشر ليلة بعد أن نزلت صاعقة من السماء أحرقت أبراج كنيسة «أيا صوفيا» فعدوا ذلك نذير شؤم وإشارة على السقوط والهزيمة، وجمع قسطنطين سكان المدينة في قداس عام ودعاهم للدفاع عن المدينة لآخر قطرة في دمائهم، وللحق كان الرجل على مستوى الحدث وضرب أمثلة رائعة في الصمود والدفاع والشجاعة.

وفي يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ بدأ الهجوم العام الشامل على المدينة ومن كل اتجاه مع استخدام أسلوب البدل بين كتائب المهاجمين، وبعد أربع موجات هجومية قام بها العثمانيون اقتحمت فرقة فدائية من خلاصة أبطال الجهاد

أسوار المدينة، ورفعت الأعلام العثمانية عليها، وأصيب قائد الجند البيزنطيين «جوستنيان» إصابة خطيرة، فنزل قسطنطين إلى أرض القتال ليقود المدافعين عن المدينة، وخلع ملابسه الملكية وظل يقاتل مترجلاً بسيفه حتى قتل في أرض المعركة وفاءً بقسمه أن يدافع عن المدينة حتى آخر نفس في صدره، وكان لانتشار خبر مصرعه فعل السحر فانهارت المعنويات، وسقطت المدينة في منتصف النهار، ودخل محمد الفاتح المدينة وخر لله ساجدًا شكرًا وحمدًا وتواضعًا له عز وجل، وأمر بتحويل كنيسة أيا صوفيا إلى جامع في الحال وأصبح اسم المدينة «إسلامبول» أي مدينة الإسلام.

كان لفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م دوي هائل على مستوى العالم، ونتائج هامة على الصعيد العالمي والإسلامي والتركي بما يمكن أن نقول إنه غير وجه العالم، حتى إن بعض المؤرخين يعتبرون أن العصور الوسطى الأوربية انتهت بفتح القسطنطينية..

على الصعيد التركي أثبت العثمانيون بقضائهم على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية تفوقهم على كثير من المقاطعات التركية التي كانت قائمة في الأناضول، وهو ما ساهم في تحقيق الوحدة التركية في الأناضول تحت راية آل عثمان.

كما مهد ذلك الفتح لتصدر العثمانيين المشهد الإسلامي كله، فلم تمض عقود قليلة حتى دانت مصر والشام بالولاء للعثمانيين، وانتقل مقر الخلافة الإسلامية من القاهرة لاستانبول.

وبتصدر العثمانيين للمشهد الإسلامي وانتقال منصب الخلافة إليهم، صاروا قوة إسلامية عالمية مؤثرة في مجرى الأحداث.

لقد حاولت المسيحية الأوربية على مدى ثلاثة عصور إخراج المسلمين من الشرق الأدنى بواسطة الحملات الصليبية التي قاموا بها، وقد كانت استانبول بالنسبة لهذه الحملات بمثابة نقطة ارتكاز ودعم وحراسة، وبعد فتح القسطنطينية كان على العالم المسيحي القبول بالسيادة الإسلامية على الشرق الأدنى وعدم التفكير في القيام بحملات أخرى من أجل إنقاذ هذه المناطق، بل على العكس من ذلك فقد توسع

الإسلام داخل أوربا، بالفتوحات العثمانية، ودانت مناطق ودول مثل المجر ورومانيا والبلقان واليونان للسيطرة العثمانية الإسلامية..

تحول المسلمون من مدافعين عن أرضهم في الشرق إلى فاتحين مهاجمين، وهو ما حمى الأقاليم الإسلامية وزاد من مساحتها.

ومن نتائج فتح القسطنطينية على التاريخ الإنساني، هو هجرة كثير من العلماء والمفكرين والفنانين البيزنطيين بعد الفتح لروما مصطحبين معهم كنوز الشرق العلمية، وكان هؤلاء هم بداية حركة النهضة في أوربا..

اختراع الطباعة

وقد كافأت مدينة ماينتز ابنها بإنشاء متحف خاص به، يمكن فيه مشاهدة النسخ الأولى من الكتاب المقدس التي طبعها جوتنبرج بنفسه..

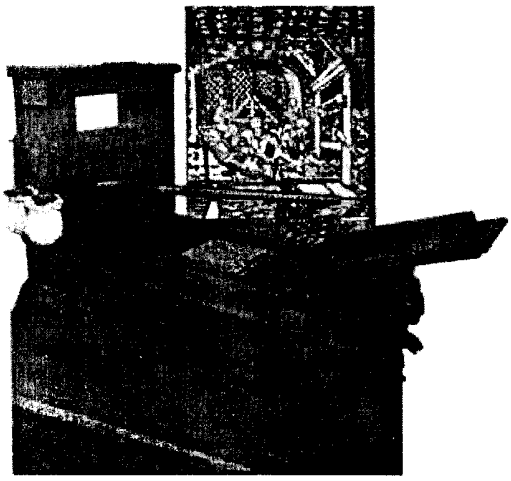

صورة مطبعة جوتنبرج

في يوم من أيام سنة ١٤٥٦م أسدى الألماني يوهانس جوتنبرج خدمة جليلة للحضارة البشرية، بتوصله لفكرة الطباعة..

ولد يوهانس جوتنبرج عام ١٤٠٠م ونشأ في مدينة ماينتز القريبة من مدينة فرانكفورت، وهي المنطقة التي اشتهرت بخصوبتها الزراعية وجودة أشجار العنب فيها، لذلك كانت مركزًا لعصر العنب من أجل صنع النبيذ. بدأ جوتنبرج حياته العملية في صك الذهب، ثم انتقل إلى العمل كناسخ. وهناك اقترب من عالم الكتب، وبدأ يهتم، بحكم خلفيته الفنية، بتقنية طباعتها وكيفية تحسينها.

يرى كثير من الباحثين أن تطوير اختراع الطباعة لم يحدث مصادفة في ماينتز، ففي هذه المنطقة كانت تقنية العصر والكبس معروفة على نطاق واسع بسبب صناعة النبيذ، كما أن جوتنبرج نفسه بدأ حياته العملية في مجال صك الذهب الذي يعتمد على نفس التقنية. لذلك كان من المنطقي أن تلوح فكرة تطبيق نفس التقنية في مجال طباعة الكتب في ذهن الشاب جوتنبرج. وهذا ما حدث قرابة العام ١٤٤٨.

كانت تقنية طباعة الكتب قبل إنجاز جوتنبرج تعتمد على عمل لوح خشبي تبرز منه حروف الصفحة المراد طبعها، وكانت تلك الحروف الخشبية ثابتة لا يمكن إعادة استخدامها، مما يعني أن كل صفحة تحتاج إلى لوح خشبي جديد لطباعتها. مما جعل طباعة الكتب صناعة مكلفة وقليلة الكفاءة. أما طريقة جوتنبرج التي أحدثت ثورة في عالم الطباعة فكانت في استخدام حروف معدنية متحركة سهلة الرص وتحتفظ بألوان الطبع على سطحها لمدة طويلة. سهولة صف هذه الحروف جعل بالإمكان إعادة استخدامها دون الحاجة إلى صبها من جديد كل مرة.

إضافة إلى تقنية الحروف المعدنية المتحركة طور جوتنبرج طريقة سهلة وسريعة لتحريك لوح الطباعة الذي تصطف عليه الحروف المعدنية، بحيث يمكن نقلها بسهولة لطباعة صفحة جديدة، مما ساهم في تقليص وقت الإنتاج، وزاد من عدد الكتب الممكن طبعها. وتقوم طريقة جوتنبرج في الطباعة على مبدأ كبس ألواح الطبع، التي تصطف فوقها الحروف، على الورق، فتضغط الأطراف المدببة للحروف على سطح الورق لتفتح مسامه وتحقنها باللون الذي تحمله، وبعد انتهاء مرحلة الكبس تعود مسام الورق لتنغلق محتفظة بلون الطباعة فيها. وكنموذج مثالي لطريقته قام جوتنبرج بطباعة الكتاب المقدس كاملا، فخرج الكتاب آية في جمال الطباعة ودقة الألوان، ولا يزال يحفظ حتى اليوم ببهائه وجماله.

فتحت طريقة جوتنبرج الطريق أمام انتشار الكتب بشكل غير مسبوق في كافة أنحاء العالم. وأدى تداول الاكتشافات العلمية والفكرية إلى صحوة ثقافية كبرى استفادت منها الحواضر الأوروبية بشكل أساسي لكثرة المطابع التي نشأت فيها. كما مهدت الكتب المطبوعة لظهور الصحف حتى أصبح صدور جريدة دورية ومتجددة أمراً في متناول اليد. وزادت محتويات الصحف تنوعًا، لتحمل العديد من الآراء وتفتح باب الحرية السياسية، فكانت المحرك الأول للحركات الديمقراطية التي غيرت وجه أوروبا.

وقد كافأت مدينة ماينتز ابنها بإنشاء متحف خاص به، يمكن فيه مشاهدة النسخ الأولى من الكتاب المقدس التي طبعها جوتنبرج بنفسه، كما يمكن لزوار المتحف طبع أسمائهم على ماكينة الطباعة التي استخدمها آنذاك. كذلك حملت جامعة ماينتز العريقة اسم جوتنبرج. ولا يقتصر الشعور بالامتنان والعرفان إلى هذا المخترع العظيم على

مدينة ماينتز، فجارتها مدينة فرانكفورت أصبحت بفضل طريقة جوتنبرج مركزاً لطباعة الكتب في ألمانيا وفي أوروبا كلها. ونجحت في تنظيم معرض للكتاب لا يزال حتى اليوم واحدًا من أهم معارض الكتاب في العالم.

سقوط غرناطة

"ابك كالنساء مُلكاً لم تحافظ عليه كالرجال"

والدة أبي عبد الله محمد بن الأحمر آخر سلاطين غرناطة

دب الضعف في أوصال دولة الإسلام في الأندلس، وسرى الوهن في أطرافها، وراح العدو القشتالي يتربص بها، وينتظر تلك اللحظة التي ينقضّ فيها على الجسد الواهن، فيمزقه ويقضي عليه، لم تصرفه القرون الطوال عن تحقيق أمله الطامح إلى إزالة الوجود الإسلامي في الأندلس، فلم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى كانت ولاية الأندلس الشرقية والوسطى في قبضة النصارى القشتاليين، وأصبحت حواضر الأندلس الكبرى أسيرة في قبضتهم؛ حيث سقطت قرطبة وبلنسية، وإشبيلية، وبطليوس، وهي حواضر كانت تموج علمًا وثقافة وحضارة.

ولم يبق من دولة الإسلام هناك سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عُرفت بمملكة غرناطة، شاءت الأقدار لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة زاهية وحياة ثقافية رائعة، حتى انقض عليها الملكان المسيحيان : «فرديناند الخامس» و«إيزابيلا»، وحاصرا بقواتهما غرناطة في ٣٠ إبريل سنة ١٤٩١م حصارًا شديدًا، ومنعا أي مدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى؛ حتى تستسلم المدينة، ويسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس .

عانى أهالي غرناطة بمعاناة قاسية خلال أعوام الحصار، وقامت القوات الإسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة، ما تسبب في مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة، ولهذا السبب أكلوا الخيول والكلاب والقطط. وظلت المدينة تعاني الحصار زهاء سبعة أشهر، وحاول الفرسان المسلمون أن يدفعوا هجمة النصارى الشرسة بكل ما يملكون

خارج أسوار المدينة، لكن ذلك لم يغن من الأمر شيئًا، فالأحوال تزداد سوءًا، والمسلمون تتفاقم محنتهم، وانقطع الأمل في نجدتهم من بلاد المغرب.

في ظل هذه المحنة القاسية تداعت أصوات بعض القادة إلى ضرورة التسليم؛ حفاظاً على الأرواح، وكان «أبو عبد الله محمد» سلطان غرناطة وبعض وزرائه يتزعمون هذه الدعوى، وضاع في زحام تلك الدعوة المتخاذلة كل صوت يستصرخ البطولة والفداء في النفوس، ويُعَظِّمُ قيمة التضحية والكرامة في القلوب، فاتفق القائمون على غرناطة على اختيار الوزير «أبي القاسم عبد الملك» للقيام بمهمة التفاوض مع الملكين الكاثوليكيين.

استمرت المفاوضات بضعة أسابيع، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم، وافق عليها الملكان في ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م، وكانت المفاوضات تجري في سرية خشية ثورة أهالي غرناطة، وحتى تحقق غايتها المرجوة.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه مفاوضات التسليم، عُقدت معاهدة سرية أخرى، مُنح فيها أبو عبد الله وأفراد أسرته ووزراؤه منحًا خاصة بين ضياع وأموال نقدية.

وما كادت تذاع أنباء الموافقة على تسليم غرناطة حتى عمّ الحزن ربوعها، واكتست الكآبة نفوس الناس، واشتعل الناس غضبًا حين تسربت أنباء المعاهدة السرية، وما حققه السلطان وخاصته من مغانم ومكاسب رخيصة، فسرت بين الناس الدعوة إلى الدفاع عن المدينة، وخشي السلطان من تفاقم الأحوال وإفلات الأمر من بين يديه، فاتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة قبل الموعد المحدد وذلك في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢م.

وفي هذا اليوم استعد الجيش القشتالي لدخول المدينة، وأطلقت المدافع في قصر الحمراء طلقاتها إيذانًا بالاستعداد للتسليم، ودخلت القوات المسيحية، واتجهت توًّا إلى قصر الحمراء، وما إن دخلت القوات حتى رفعت فوق برج القصر الأعلى صليباً فضيّاً كبيرًا، وهو الذي كان يحمله الملك «فرديناند» خلال المعارك مع غرناطة.. وأعلن المنادي بصوت قوي من فوق البرج أنّ غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين.

وباستيلاء القشتاليين على غرناطة طُويت آخر صفحة من تاريخ دولة المسلمين في الأندلس، وقُضي على الحضارة الأندلسية الباهرة وآدابها وعلومها وفنونها.

وصول الاستعمار الأوربي للأمريكتين

مات كولومبوس عام ١٥٠٦م وهو يعتقد أنه وصل إلى آسيا، وأن الجزر التي اكتشفها إنما هي تلك التي توجد بالقرب من الهند..

كريستوفر كولومبوس

في مساء الحادي عشر من أكتوبر من سنة ١٤٩٢م، وصل المستكشف الإيطالي كريستوفر كولومبس جزر الأنتيل في أمريكا الوسطى، معتقداً أنه دخل بعض الجزر الآسيوية القريبة من الهند، لذلك سميت في البداية بـ«جزر الهند الغربية»؛ إلى أن سافر إليها فيما بعد البحار الفلورنسي أمريكو فسبوشي، ليعلن لأوربا أن كرلومبس إنما اكتشف «عالماً جديداً» أطلق عليه اسم «أمريكا».

كان كولومبوس قد استهوته الملاحة عن طريق التجارة، وكان أبوه عاملاً متواضعًا في جنوة، وكان هو شخصيًّا أميًّا، وكان ذلك من المعوقات التي اعترضته حتى وصل إلى مرحلة الرجولة. ومع ذلك فقد تجلت مواهبه في مرحلة مبكرة من حياته. فاشترك في أول الأمر في بعض الرحلات على سفن تجارية تابعة لجنوة، ومن بينها رحلة إلى إنجلترا، وانتقل بعد ذلك من إيطاليا إلى أيبريا حيث استقر نهائيًّا وتعلم القراءة والكتابة. وبمرور الوقت استطاع أن يقرأ الأعمال الجغرافية التي كانت مشهورة في ذلك الوقت مثل أعمال بطليوس وماركو باولو وأعمال الجغرافيين والرحالة المسلمين.

وأثناء عمله في البرتغال اشترك في الرحلات على سواحل غرب إفريقيا، وعن طريقها بدأ يثبت ذاته ويحظى بالاهتمام. وقد أفاد كثيرًا من زواجه الذي ساعده على تشكيل حياته حيث كان والد زوجته واحداً من كبار الملاحين الذين عملوا مع الأمير هنري، والذي زوده بمجموعة من الخرائط الهامة التي زودت اهتمامه بالكشف الجغرافي وخصوصًا بكشف طريق إلى الشرق الأقصى بالملاحة نحو الغرب.

وقد عرض مشروعه هذا على ملك البرتغال فرفضه بناء على توصية مستشاريه الذين رأوا أنه لا ضرورة للبحث عن طرق جديدة، وعلى إثر ذلك لم يجد من بد سوى

التوجه لإسبانيا وبعد وصوله عرض المشروع على الملكة «إيزابيلا» ولكنها رفضت بدعوى أنها مشغولة بالحرب مع العرب عام ١٤٨٦م، إلا أنه لم ييأس من رفضها وانتظر إلى أن انتهت الحرب، وعاد ليجدد طلب تمويل «إيزابيلا» لمشروعه، وبالفعل وافقت له ومولته في عام ١٤٩٢م أبحر كولومبس حاملاً رسائل من إيزابيلا للملوك آسيا والصين. وفي ليلة ١١-١٢ أكتوبر ظهرت لكولومبس ومن معه بعض معالم الأرض فظنها آسيا (وقد كانت تلك التي اقترب منها كولومبوس هي إحدى جزر «لوكايس» بالقرب من أمريكا الشمالية، عند مدخل مضيق لوريد؛ فأطلق عليها «سان سلفادور») وفعلاً أخذ يبحث عن مملكة «كاتي» التي هي الصين؛ ليقدم للملوكها الخطابات التي زودته بها ملكة إسبانيا، ولكن دون جدوى، هناك سارع بالعودة ليعلن نتائج اكتشافه في إسبانيا، فوصل ثغر بالوس في ١٥ مارس ١٤٩٣م. أي بعد سبعة أشهر من مغادرته إياه.

مات كولومبوس عام ١٥٠٦م وهو يعتقد أنه وصل إلى آسيا، وأن الجزر التي اكتشفها إنما هي تلك التي توجد بالقرب من الهند، ومن هنا ترجع تسميتها إلى جزر الهند الغربية، وكذلك تسمية سكانها الأصليين بالهنود، ولم تلبث الأذهان أن أخذت تشك في أن هذه الأرض التي وصل إليها كولومبوس هي آسيا، ولا سيما بعد تلك الرسالة التي نشرها «أميركو فسبوتشي» الفلورنسي، فأشار إلى هذه الأرض المكتشفة بالعالم الجديد؛ ولذلك سميت هذه الأرض على اسمه «أمريكا».

ظهور البروتستانتية

«أنا ملتزم بالنصوص المقدسة التي أوردتها وبما يمليه عليَّ ضميري الذي هو أسير لكلمة الله لأني لا أثق في البابا أو المجالس وحدها، فهؤلاء غالبًا ما يخطئون ويناقضون أنفسهم».

مارتن لوثر

مارتن لوثر

في ٣١ أكتوبر ١٥١٧م، قام أستاذ اللاهوت الراهب مارتن لوثر بالإعلان عن مبادئه التي هاجم بها صكوك الغفران، وفضح فيها مفاسد الكنيسة الكاثوليكية. ونتيجة لذلك أعلن البابا ليو العاشر، طرد لوثر وعدَّه مارقًا عن المسيحية. ولأن الكنيسة كانت تفرض سلطانها على الملوك المسيحيين فقد أمر الإمبراطور شارل الخامس وأعضاء مجلسه لوثر بالرجوع عن آرائه، فأجاب لوثر في خطاب شهير قائلا : «ما لم أقتنع بالنصوص المقدسة أو العقل الصريح، فأنا ملتزم بالنصوص المقدسة التي أوردتها وبما يمليه عليّ ضميري الذي هو أسير لكلمة الله لأني لا أثق في البابا أو المجالس وحدها، فهؤلاء غالبًا ما يخطئون ويناقضون أنفسهم. أنا لا أستطيع ولن أستطيع أن أرجع عن أي شيء، لأنه ليس صحيحًا ولا صدقًا أن يخالف الإنسان ضميره، أنا لا أستطيع أن أفعل غير ذلك».

فما كان من الإمبراطور إلا أن وقع وثيقة تعلن خروج لوثر عن القانون، وتبيح لأي شخص قتله من غير أن ينال عقوبة. ولكن أميرًا سكسونيًّا، هو فريدريك الحكيم، بسط له حمايته، فاستمر لوثر في قيادة حركته حتى وفاته عام ١٥٤٦م. ولكن الحركة اللوثرية انتشرت، ونالت اعترافًا من الإمبراطورية المقدسة عام ١٥٥٥م. لقد دخلت الحركة السويد عام ١٥٢٠ م، وأصبحت الدين الرسمي للدولة في الدانمرك عام ١٥٣٦م.

كانت تلك هي بداية مذهب المحتجين (البروتستانت) ثالث المذاهب المسيحية الكبرى في العالم اليوم..

في عصر مارتن لوثر وبعده ظهرت شخصيات ساهمت في بلورة البروتستانتية ونشرها في أوربا، مثل زونجلي السويسري (١٤٨٤-١٥٣١م) الذي ظهر في العصر

نفسه الذي ظهر فيه لوثر ودعا إلى كثير مما دعا إليه لوثر في شؤون الدين، وثار على صكوك الغفران وغيرها من مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وتبعه عدد كبير من الناس. ولكنه مات قتيلاً في أثناء صراع وقع بين أنصاره وأنصار الكنيسة الكاثوليكية. وكانت دعوته منفصلة عن دعوة لوثر وإن التقت معها في مبادئها .

أما كلفن الفرنسي (١٥٠٩-١٥٦٤) فقد قام بعد لوثر بالدعوة إلى البروتستانتية ونشر مبادئها وألف في ذلك بحوثاً ورسائل كثيرة نشر معظمها بعد فراره إلى جينيف بسويسرا. فإليه يرجع تنظيم البروتستانتية وتحرير مبادئها .

وقد انتشرت البروتستانتية في كثير من بلاد العالم المسيحي، ويعتنقها الآن معظم أهل ألمانيا والدانمرك وسويسرا وهولندا والسويد والنرويج وإنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية؛ وأخذت الآن بسبب جمعيات التنصير البروتستانتية تغزو كثيراً من معاقل الكاثوليكية والأرثوذكسية، وتنتشر في السودان الجنوبي وأواسط إفريقيا والصين واليابان .

هذا، ولا تختلف البروتستانتية عن المذاهب المسيحية الأخرى فيما يتعلق بجوهر العقيدة، فهي مثلها تؤمن بالتثليث وألوهية المسيح وبنوته لله وصلبه وقيامته ورفعه وحسابه للعالم يوم القيامة وبأنه صلب لتكفير الخطيئة الأزلية التي ارتكبها آدم وعلقت بجميع نسله.. وما إلى ذلك من الأمور التي استقرت عليها العقيدة النصرانية .

وإنما تختلف البروتستانتية عن غيرها من المذاهب المسيحية بوجه عام وعن الكاثوليكية بوجه خاص في أمور فرعية من أهمها ما يلي :

- تستمد البروتستانتية جميع الأحكام المتعلقة بالعقائد والعبادات والشرائع من الكتاب المقدس وحده، ولا تقيم لغيره وزناً في هذا الصدد إلا إذا كان تفسيراً معقولاً لما ورد في هذا الكتاب؛ على حين أن الكنائس الأخرى تستمد أحكامها من الكتاب المقدس

ومن قرارات المجامع وآراء البابوات ورؤساء الكنائس، ومن ثم سميت الكنائس البروتستانتية الكنائس الإنجيلية لاعتمادها على الإنجيل خاصة وعلى سائر أسفار الكتاب المقدس بوجه عام، بينما سميت الكنائس الأخرى الكنائس التقليدية لاعتمادها على التقاليد المستمدة من المجامع ومن آراء رؤساء الكنيسة، وجعلها لهؤلاء الرؤساء سلطاناً في تقرير حقائق العقائد والعبادات والشرائع .

- لا تقرر البروتستانتية البابوية أو الرياسة العامة في شؤون الدين، ولذلك ليس لكنائسهم رئيس عام كما هو الشأن في الكنائس الأخرى، وإنما تجعل لكل كنيسة بروتستانتية رياسة خاصة بها، وليس لها إلا سلطان الوعظ والإرشاد والقيام على شؤون العبادات والواجبات الدينية الأخرى، وعلى تعليم مسائل الدين، ولا يسمون رجال الدين قسسا كما هو الشأن في الكنائس الأخرى، وإنما يسمونهم «رعاة» لأنهم يرعون تابعي كنيستهم ويؤدون لهم ما يجب على الراعي أن يؤديه نحو رعيته من واجبات .

- ليس في البروتستانتية نظام الرهبنة، وهي لا تحرم الزواج على رجال الدين كما تحرمه الكاثوليكية على جميع الرهبان والقسس بمختلف درجاتهم .

- تنكر البروتستانتية كل الإنكار أن يكون لرجل الدين الحق في غفران الذنوب في حالة الاحتضار وغيرها، وإنما تجعل ذلك الحق لله وحده، فيقبل إن شاء توبة العاصي ويغفر له ما تقدم من ذنبه، بل إن أهم ما اتجهت البروتستانتية في نشأتها إلى القضاء عليه هو ما كانت تزعمه الكنيسة الكاثوليكية لرجالها من السلطان في محو الذنوب، وما تبع هذا الزعم من نظام صكوك الغفران .

- تقرر البروتستانتية أن الغرض من أكل الخبز وشرب الخمر في العشاء الرباني هو أن يكون وسيلة رمزية لتذكر ما قام به المسيح في الماضي ؛ إذ قدم جسمه للصلب ودمه

للإراقة لتخليص الإنسانية من الخطيئة الأزلية، ولتذكر ما سيقوم به يوم القيامة إذ يدين الناس ويحاسبهم على ما كسبت أيديهم، وبذلك تنكر البروتستانتية كل الإنكار ما تذهب إليه الكنائس الأخرى إذ تزعم أن ما تجريه على الخبز والخمر من طقوس يحولهما إلى أجزاء من جسم المسيح ومن دمه !

- تنكر البروتستانتية إنكاراً باتًّا جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أم المسيح من طقوس واحتفالات وعبادات وأعياد، وتعتبر ذلك خروجاً على أصول الدين .
- تحرم البروتستانتية ما تسير عليه الكنائس الأخرى من وضع الصور والتماثيل في أماكن العبادة واتجاه المصلين لها بالسجود، معتمدة على تحريم التوراة لذلك وعلى أن شريعة موسى شريعة للمسيحيين إلا ما ورد نص صريح من المسيح بنسخه أو تعديله .
- تحرم البروتستانتية أن تقام الصلاة بلغة غير اللغة المفهومة للمتعبد، كما تفعل الكنائس الأخرى التي تقيمها بلغات ميتة كاللاتينية والقبطية.

ربما يلاحظ القارئ أن حركة مارتن لوثر ومن تبعه تأثرت ببعض المبادئ الإسلامية، التي تنزع القداسة عن رجال الدين، وتحرم الرهبنة والتماثيل، ولا تجعل لكلام أحد عصمة غير نصوص الوحي..

كما يلاحظ أن اعتماد البروتستانت على الكتاب المقدس بشقيه (المسيحي واليهودي) جعلهم أقرب المذاهب المسيحية لليهود، وسهل اختراق الحركة الصهيونية للمسيحية، وظهور ما يسمى «المسيحية الصهيونية» التي ترى في إقامة دولة يهودية في فلسطين علامة على مجيء المسيح في آخر الزمان، لذا تساعد في بقاء تلك الدولة وتدعمها.

غيرت البروتستانتية من وجه أوربا، فلم تعد أوربا الغربية موحدة تحت سلطان الكنيسة الكاثوليكية، واستغل الاختلاف المذهبي بين بريطانيا وفرنسا والبرتغال في الصراع الاستعماري بينهم، وانتقل المذهب الجديد لشمال أمريكا، بينما ظل جنوبها كاثوليكياً.

إعلان استقلال الولايات المتحدة

حدث تاريخي بكل المقاييس.. فدولة جديدة
ستضاف مع الوقت للدول الاستعمارية

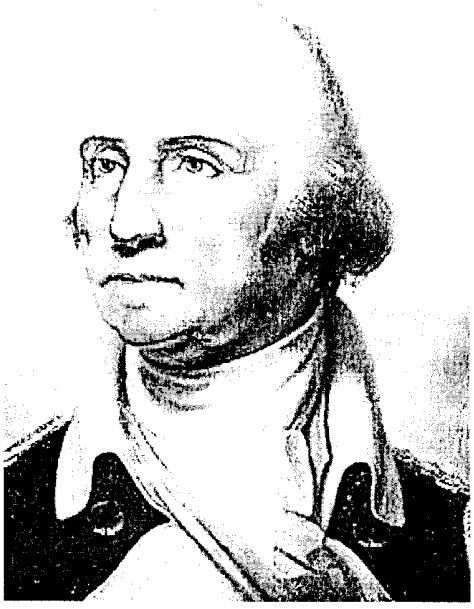

جورج واشنطن

كان أول وصول أوربي موثق لما يُعرف اليوم بالولايات المتحدة الأمريكية في إبريل ١٥١٣م، حيث بدأ الإسبان في إنشاء مستوطناتهم في المنطقة المعروفة اليوم باسم فلوريدا، وتبعت المستوطنات الإسبانية في المنطقة مستوطنات أخرى في جنوب غرب الولايات المتحدة، وهي التي دفعت بالآلاف نحو المكسيك. وأقام تجار الفراء الفرنسيون نقاطاً تجارية تابعة لفرنسا الجديدة حول منطقة البحيرات العظمى؛ كما سيطرت فرنسا على الكثير من المناطق الداخلية في أمريكا الشمالية وصولاً إلى خليج المكسيك.

أما البريطانيون فكانت أولى مستوطناتهم الناجحة في جيمس تاون في عام ١٦٠٧، بالإضافة إلى مستعمرة بلايموث في عام ١٦٢٠. وقد أسفر استئجار مستعمرة خليج ماساشوستس في عام ١٦٢٨ عن موجات من الهجرة البريطانية، وفي عام ١٦٣٤م، استوطن نحو عشرة آلاف من البيوريتانيين نيو إنجلاند. وبين أواخر عام ١٦١٠ والثورة الأميركية، تم شحن حوالي ٥٠,٠٠٠ من المساجين إلى المستعمرات البريطانية الأمريكية.

أما الهولنديون فقد استقروا ابتداء من عام ١٦١٤، على ضفاف نهر هدسون بما في ذلك نيو أمستردام (نيويورك) التي تقع في جزيرة مانهاتن.

وفي عام ١٦٧٤م، تنازل الهولنديون عن ممتلكاتهم الأمريكية لإنجلترا؛ وسميت مقاطعة أمستردام الجديدة باسم نيويورك. كما تم التعاقد مع الكثير من المهاجرين الجدد، وخاصة المهاجرين منهم إلى الجنوب، ليعملوا كخدم وهو ما مثل نحو ثلثي المهاجرين إلى ولاية فرجينيا بين عامي ١٦٣٠ و ١٦٨٠م. ومع دخول القرن الثامن عشر، أصبح العبيد الأفارقة المصدر الرئيسي للقوة العاملة. وبعد تقسيم مستعمرة كارولينا في عام ١٧٢٩ م، واستعمار جورجيا في عام ١٧٣٢، تأسست المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة التي ستصبح لاحقاً نواة الولايات المتحدة.

ضمت المستعمرات جميعها حكومات محلية حرة منتخبة ومتاحة لجميع الرجال الأحرار. كما عملت جميعها على تشريع تجارة العبيد الأفارقة، وقد زادت الكثافة السكانية للمستعمرات بشكل كبير بسبب ارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات والهجرة المنتظمة.

في عام ١٧٧٥ جاءت اللحظات التي أدرك فيها المستوطنون الأمريكيون ضرورة انفصالهم عن بريطانيا، وإعلان دولتهم الخاصة، فقامت الثورة في الولايات الثلاث عشرة، وكان لها أسبابها، فقد نمت الولايات المتحدة سكانيّاً حتى وصل عدد السكان في المستعمرات الثلاث عشرة إلى ٢.٦ مليون نسمة في عام ١٧٧٠، مثل البريطانيون ثلث هذا العدد، بينما الأمريكيون السود خمس السكان، ورغم ذلك لم يكن للمستعمرين الأمريكيين تمثيل في برلمان بريطانيا العظمى، على الرغم من أنهم كانوا يدفعون ضرائب باهظة للحكومة البريطانية، كما مارس البريطانيون سياسة احتكارية في التجارة مع المستوطنين. وفي الوقت نفسه أشعلت الصحوة المسيحية التي ظهرت بين ١٧٣٠ و ١٧٤٠، اهتمام الناس بالدين والحرية الدينية، وكانت تلك العوامل سبباً في اندلاع حرب الاستقلال، حيث شكلت الولايات جيشاً من المتطوعين قاده جورج واشنطن في يونيو ١٧٧٥م، وفي ٤ يوليو ١٧٧٦م أعلن ممثلو الولايات استقلال الولايات المتحدة الأمريكية خلال مؤتمر فيلادلفيا الثالث.

نجح جيش واشنطن في هزيمة بريطانيا بمساعدة من فرنسا وإسبانيا، وبمقتضى معاهدة فرساي بباريس سنة ١٧٨٣ تم الإعلان رسميا عن استقلال الولايات المتحدة الأمريكية من قبل إنجلترا.

سقوط سجن الباستيل

يوم انطلقت شرارة الثورة الفرنسية..

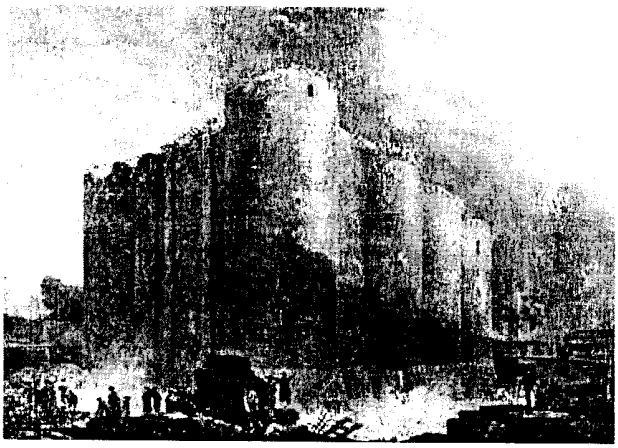

صبيحة اليوم الرابع عشر من يوليو عام ١٧٨٩م، كانت مدينة باريس في حالة من الذعر. كان المتظاهرون قد اقتحموا في وقت سابق أحد مخازن الأسلحة، وحصلوا على ما يقرب من ٣٠ ألف بندقية، ولكن دون طلقات أو بارود، وكانوا يسعون بشكل أساسي إلى الاستيلاء على الأسلحة والذخائر المخزنة في سجن الباستيل الذي كان يوجد به أكثر من ١٣٦٠٠ كيلو جرام.

في هذه الفترة كان سجن الباستيل الذي يعود تاريخه للعصور الوسطى خالياً تقريباً من السجناء، إذ أغلقته السلطات تقليلاً للنفقات في الأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بها البلاد آنذاك، ورغم ذلك كان رمزاً للاستبداد الملكي.

احتشدت الجماهير خارج السجن مطالبين باستسلام حامية السجن وإخراج الأسلحة والبارود.

فدُعي اثنان من ممثلي الجماهير للدخول إلى داخل الحصن، وبدأت بعدها المفاوضات؛ وفي الظهيرة سمح لآخر بالدخول حاملاً مطالب محددة. طالت المفاوضات بينما ازداد عدد الحشود ونفد صبرهم. فتدفقوا في الساعة الواحدة والنصف نحو الفناء الخارجي غير المحمي، وقطعوا سلاسل الجسر المتحرك المؤدي إلى الفناء الداخلي، وفي هذا الوقت بدأ إطلاق النار، ويبدو أن الحشود شعرت أنها قد وقعت في فخ فأصبح القتال أكثر عنفًا وشدة، ولم تتدخل قوات الجيش الملكية ذات القوة الكبيرة المعسكرة في ساحة دي مارس المجاورة. وفي الساعة الخامسة أعلن محافظ السجن الاستسلام مدركًا أن قواته لن تقوَ على الصمود أكثر من ذلك، وفتح الأبواب المؤدية إلى الفناء الداخلي فاندفع المتظاهرون للداخل محررين الحصن الساعة الخامسة والنصف.

قتل من المهاجمين أثناء الاقتحام ٩٨ شخصاً، بينما قتل واحد من حراس السجن، وعقب الاستسلام ألقى المتظاهرون القبض على محافظ السجن وقتلوه وطافوا برأسه الشوارع، كما قتلوا ٥ من ضباط وجنود الحامية.

لقد كان اقتحام الباستيل الشرارة التي أشعلت الثورة الفرنسية، التي أثرت بشعاراتها الثلاثة (حرية- عدالة - مساواة)، وبما تمخض عنها سياسيًّا وفكريًّا في حياة أوربا والعالم، ولا تزال تؤثر لليوم.

كانت البداية مع الأزمة الاقتصادية الكبيرة التي واجهت فرنسا في عهد الملك لويس السادس عشر، جراء التكاليف التي تكبدتها فرنسا جرّاء تدخلها في حرب الاستقلال الأمريكية، وجرّاء الجهود المتواصلة لغزو بريطانيا على وجه الخصوص، وتفاقمت هذه الأزمة نتيجة النظام الضريبي غير العادل. وفي الخامس من مايو عام ١٧٨٩م، اجتمع مجلس طبقات الأمة للبحث في هذه المسألة، ولكن الأنظمة القديمة والطبقة الثانية المحافظة في الحكم - والتي كانت تتألف من النبلاء الذين شكلوا ما نسبته ٢٪ من سكان فرنسا في ذلك الوقت - أعاقوا عمل أعضاء المجلس. وفي السابع عشر من يونيو ١٧٨٩م، قامت الطبقة الثالثة وممثلوها المنبثقون من الطبقة الوسطى بإعادة تشكيل أنفسهم في الجمعية الوطنية، والتي كانت تهدف إلى إيجاد دستور فرنسي. وقد عارض الملك في البداية هذا التطور، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بسلطة هذه الجمعية والتي أطلقت على نفسها اسم الجمعية التأسيسية الوطنية في التاسع من يوليو. وفي الرابع عشر كان اقتحام الباستيل الذي أشعل الثورة.

اختراع البطارية الكهربية

في يوم من أيام عام ١٨٠٠م استطاع الإيطالي فولتا أن يفتح للعلم باباً ساهم في تطوير الحياة البشرية، وتغيير وجه العالم.. فقد استطاع أن يخترع أول بطارية كهربائية وأطلق عليها اسم «البطارية الفولتية».

وكانت مصنوعة من طبقات متوالية من الزنك والنحاس. ولقد مَدَّت هذه البطارية العلماء بمصدر للطاقة الكهربائية يمكن الاعتماد عليه أكثر من الماكينات الإلكتروستاتية التي كانت تُستخدم من قبل.

كانت البداية حين قام العالم الإيطالي لويجي جالفاني بتجربة على قدم الضفدعة ولاحظ وجود صعقة كهربائية حركت قدم الضفدعة.. قام فولتا بدراسة ما أسماه جالفاني بالكهرباء الحيوية إذ أنه كان مهتماً بدراسة الكهرباء. وقد لاحظ فولتا أن قدم الضفدعة يعتبر موصلاً للكهرباء وفي نفس الوقت مجسًّا لها. أعاد فولتا نفس التجربة التي قام بها جالفاني ولكنه استبدل قدم الضفدعة بورق مملح إذ إنه يعتبر مجسًّا للكهرباء حسب تجارب سابقة له.

وبعد هذه التجربة اكتشف فولتا المتسلسلة الكهروكيميائية، والقوة الدافعة الكهربائية، للخلية الجالفانية باعتبار أن المعدنين المختلفين هما القطبان وبينهما موصل، ويؤدي اختلاف المعدنين لتوليد فرق جهد بينهما.

عام ١٨٠٠م نشب خلاف بين فولتا وجالفاني، فقد فسر جالفاني نشوء الصاعقة الكهربائية على أنها بسبب جسم الضفدعة، وفسره فولتا بأنه بسبب فرق الجهد بين المعدنين، فقام فولتا بعمل نموذج بطارية التي أسماها بـ" الكومة الفولتية" لإثبات نظريته. وقد استخدم فيها معدن الزنك والفضة. وقام بوضع مجموعة من هذه البطاريات على التوالي.

نتيجة لمجهوداته قام نابليون بمنحه لقب كونت عام ١٨١٠. في عام ١٨١٩ تقاعد فولتا وأوقف أبحاثه واستقر بمدينة كومناجو والتي سميت على اسمه بعد ذلك بكومانجو فولتا. ومات يوم ٥ مارس عام ١٨٢٧ ودفن بتلك المدينة.

و قد تم عمل تمثال له ووضع على شاطئ بحيرة بمدينة كومو في وسط المدينة كما تم عمل متحف له يضم مخترعاته وأدوات تجاربه. وبجوار بحيرة كومو تقع منظمة تروج للأبحاث العلمية حيث إن فولتا قام بأولى تجاربه في مدينة كومو.

وعلى الرغم من أن أوائل القرن التاسع عشر شهدت تقدمًا سريعًا في علم الكهرباء، فإن أواخر القرن نفسه شهدت أعظم تقدم في مجال الهندسة الكهربائية . وتحولت الكهرباء من مجرد فضول علمي مُحيِّر إلى أداة رئيسية لا غنى عنها في الحياة العصرية وأصبحت القوة الدافعة للثورة الصناعية الثانية .

معركة واترلو..

كانت معركة واترلو الصفحة الأخيرة في كتاب أمجاد نابليون بونابرت القائد العسكري الشهير.. كما مثلت النهاية لحقبة من تاريخ أوربا يمكن تسميتها دون مبالغة.."حقبة نابليون"..

كانت معركة واترلو الصفحة الأخيرة في كتاب أمجاد نابليون بونابرت القائد العسكري الشهير.. كما مثلت النهاية لحقبة من تاريخ أوربا يمكن تسميتها دون مبالغة.. «حقبة نابليون»..

عام ١٨١٢م بدأ نابليون الحملة التي أسماها الحرب البولندية الثانية، وقد تجنب الروس الاشتباك معه في معركة فاصلة، وبدءوا عملية انسحاب منظمة مع اتباع سياسة الأرض المحروقة التي جعلت الجيش الفرنسي يعاني البرد والجوع في روسيا، ورغم ذلك انتصر نابليون في معركة بورودينو ودخل موسكو، ولكن الحاكم العسكري للمدينة فيودور روستوبكين أحرق المدينة بعد دخول نابليون بيوم واحد، مما وضع الجيش الفرنسي في مأزق لعدم وجود إمدادات غذائية، ولما يئس نابليون من معركة فاصلة مع الروس وتحت ضغط قلة المواد الغذائية، أمر الجيش بالانسحاب لتبدأ الكارثة إذ هاجم الروس القوات الفرنسية المنسحبة بضراوة، ومن أصل ٤٥٠ ألف جندي لم ينجح في الانسحاب إلا ٤٠ ألف جندي، وكانت هزيمة ماحقة لنابليون ونصراً ساحقاً للروس.

بعد انتهاء الحملة مرت فترة هدوء عوض الطرفان فيها خسائرهم الثقيلة، وبدأ الروس بتنظيم تحالف جديد لهزيمة فرنسا هزيمة نهائية، وانضمت بروسيا وبريطانيا والبرتغال وإسبانيا والسويد والنمسا للتحالف، فتوجه نابليون لملاقاة قوات التحالف، متبعاً مبدأه الشهير: الهجوم خير وسيلة للدفاع، فالتقى بهم في مدينة درسدن الألمانية، وأوقع بهم هزيمة ساحقة (١٨٣١م) على الرغم من أن عدد قواتهم كان ضعف عدد قواته.

بعدها ضغط الحلفاء على نابليون بتفوقهم العددي وقدرتهم على تعويض الخسائر التي منوا بها سابقاً، وقعت معركة لايبزج وهُزم نابليون هزيمة ساحقة فتحت أبواب فرنسا للحلفاء، ولكن على الرغم من ضغط القوات البريطانية من الجنوب الإسباني

والحلفاء من جهة ألمانيا فقد حقق نابليون انتصارات في حملته التي سميت حملة الأيام الستة، ولكنها لم تسفر عن نصر حاسم على الحلفاء لقلة عدد القوات الفرنسية، ودخل الحلفاء باريس، فأمر نابليون الجيش بالزحف إلى باريس لمعركة أخيرة مشرفة لكن المارشالات في جيشه تمردوا عليه ورفضوا تنفيذ الأوامر.

في مناورة سياسية خلع نابليون نفسه من الحكم وتولى ابنه العرش، لكن الحلفاء رفضوا ذلك وأملوا شرطهم وهو الاستسلام دون قيد أو شرط فوافق نابليون مكرهاً، وتم نفيه إلى جزيرة ألبا في البحر المتوسط قرب ساحل إيطاليا، مع حرمان أي فرد من عائلته من تولي السلطة في فرنسا مستقبلاً مع احتفاظ نابليون بلقبه الإمبراطوري وجعله حاكما على جزيرة ألبا.

في أثناء نقله حاول نابليون الانتحار إلا أن السم لم يفعل مفعوله، ووصل إلى الجزيرة وأسس جيشاً صغيراً وأسطولاً صغيراً أيضاً وقام ببعض الإصلاحات، ولكن كيف يرضى الإمبراطور بهذه الأرض الصغيرة بعد أن أذل أوربا ودوخها لمدة عقد وأكثر؟!

مع نفي نابليون تم تعيين لويس الثامن عشر ملكاً على فرنسا، وكان الفرنسيون يكرهون الملكية ولا يريدون عودة أيامها، وخوفاً من نفيه إلى جزيرة أخرى نائية هرب نابليون من ألبا ووصل فرنسا في الأول من مارس ١٨١٥م، لأنه وجد أن الحلفاء في مؤتمر فيينا، كانوا غير قادرين على تسوية خلافاتهم. وكان يأمل في أن يستغل هذا الشقاق لاستعادة السلطة .فأرسل لويس الفوج الخامس لإلقاء القبض عليه، ولكن جنود الفوج انضموا إلى نابليون وزحفوا معه على باريس، فهرب لويس من العاصمة، وإزاء ذلك أرسل الحلفاء قواتهم لمواجهة نابليون، ووصل الجيشان البريطاني والبروسي إلى بلجيكا بينما تأخر الجيش الروسي لبعد المسافة.

تحرك نابليون نحو بلجيكا لمواجهة الجيش البريطاني قبل التقائه مع جيش بروسيا، وفي واترلو قرب بروكسل، يوم الثامن عشر من يونيو ١٨١٥م، هاجم الفرنسيون

القوات البريطانية بضراوة لزحزحتها عن مواقعها، ولكن دون جدوى بفضل قيادة دوق ولنجتون، وعند وصول المعركة إلى نقطة الفصل دُمرت فرقة الخيالة الفرنسية تدميراً كاملاً إلا أنهم بمساعدة المدفعية الفرنسية حطموا القلب الإنجليزي حتى أشرف الإنجليز على الانهيار، ونصح الضباط الدوق بالانسحاب لكنه رفض وقرر انتظار الجيش البروسي.

كان يمكن لنابليون أن ينتصر، لو أنه قام بالهجوم في وقت مبكر من النهار ولكنه انتظر حتى الظهر بسبب سقوط مطر غزير في الليلة السابقة، وسمح هذا التأخير للمارشال جبهارد فون بلوخر، أن يصل مع قواته البروسية لتعزيز قوات ولنجتون .

هاجم بلوخر ميمنة نابليون وحطمها تحطيما كاملاً وعمت الفوضى الجيش الفرنسي وأخذ نابليون على حين غرة، حينها هاجم دوق ولنجتون الجيش الفرنسي من جهته..

قام نابليون بآخر جهد ليكسب المعركة، فزج بأفضل قواته من قدامى الحرس إلى خطوط العدو لتتلقى هزيمة ساحقة وعندئذ انسحبت القوات الفرنسية لتتفادى هجومًا مضاداً من الطعن بالحراب.

ولما أدرك (نابليون) النهاية الأليمة، ركب جواده وصفَّ حرسه الخاص صفوفًا متلاحقة، وأشار بأصبعه نحو الإنجليز، ووصلت حرارة المعركة أوجها، ونابليون على رأس قواته. وقد تكبد الإنجليز خسائر كبيرة بالأرواح والعتاد في هذا الهجوم الأخير. واضطر ولنجتون بعد أن أصيب تحته جوادان أن يترجل حاملا سيفه ويتقدم حرسه إلى المعركة، واصطدم الحرسان ببعض، وأراد (نابليون) أن يزج بنفسه وسط النيران لولا أن أثناه ضباطه فلوى رأس جواده وغادر الميدان وهو يقول :«خسرنا كل شيء إلا الشرف».

وصف ولنجتون المعركة بأنها كانت معركة متكافئة، وكان من الممكن أن تكون النتائج معكوسة تماماً لولا الأخطاء الفادحة التي وقع فيها الفرنسيون، لاسيما في

مجالات الاتصالات والتنسيق والقيادة واتخاذ القرار. وغادر الجيش الفرنسي ساحة المعركة بشكل فوضوي، الأمر الذي سمح لقوات التحالف بدخول باريس وإعادة تنصيب الملك لويس الثامن عشر على العرش الفرنسي، أما نابليون فقد فكّر في الفرار إلى الولايات المتحدة، ولكنه ما لبث أن طلب رسمياً اللجوء السياسي من القبطان الإنجليزي فريدريك ميتلاند، قائد السفينة بيليرفون، في يوليو ١٨١٥، وتم وضعه وراء القضبان ثم نفيه إلى جزيرة سانت هيلانة، على بعد ٢٠٠٠ كيلومتر في عرض الأطلسي، فأقام خلال أول شهرين في جناح في مزرعة تعود لوليام بلوكومب، ويبدو أن علاقة صداقة تطورت بينه وبين عائلة وليام بلوكومب، لاسيما ابنته الصغرى لوسيا إليزابيت، التي ألفت فيما بعد كتاباً بعنوان «ذكرياتي عن الإمبراطور»، الأمر الذي أثار حفيظة القوات البريطانية التي خشيت أن يحاول نابليون الاتصال بأنصاره في باريس عن طريق العائلة، وتم طرد بلوكومب من الجزيرة ونقل نابليون إلى منزل قديم وضخم يطلق عليه «لونج وود هاوس»، وعاش نابليون هناك حتى وفاته في الخامس من مايو ١٨٢١، ويعتقد أن سبب موته كان الإصابة بالسرطان، ولكن ثمة من يشك أن الإنجليز سمموه بجرعات من الزرنيخ كانوا يضعونها في طعامه.

لقد أنهت واترلو طموح نابليون الشخصي في حكم أوربا، وعززت من وضع بريطانيا الاستعماري، وأنهت عقداً من السيطرة الفرنسية على أوربا، ولكنها في الوقت نفسه مهدت لعصر جديد من الحريات والحروب القومية في أوربا، بتأثير من مبادئ الثورة الفرنسية التي انتقلت مع الجيوش الفرنسية في أرجاء القارة.

معاهدة لندن

القضاء على الحلم المصري

لما كان والي مصر محمد علي باشا يدرك أهمية بلاد الشام الاستراتيجية والاقتصادية فقد حاول عبثاً إقناع السلطان العثماني بتقليده حكمها، ولقد طلب فعلاً من السلطان، أيام الحرب الوهابية، أن يعهد إليه بولاية الشام متذرعاً في ذلك بحاجته إلى المدد منها للمعاونة في القتال. لكن الحرب الوهابية وفتح السودان صرفاه مؤقتاً عما يريد، حتى تجدد عزمه على المطالبة بولاية الشام بعد الحرب اليونانية، ولما أخفقت مساعي محمد علي في إقناع السلطان بتقليده حكم سورية، تذرع بمعاقبة والي عكا، عبد الله باشا الجزار لامتناعه عن وفاء دين سابق مترتب عليه لمصر، وعرقلة وصول أخشاب الشام إلى مصر، وحماية المصريين الفارين من الجندية، فندب ولده إبراهيم باشا لقيادة الحملة الموجهة إلى بلاد الشام في ٢٩ أكتوبر ١٨٣١، وقدرت قوتها بحدود ٣٠ ألف مقاتل مع عمارة حربية تقارب ٣٥ سفينة حربية وسفن إمداد، وتحركت القوات البرية باتجاه سيناء فبلغت العريش واحتلت خان يونس ثم غزة ويافا (٨ نوفمبر ١٨٣١) وفي ٢٦ نوفمبر ١٨٣١م ضرب الحصار على عكا بعد وصول العمارة الحربية المصرية.

انقضت ثلاثة أشهر من غير أن ينال إبراهيم باشا من المدينة منالاً، ولكنه استغل هذه المدة والحصار قائم في احتلال المواقع المهمة في ولاية صيدا وما حولها، فاحتلت قوة من جنوده صور وصيدا وبيروت وطرابلس، واحتلت قوة أخرى القدس، وداخل القلق السلطنة من أعمال محمد علي، فحشدت جيشاً من عشرين ألفاً بقيادة عثمان باشا، وانتصر إبراهيم باشا على الجيش العثماني في معركة الزرّاعة بين حمص وبعلبك في ١٤ إبريل ١٨٣٢م ثم عاد ليشدد الحصار على عكا، فسقطت في يده في أواخر مايو ودخل دمشق في ١٦ يونيو، وجعلها مقر حكومة أبيه في الشام، ثم انتصر ثانية عند حمص على طلائع الجيش العثماني، ودخل حمص وحماة، وزحف على المواقع العثمانية في مضيق بيلان حيث تحصن حسين باشا قائد الجيش العثماني، وهناك وقعت المعركة الحاسمة بين إبراهيم باشا وحسين باشا (٣٠ يوليو ١٨٣٢م) وانتهت بهزيمة منكرة للجيش

العثماني وقائده حسين باشا الذي هرب على إثرها، ومضى إبـراهيم في الزحـف فاحتـل الإسكندرونة وبانياس وسُلمت له أنطاكية واللاذقية، ولم يلبث أن احتل أطنة وأورفـة وعينتاب ومرعش وقيصرية، وانتصر في قونية على الجيش العثماني وأسر قائـده الـصدر الأعظم رشيد باشا، وغدا الطريق إلى العاصمة اسطنبول مفتوحاً أمام قوات محمد علي بفضل تفوق الجيش المصري ومستواه العسكري الممتاز، وبفضل مواهب إبراهيم باشا القيادية، ولما وصل إبراهيم كوتاهيـة في مـايو ١٨٣٣ تلقـى أمـراً مـن أبيـه بـالتوقف، لتهديد الدول الأوربية بالتدخل.

عُقدت معاهدة كوتاهية بين الباب العالي ومحمد علي، نال فيها الأخير حكـم بـلاد الشام وأطنة، ومنح إبراهيم لقب محصل أطنة، وبذلك دخلت الشام في حكـم الدولـة المصرية، وصار إبـراهيم باشـا حـاكماً عامًّـا للـبلاد الـسورية معينـاً مـن قبـل والـده. انصرف إبراهيم باشـا إلى تنظـيم الـبلاد سـاعياً إلى تجديـد أحوالهـا وتحـديثها في جميـع المجالات الإدارية والاقتصادية والمالية وقامت سياسـته عـلى مبـدأ المـساواة في الـدين والمساواة أمام القانون كما حاول أن يدير بلاد الشام على أنها قطر واحد يـسكنه شـعب واحد، فاصطدم بالفروق والخلافات القائمـة بـين الطوائـف، وتفـاقم الخطـب حـين عمدت بريطانية وروسية والدولة العثمانية إلى تغذية القلق والاستياء بالدس وتحـريض الناس للثورة على إبراهيم باشا. وخاصة بعد توقيع معاهدة دفاعية بين الدولة العثمانية وروسية (يوليو ١٨٣٣) لوقف الزحف المصري، وكان من نتيجة ذلك حدوث الفـتن والثورات على حكم إبراهيم باشا في بلاد الشام ولاسيما في لبنان.

ومن أسباب موقف بلاد الشام هذا من إبراهيم باشا ـ إضافة إلى التدخل الأجنبي ـ ما قام به من احتكار تجارة الحرير وأخذ ضريبة الرؤوس (الفردة) مـن الرجـال كافـة على اختلاف مذاهبهم، وكانت ضريبة الرؤوس سـابقاً لا تؤخـذ إلا مـن أهـل الذمـة واضطر إبراهيم باشا إلى قمع هذه الحركات بشدة ومـصادرة الـسلاح مـن الأهـالي في جميع أنحاء البلاد، وقد صوِّر جمع السلاح مقدمة لتجريدهم مـن القـوة أو لتجنيـدهم

وانتقاص حقوقهم، وتأكد للدولة العثمانية أن اضطراب الأحوال ضايق حكومة إبراهيم باشا وأرهق قواها، فحشد السلطان محمود قواته من جديد واستأنف الحرب على إبراهيم باشا لاسترداد بلاد الشام بتحريض من بريطانيا، ووقعت معركة فاصلة عند نزيب (نصيبين) الواقعة قرب عينتاب، (وليست نصيبين الحالية تجاه القامشلي) في يونيو ١٨٣٩م حقق فيها إبراهيم باشا نصراً مبيناً على الجيش العثماني الذي كان يقوده حافظ باشا، وانحاز فوزي باشا قائد الأسطول إلى محمد علي، ولكن الموقف تبدل بسبب تدخل الدول الأوربية بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا التي عقدت فيما بينها معاهدة لندن (يوليو ١٨٤٠م) وقضت بإجبار (محمد علي) على سحب قواته من بلاد الشام حتى عكا. والاكتفاء بولاية مصر وراثية له ولأولاده من بعده، ولما كان محمد علي يطمع في مساعدة فرنسا له، فقد رفض الانصياع للمعاهدة، لكن فرنسا خذلته، وحاصرت أساطيل الحلفاء شواطئ الشام ومصر، ووجد إبراهيم باشا نفسه في موقف حرج بين جيوش الحلفاء التي نزلت البر وأهالي لبنان الذين أثيروا عليه، واستسلم الأمير بشير الشهابي حليف محمد علي للحلفاء في صيدا التي استولى عليها أمير البحر الإنجليزي نابيير Napier كما استولى على بيروت وعكا وصيداء ويافا فاضطر محمد علي، في مفاوضاته مع نابيير، إلى قبول التخلي عن بلاد الشام في نوفمبر ١٨٤٠م وغادر إبراهيم باشا دمشق مع جيوشه في ٢٩ ديسمبر ١٨٤٠م مرتداً إلى مصر عن طريق غزة وبعث شطراً منها عن طريق العقبة .

استخدام التخدير في العمليات الجراحية

ومن الطرق القديمة، التي استخدمت لإحداث فقدان بالإحساس، ضرب الإنسان بمطرقة في منطقة خلف الجمجمة، فيفقد الإنسان وعيه، لفترة وجيزة.

عندما سئل آلاف العلماء والأطباء عن أعظم اكتشاف طبي أفاد البشرية في الألف عام الأخيرة، كانت إجاباتهم واحدة؛ هو «التخدير». فقد أحدث التخدير ثورة في عالم الطب والعلاج، وجعل ما كان مستحيلاً بالأمس، ممكناً اليوم. وكان الطبيب والشاعر الأمريكي أوليفر هوتون هو أول من أطلق على التخدير اسم (Anaesthesia) وهي كلمة إغريقية معروفة، تعني: فقدان الإحساس.

وقد بحث الإنسان بحثاً دؤوباً، منذ أزمنة سحيقة، عن طريقة لتسكين الآلام ليتمكن من هم على دراية ببعض فنون الطب من التدخل الجراحي. وأسفر هذا البحث عن اكتشاف بعض العقاقير، ذات الأصل النباتي، والتي تقلل من الإحساس بالألم، بل وتجعل المريض يغيب عن وعيه. ومن بين هذه العقاقير ظهر الأفيون.

ولكن أيّاً من هذه الأنواع لم يثبت جدارته في قتل الآلام نهائيًّا، فهي ضعيفة التأثير عند استخدامها بتركيزات صغيرة، أما التركيزات العالية منها، فإنها غالباً ما تفضي إلى الموت.

وكذلك جُربت المشروبات الكحولية لإحداث التخدير المطلوب، لكن استخدامها شابه كثير من القصور حيث عاود المرضى الإحساسُ بالألم والوعي، عند أول استخدام لمشرط الجراحة. الأمر الذي عقَّد الأمور، فضلاً عن غياب طرق التعقيم السليمة، التي تمنع من حدوث العدوى بالجراثيم القادرة على قتل الإنسان.

ولهذه الأسباب كلها كان إجراء العمليات الجراحية لاستئصال الأطراف، عند حدوث كسر مضاعف، أو لفتح خراج كبير، يتم بتقييد حركة المريض، سواءً بالإمساك به جيداً، أم بربطه إلى مناضد العمليات الجراحية. واقتصر هذا النوع من العمليات على تلك التي يمكن إجراؤها، في وقت وجيز جدًّا، لا يتعدى دقائق معدودة. وعلى الرغم من ذلك، فقد مات كثير من المرضى، أثناء هذه العمليات الجراحية، من جراء الألم الرهيب، والخوف، والصدمة العصبية.

إلا أن جهود الإنسان لم تكُف عن إيجاد وسيلة لتخدير مرضى العمليات الجراحية. فابتكرت طريقة تعتمد على وضع الجزء المصاب، الذراع مثلاً، في ثلج مجروش، ومع هبوط درجة الحرارة، يبدأ المريض بفقدان الإحساس تدريجيًّا في هذا الجزء؛ بحيث يُسمح عندئذ بإجراء عملية جراحية سريعة.

كذلك أجريت بعض العمليات الجراحية، بعد إيقاف، أو إبطاء الدم الوارد إلى العضو. ويكون ذلك بوضع رباط محكم ضاغط حول الفخذ مثلاً؛ حيث يعمل على منع وصول الدم إلى الأعصاب الموجودة بها، ومن ثم إحداث فقد جزئي للإحساس في الرجل بأكملها، الأمر الذي مكن الأطباء من إجراء بعض العمليات الجراحية السريعة.

ومن الطرق القديمة، التي استخدمت لإحداث فقدان بالإحساس، ضرب الإنسان بمطرقة في منطقة خلف الجمجمة، فيفقد الإنسان وعيه، لفترة وجيزة.

كذا استخدم بعض الأطباء طريقة أخطر، تمثلت في خنق المريض، حتى يفقد وعيه، نتيجة لعدم وصول الدم إلى المخ. وعندئذ يقوم الأطباء بإجراء العملية الجراحية، التي غالباً ما يعود المريض إلى وعيه خلالها.

واستخدم الإنسان التنويم المغناطيسي كذلك لإحداث التأثير، حيث يوحي كل من الطبيبُ والمنوِّمُ، للمريضِ أنه لن يعاني من أية آلام، وبهذا يختفي الإحساس بالألم حتى يصحوَ المريض. لكن وجد أن هذه الطريقة لا تصلح للعمليات الجراحية الكبيرة، فضلاً عن أنه ليس بالإمكان تنويم كل مريض بنجاح.

أما الصينيون القدماء، فقد توصلوا إلى طريقة للتحكم في الألم، تعتمد على الوخز بالإبر، وهي طريقة مازالت تستخدم، حتى الآن، في الشرق الأقصى، وجنوب شرق آسيا، وبعض البلدان الأخرى.

وتبدأ قصة أدوية التخدير الحديثة، في أواخر القرن الثامن عشر. ففي عام ١٧٧٦، اكتشف الكيميائي بريستلي غازاً، أطلق عليه غاز أكسيد النيتروز. وبعد عشرين عاماً من هذا الاكتشاف، اكتشف بريستلي وصديقه همفرى دافي أن لهذا الغاز خاصية تخفيف الآلام في المرضى.

وفي أوائل القرن الثامن عشر اكتشف العالم مايكل فاراداي أن استنشاق الأثير، وهو سائل يتحول بسرعة إلى غاز، عند تعرضه للهواء الجوي، يسبب فقدان الإحساس بالألم.

وفي هذه الأثناء، اكتشف بعض الناس أن استنشاق كلٍّ من أكسيد النيتروز والأثير معاً، يمنح إحساساً رائقاً محبباً، ويجعل الإنسان في حالة مرحة. ولذا أقيم عديد من الحفلات أطلق عليها حفلات الأثير المرحة ؛ حيث تميزت بالعبث واللهو.

ويرجع الفضل، في استخدام أكسيد النيتروز في التخدير، إلى أطباء الأسنان، الذين كانوا على احتكاك يومي مع الألم، الذي يسببونه لمرضاهم، عند خلع أسنانهم. إذ لاحظ طبيب الأسنان الأمريكي هوريس ولزأن أحد المترددين على حفلات الأثير المرحة، التي كان يستنشق فيها أكسيد النيتروز، قد جُرِحَ جرحاً كبيراً إلا أنه لم يشعر بألم. وفي اليوم التالي قرر ولز فوراً أن يقوم بإجراء تجربة على نفسه، فقام باستنشاق غاز أكسيد النيتروز ثم قام أحد زملائه الأطباء بخلع ضرس له، فلم يشعر ولز بالألم.

وتحمس ولز لهذا الاكتشاف، فقدم طلباً لعرض اكتشافه في المستشفي العام لولاية ماساشوسيتس، الموجود في مدينة بوسطن الأمريكية. وفي يوم العرض، اجتمع حشد كبير من الأطباء والطلاب، وقام ولز بإحضار مريض له، يود خلع إحدى أسنانه، إلا أن المريض صرخ من الألم، أثناء قيام ولز بعملية الخلع، فباءت دعوى ولز بالفشل الذريع.

وإذا كان النجاح لم يحالف ولز، إلا أنه حالف صديقه، ويليام مورتون، الذي كان يدرس الطب. وكان مورتون على دراية بغاز أكسيد النيتروز ومحاولات ولز معه. كما كان أيضاً على علم، بما للأثير من خواص خافضة للألم، ومفقدة للإحساس، لذا عكف مورتون على إجراء تجارب في تخدير الحيوانات بالأثير. وبعد أن تيقن من نجاحها، وأن الحيوانات تعود لوعيها، بعد فترة تطول أو تقصر، حسب جرعة الأثير الذي تعرضت لها، قام مورتون بإجراء تجارب عديدة على نفسه، تعلم منها أموراً كثيرة عن الأثير، وخواصه، وتأثيره على الإنسان.

وفي عام ١٨٤٦، تقدم مورتون بطلب، لعرض نتائجه، وتجربتها على مريض، تُجْرى له عملية جراحية، في المستشفى العام لولاية ماساشوسيتس، التي باءت فيها تجربة ولز بالفشل.

وفي يوم التجربة ١٦ أكتوبر ١٨٤٦ احتشدت غرفة العمليات في هذا المستشفى، والتي تعرف حالياً باسم قبة الأثير تخليداً لهذا اليوم، بالمئات من رجال الصحافة والإعلام الذين ملؤوا الدنيا ضجيجاً بأن طالب طب في الصف الدراسي الثاني يدعي القدرة على منع الشعور بالألم عن المرضى، أثناء إجراء العمليات الجراحية. كذا احتشدت غرفة العمليات بأساتذة وطلبة الطب، وبلفيف كبير من الأطباء، الذين وفدوا من كل صوب وحدب، لتعلم مزيد عن التخدير.

وعند حلول وقت إجراء العملية الجراحية، دخل القاعة السيد جلبرت أبوت، وهو المريض الذي ستُجْرَى له العملية الجراحية، ومعه الجراح الشهير، في ذلك الوقت، الدكتور جون وارين . الذي قام بتجهيز عدة رجال أشداء لإمساك المريض وربطه إلى منضدة العمليات عند الحاجة تحسباً لفشل تجربة مورتون، أو عدم حضوره. وبالفعل لم يحضر مورتون في الوقت المحدد. وانتظر الجميع ومرت الدقائق بطيئة متثاقلة حتى نفد صبر الجراح، الذي تحدث إلى الحشد قائلاً: يبدو أن السيد مورتون لديه أشياء أخرى تشغله عن المجيء، وهنا ابتسم الحاضرون، في حين انكمش المريض على منضدة العمليات خوفاً. وما إن شمر الجراح عن ساعديه، وتناول المشرط، وشرع في إجراء العملية. حتى دخل مورتون إلى القاعة غارقاً في عرقه، فقد كان يسابق الزمن، طوال هذه الفترة لابتكار جهاز، يستطيع به المريض أن يستنشق الأثير، أثناء الجراحة.

وتعجب الجراح عندما رآه، لكنه تراجع للوراء، وقال لمورتون متهكماً «حسناً يا سيدي، هاهو ذا مريضك مستعد لأن تفعل به ما تريد». وبهدوء وبرود شديدين شرع مورتون في عمله، وسط نظرات الحاضرين المملوءة بالدهشة والتعجب .

وبعد دقائق معدودة من استنشاق الأثير، فقد المريض وعيه، وعندئذ نظر مورتون إلى الجراح، وتحدث إليه بنفس الصيغة التهكمية قائلاً: «حسنا يا دكتور وارين، هاهو ذا مريضك مستعد، لأن تفعل به ما تريد».

وبدأت العملية، ولم يتوجع المريض، إذ كان في سبات عميق، وكان تنفسه طبيعيًّا، ونبضه منتظماً، وعندما انتهى الجراح وارين من عمليته، التفت إلى الحاضرين الذين كانوا في ذهول وصمت مطبق، كأن على رءوسهم الطير قائلاً: أيها السادة.. إن ما رأيناه اليوم حقيقة وليس خدعة. وقيل إن الجراح ذهب، بعد ذلك، إلى السيد مورتون وانحنى أمامه، مقبلاً يده قائلاً: «إن هذه لحظة لن ينساها التاريخ ولن ينساك معها». كذا صرَّح الجراح الذائع الصيت، دكتور هنري بيجلو، قائلاً: «إن ما رأيناه اليوم سينتشر في العالم أجمع، وسيستمر حتى نهايته».

وانتشرت أنباء هذا النجاح بسرعة البرق، وفتح الطريق إلى الجراحة الحديثة، بلا ألم؛ حيث انتشرت في جميع أنحاء العالم، وحتى يومنا هذا.

حفر أول بئر للنفط في العالم

في الولايات المتحدة، بينما كان العمال يبحثون عن الملح تحت سطح الأرض، وجدوا سائلاً لزجاً أسود اللون يخرج من آبار الملح، ويسبب كثيراً من المضايقات أثناء العمل، ولم تعرف أهمية ذلك السائل المزعج إلا بعد أن قام الصيدلي صمويل كير بعملية تكرير له في المعمل..

كولونيل دريك

في الولايات المتحدة، بينما كان العمال يبحثون عن الملح تحت سطح الأرض، وجدوا سائلاً لزجاً أسود اللون يخرج من آبار الملح، ويسبب كثيراً من المضايقات أثناء العمل، ولم تعرف أهمية ذلك السائل المزعج إلا بعد أن قام الصيدلي صمويل كير بعملية تكرير له في المعمل،حيث استطاع أن يحصل على سائل نقي،وجد أنه يمكن أن يستخدم في الإضاءة بدلاً من استخدام الشموع المصنوعة من دهن الحيوانات، وكان ذلك عام ١٨٥٤م.

لم يكن كير ـ الذي اشتق الكيروسين من اسمه ـ يعلم أن ذلك السائل سيصبح مصدراً رئيسيًّا للطاقة بجانب الكهرباء، وسيغير وجه العالم ويشعل الحروب والصراعات ..

بعد اكتشاف البترول كوقود وازدياد الطلب عليه بجانب الفحم، تم إنشاء شركة بنسلفانيا لزيت الصخر في ديسمبر ١٨٥٤ ،وعهدت الشركة إلى أحد موظفيها واسمه دوين ديريك «الذي لقب فيما بعد بالكولونيل ديريك» بحفر بئر لاستخراج البترول بالقرب من بلده تيتوزفيل.

استخدم الكولونيل ديريك طريقة الحفر المستخدمة في عمليات استخراج الملح، إلى أن وصل عمق البئر إلى ٥.٩٦قدم، دون ظهور شواهد البترول، وفى ذلك اليوم أرسلت الشركة إلى كولونيل ديريك قرارا بإلغاء المشروع، وفى الصباح توجه الكولونيل ديريك إلى موقع البئر لتنفيذ التعليمات، فوجد البئر ممتلئة بسائل. فما لبث أن أنزل دلواً في البئر وأخرجه، ليجد البئر قد ملئت بالزيت، وكان ذلك صباح الأحد الموافق ٢٩ أغسطس سنة ١٨٥٩م.

وتوالت عمليات حفر الآبار بعد ذلك،ووصل إنتاج البترول من ألفى برميل عام ١٨٥٩ إلى حوالى٣ ملايين برميل في عام ١٩٢٦م.

وتوالت اكتشافات البترول في ولايات كولورادو وتكساس وأوكلاهوما، واتجهت غربا حتى ولاية كاليفورنيا.

وفى باقي دول العالم توالت الاكتشافات تباعاً على النحو التالي:

بولندا وكندا عام ١٨٥٨م

رومانيا عام ١٨٦٠م

بيرو عام ١٨٦٣م

روسيا عام ١٨٦٨م

إيران عام ١٩٠٨م

فنزويلا عام ١٩١٤م

العراق عام ١٩٢٣م

السعودية عام ١٩٣٦م

قطر عام ١٩٤٠م

الجزائر عام ١٩٤٩م

ليبيا عام ١٩٥٨م ..

وغيرها من الدول المنتجة للنفط حالياً.

أما في مصر فلم يتأخر اكتشاف البترول كثيرا عنه في الولايات المتحدة، فقد اكتشف عام ١٨٦٨ أي بعد ٩ سنوات من حفر أول بئر بترول في الولايات المتحدة وبنفس الطريقة. فقد اكتشف البترول في مصر مصادفة حيث ظهرت آثار رشح بترولي أثناء عمليات استخراج الكبريت في منطقه جمصة على الساحل الغربي للبحر الأحمر حيث تمكنت الشركة الفرنسية التي تقوم بعمليات استخراج الكبريت من حفر بئر عمق ٣١٠ أقدام، فامتلأت البئر بالماء وطبقة من الزيت وتكرر هذا في بئر أخرى وكان ذلك في عام ١٨٦٨م.

اختراع القاطرة البخارية

وفي عـام ١٨١٤م قـام المهنـدس البريطـاني جـورج ستيفنسون ببناء قاطرته الأولى المسماة "بلوخر"، والتي كانت تتضمن عدة تحسينات أساسية في تصميم المحرك البخاري.

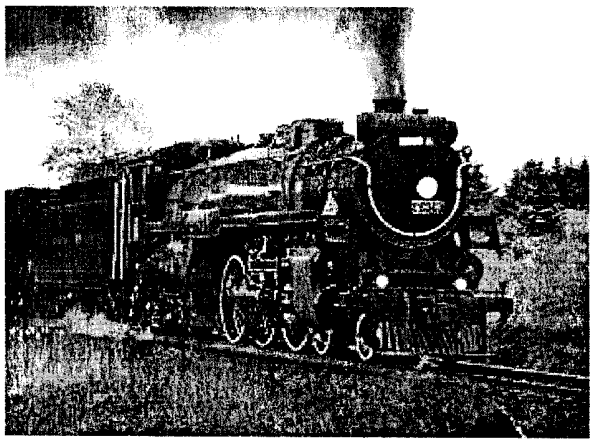

لم تكن فكرة وجود السكك الحديدية ـ كوسيلة دائمة مصممة لتهيئة سطح صلب للمركبات التي تجرى على عجلات ـ بالفكرة الجديدة، وكانت توجد فعلا منذ القرن السادس عشر سكك تصنع أحيانا من الحديد، ولكنها كانت تصنع غالبا من الخشب، وكانت وسيلة الجر معتمدة على الخيل.. وكانت هذه القطارات مقصورة إلى حد كبير على مناطق المناجم.

وبحلول عام ١٨٠٠م كانت الطاقة البخارية تقوم بتشغيل المصانع والآلات. وكان أول رجل فكر في استخدام قدرة البخار على خطوط الطرق، هو رالف آلان . ولسوء الحظ، فإن محاولته المبكرة لتسيير قاطرة بخارية على الخطوط لم تنته إلى شيء.

وفي عام ١٨٠٤م وضع الإنجليزي ريتشارد تريفيثيك قاطرته الأولى على القضبان في جنوب ويلز. وكان هذا أول تجميع ناجح بين خطوط السكك الحديدية والقطار البخاري في العالم. ولقد سيرت القاطرة في أثناء التجارب على قضبان لها شفاه، وكانت تجر عشرة أطنان من الحديد، وسبعين راكباً لمسافة ١٤ كيلومترا.

وفي عام ١٨١٤م قام المهندس البريطاني جورج ستيفنسون ببناء قاطرته الأولى المسماة "بلوخر"، والتي كانت تتضمن عدة تحسينات أساسية في تصميم المحرك البخاري، وبعد عام أتم ستيفنسون بناء قاطرة أخرى وسيرها على خطوط مناجم كيلنجورث لنقل الفحم من مخارج الأنفاق إلى شاطئ النهر حيث تنقله الصنادل، وكانت هذه القاطرة بمثابة الأساس لكل قاطرة بخارية بنيت منذ ذلك الحين.

وفي عام ١٨٢٥م قام ستيفنسون ببناء خط سكة حديد يصل بين ستوكتون ودارلنجتون، ومنها إلى شيلدون، وهى مسافة يبلغ طول خطها الحديدي حوالي ٤٠ كيلومترا . وكانت القاطرة البخارية في أول الأمر تقوم بنقل الفحم والبضائع وبسرعة متوسطة ٦ – ١٠ كيلو مترات في الساعة، ثم زودت القاطرة بعربات مناسبة لنقل الركاب.

وفي عام ١٨٢٩م بنى ستيفنسون قاطرته البخارية الشهيرة «روكيت»،، وسيرت على خط ليفربول – مانشيستر فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٣٠ وبلغت سرعتها ٥٨ كيلومترا في الساعة، وحصل بهذه الكيفية على أول رقم عالمي في السرعة . وكان هذا أول خط منتظم يستخدم فيه القطار البخاري، وأول مرفق يقدم خدمات منتظمة للركاب.

وتلا ذلك انتشار بناء خطوط السكك الحديدية وتطورها في أنحاء العالم، لما عرف من مدى سرعة القطارات البخارية في نقل الركاب والبضائع . وبنهاية القرن الثامن عشر كانت خطوط السكك الحديدية تغطى أوروبا وأمريكا وكندا وجزءاً من روسيا.

اختراع الهاتف

ودع (جراهام بل) الدنيا دون أن يحقق حلمه الحقيقي..
لقد وعد زوجته الحبيبة (مابل) أنه سيخترع لها جهازًا
يمكنها من الكلام ولكنه لم يفعل، وبقيت الزوجة من بعده
لتقضي البقية الباقية من حياتها كما هي صماء بكماء

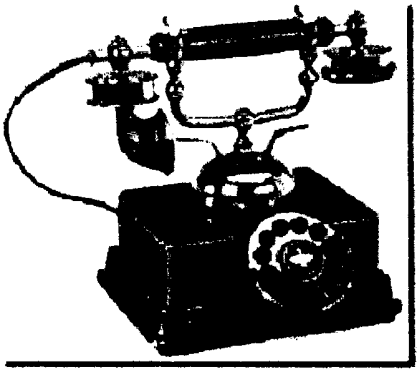

ودع (جراهام بل) الدنيا دون أن يحقق حلمه الحقيقي.. لقد وعد زوجته الحبيبة (مابل) أنه سيخترع لها جهازاً يمكنها من الكلام ولكنه لم يفعل، وبقيت الزوجة من بعده لتقضي البقية الباقية من حياتها كما هي صماء بكماء، وبقي العالم يدين لها بالفضل لأنها كانت السبب في اختراع زوجها للهاتف..

كانت والدة جراهام بل وزوجته من الصم، وكان والده وجده وأخوه من العاملين في مجال التخاطب وتعليم الصم النطق، وهو ما ساهم في تحديد مستقبله، ودفعه للاهتمام بالصوتيات وعلاج الصمم، حتى صار مدرساً لفسيولوجيا الصم والبكم.

وفي عام ١٨٧٠ هاجر (بل) لكندا ومنها إلى الولايات المتحدة، حيث أسس في ولاية بوسطن مدرسته للصم والبكم.

كانت المصادفة هي من قادت لاختراع التليفون، كان جراهام بل يجري كل مساء تجارب على ما يسمى بالتلغراف التوافقي، وهو عبارة عن نبضة تستخدم لإرسال عدة رسائل تلغرافية في وقت واحد وسلك واحد. وفي الثاني من يونيو عام ١٨٧٥م تعطلت إحدى القصبات الفلزية للبرق التوافقي، فجذب توماس واطسون، مساعد بل، القصبة لفكها فوصل الصوت إلى بل، الذي كان في غرفة مجاورة..

وفي العاشر من مارس عام ١٨٧٦م، كان بل يجري اختباراً على مُستقبِل جديد بينما جلس واطسون في غرفة أخرى ينتظر الرسالة، وفجأة سكب بل بعض الحمض على ملابسه من بطارية، مما جعله يصيح قائلاً: تعال هنا يا مستر واطسون، إنني أريدك.. فهرع واطسون إلى الغرفة صائحاً: «لقد سمعت كل كلمة تفوهت بها يا مستر بل وبوضوح تام».. وهكذا اخترع بل أول هاتف، ثم عرض اختراعه في المعرض المئوي في فيلادلفيا في يونيو من العام نفسه.

وفي أكتوبر من العام ذاته، أجرى بل وواطسون أول مكالمة بعيدة المدى ذات اتجاهين،عبر مسافة طولها ٣ كم.

لم تستخدم الهواتف الأولى لوحات مفاتيح، وكان كل جهازين يتصلان بزوج من الأسلاك الحديدية،وكان الشخص يتصل بالشخص الآخر بدفع مقبض مثبت على الهاتف، حيث كان ذلك يؤدي إلى تحريك مطرقة لإحداث صوت طرق يتحرك عبر خط الهاتف إلى الهاتف الآخر.. ومع ازدياد عدد الهواتف المستخدمة،كان كل هاتف جديد يوصل إلى بقية الهواتف،حيث كان توصيل ٥٠ هاتفاً فقط يتطلب أكثر من ١٠٠٠ توصيلة، وقد حلت لوحات المفاتيح هذه المشكلة بتجميع الأسلاك القادمة من كل منطقة معاً.

وقد افتتحت أولى شركات الهاتف في المملكة المتحدة،وهي شركة الهاتف المحدودة، أول مركز تبادل في لندن، في أغسطس ١٨٧٩م وبلغ عدد العملاء ١٠ مشتركين.

وافتتحت ايرلندا أول مركز تبادل هاتفي فيها في دبلن عام ١٨٨٠ م.

وبدأت أولى الخدمات الهاتفية في أستراليا في عام ١٨٧٨م.

وبدأت الخدمات الهاتفية في الهند عام ١٨٨١م.

وفي عام ١٨٩١م سجل المخترع الأمريكي ألمون ستروجر براءة اختراع نظام مفاتيح أوتوماتيكي، وكان طالب المكالمة يضغط على أزرار للحصول على الرقم، ثم يدير عموداً ليجعل الهاتف يرن.

اختراع آلة العرض السينمائي

لا يوضح التاريخ أيهما كان أسبق لاختراع آلة العرض السينمائي: أديسون أم الأخوان لوميير، فقد عرضا أفلامهما في الوقت نفسه..

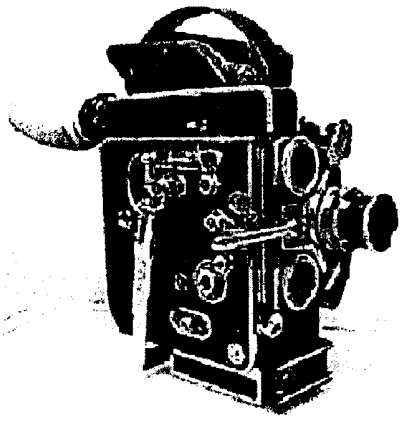

في يوم من أيام عام ١٨٩٥م قام المخترع الأمريكي توماس أديسون بعرض فيلمه القصير جدّاً «عربة السجناء» في آلة العرض السينمائي التي توصل لتصميمها، وسماها فيتاسكوب.

كان الفيلم عبارة عن تسجيل واقعي مدته الزمنية تقارب الدقيقتين في الأستوديو الذي أنشأه أديسون ومساعده والذي كان يشبه عربة السجناء .. ولذلك فقد سمي الفيلم بهذا الاسم..

وفي باريس في العام نفسه، وتحديداً في يوم ٢٨ ديسمبر بدأ الأخوان أوجست ولويس لوميير عرض أفلامهما القصيرة بآلتهما التي اخترعاها وسمياها(سينما توجراف)، ومنه اشتق اسم السينما.

ولم تكن الأفلام التي أنتجت حينها سواء في الساحة الفرنسية أو الأمريكية أو غيرهما إلا مجرد مقتطفات تسجيلية من الحياة الواقعية.. ورغم أن الإخوة لوميير كانت لهما محاولات جادة في تغيير النمطية التي سارت عليها هذه الأفلام من صيغتها التصويرية إلى صيغتها الروائية .. إلا أن هذه المحاولات لم تتكلل بالنجاح المطلوب .. ولم توفق لإيجاد الصيغة المناسبة..

لا يوضح التاريخ أيهما كان أسبق لاختراع آلة العرض السينمائي: أديسون أم الأخوان لوميير، فقد عرضا أفلامهما في الوقت نفسه، ولكن المؤكد أن السينما قد تطورت بعد ذلك، وانتقلت من المرحلة التسجيلية إلى المرحلة الروائية، ومن المرحلة الصامتة للمرحلة الناطقة، ومن مرحلة الأبيض والأسود إلى مرحلة الألوان، واليوم دخلت مرحلة الجرافيك، وصارت من أهم المعطيات الحضارية الحديثة.

اختراع الراديو

لم يكن يوماً عادياً ذلك اليوم الذي توصل
فيه العالم الإيطالي "جوليلمو ماركوني" إلى
فكرته الرائعة التي غيرت وجه التاريخ..

لم يكن يوماً عادياً ذلك اليوم الذي توصل فيه العالم الإيطالي «جوليلمو ماركوني» إلى فكرته الرائعة التي غيرت وجه التاريخ : استخدام الموجات الكهرومغناطيسية في إنتاج الإشارات الصوتية لمسافات بعيدة..

وقد ظل ماركوني يطور أبحاثه ودراساته على تلك الفكرة حتى توصل أخيراً إلى اختراع الراديو.

نجح ماركوني في اختراع جهاز خاص وذهب إلى إنجلترا وعرض الجهاز وسجله هناك وأنشأ شركة ماركوني لتصنيع الراديو، وهو أول رجل أرسل واستقبل بنجاح الإشارات الإشعاعية على مختلف المسافات.

وطور «ماركوني» اختراعه وفي سنة ١٩٠١م تمكن من إرسال الموجات عبر المحيط الأطلنطي، كما قام بتطوير الموجات القصيرة واكتشاف طريقة استخدام توصيلة الأرضي لزيادة مدى الإرسال في الراديو .

وفي سنة ١٩٠٩م حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عن اختراعه الراديو، وقد كان هذا الاختراع هو الأساس الذي قامت عليه صناعة البث الإذاعي والتليفزيوني فيما بعد، فكل هذه الأجهزة تستخدم الموجات في نقل الصوت والصورة عبر الأثير إلى المحطات الأرضية، التي بدورها تقوم بنقلها إلى محطات الإذاعة والتليفزيون ليسمعها ويشاهدها الجمهور.

وقد ظهرت أهمية هذا الاختراع بصورة صارخة عندما غرقت السفينة «ربيليك» واستطاعت الرسائل اللاسلكية أن تنقذ عدداً من ركابها، فقد استخدمت في طلب النجدة من السفن المجاورة.

كما نجح ماركوني في بعث رسائل لاسلكية بين أيرلندا والأرجنتين أي عبر مسافة ستة آلاف ميل، وهذه الرسائل جميعاً قد انتقلت بطريقة مورس أي نُقْطة وشَرْطه، وكان ماركوني يتصور أنه يمكن نقل الصوت أيضاً عبر هذه المسافات الهائلة، لكن ذلك لم يتحقق إلا عام ١٩١٥، ولم يعرف العالم الإذاعة على نطاق تجاري واسع إلا عام ١٩٢٠م.

اختراع الطائرة

لقد أثبت الأخوان رايت أنه لا حدود للخيال البـــشري.. وأن الإرادة الـــصادقة تـــصنع المستحيل..

في ١٧ ديسمبر عام ١٩٠٣م، تمكن الأخوان الأمريكيان أورفيل وويلبر رايت من الطيران بأول طائرة في التاريخ..

شغف الشابان الأمريكيان، أورفيل وويلبر بالطيران خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر الميلادي بجانب إدارتهما ورشة لتصنيع الدراجات تقع في بلدة دايتون بولاية أوهايو الأمريكية. قرأ الأخوان الكتب التي عثرا عليها والتي تتحدث عن الطيران .وبدآ عام ١٨٩٩م في بناء طائرتهما الشراعية. وفي العام التالي مباشرة شرعا في القيام بطلعات جوية لهذه الطائرات قرب كيتي هوك بولاية كارولينا الشمالية، وهي منطقة تتصف بسكون الريح وكثرة الكثبان الرملية. وبعد كثير من المحاولات، تمكنا من تنفيذ نظام يكفل التحكم في قيادة الطائرة أثناء الطيران.

وفي عام ١٩٠٣م، قام الأخوان رايت ببناء أول طائرة لهما وأطلقا عليها اسم فلاير. وزودت الطائرة بجناح مزدوج ومحرك احتراق داخلي قدرته ١٢ حصانًا (أي ما يعادل ٩ كيلو واط). صُنعت الأجنحة من الهياكل الخشبية المغطاة بقماش قطني، وكان طولها ـ من الطرف إلى الطرف ـ ١٢،٢٩م. ويكون قائد الطائرة فوق الجناح الأسفل، بينما يدفع المحرك المثبت على يمينه مروحتين خشبيتين مثبتتين خلف الجناح .وبدلاً من العجلات، زودت الطائرة بزحافات خشبية، وقبل كل شيء، زودت الطائرة بنظام التحكم الناجح الذي كان الأخوان رايت قد ابتكراه لطائرتهما الشراعية. ومن أهم ملامح هذا النظام، الجهاز الخاص بثني طرفي الجناح عند الحاجة للمحافظة على توازن الطائرة أثناء الطيران. ويتركب هذا الجهاز من سلك مربوط إلى طرفي الجناح متصل بحامل مثبت حول ردفي الطيار .ويستطيع الطيار تحريك ردفيه إلى طرف أحد الجناحين أو الآخر للمحافظة على اتزان الطائرة، وكذلك للتحكم في قيادتها في أثناء الطيران.

وكان أطول طيران حققه أورفيل رايت قد استغرق ٧٥ دقيقة على ارتفاع قارب المائة متر، وذلك قرب بلدة كيتي هوك،، وبعد عدة سنوات من طيرانهما الناجح تنبهت

الحكومة الأمريكية إلى أهمية الطيران وإمكاناته الواسعة. كما استقبل المخترعان في فرنسا استقبال الأبطال.

وقد شهد القرن العشرين ومنذ ذلك اليوم من شتاء عام ١٩٠٣ تقدماً هائلاً في حقل الطيران على مدى ما يزيد على ١٠٠ عام تطورت فيها الطائرات ودخلت عصر الإنتاج الصناعي بغزارة، وتنوعت أحجامها وأشكالها ومهامها والأعباء المكلفة بإنجازها، لدرجة أن محاولة جمع الطرازات التي أنتجت في العالم من الطائرات في كتاب أو مؤلف واحد يعد ضرباً من ضروب الخيال.

وقد احتفظ متحف العلوم والتكنولوجيا في مدينة كيتي هوك بطائرة الأخوين رايت، ليشاهد الزوار أول طائرة حلقت في بداية القرن العشرين وفتحت الباب لعالم الطيران.

اغتيال أرشيدوق النمسا

الشرارة المنتظرة لانفجار الحرب العالمية الأولى

دوق النمسا فرانز فرديناند

لم يؤد أي حادث اغتيال إلى رعب ودمار مثلما أدى لذلك حادث اغتيال دوق النمسا فرانز فرديناند في ٢٨ يونيو ١٩١٤م، فقد اشتعلت من بعده نيران الحرب العالمية الأولى والتي مهدت لقيام الحرب العالمية الثانية.

في تلك الفترة التي شهدت حادث الاغتيال كانت النمسا والمجر إمبراطورية واحدة لها سيادتها على بعض الدول والأقليات مثل الصرب والبوسنة والكروات، وذلك تحت حكم الإمبراطور فرانز جوزيف، البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً. وكان فرديناند هو ولي العهد والوريث لعرش تلك الإمبراطورية الواسعة.

ولم يكن فرديناند يحظى بشعبية وقبول لدى الجماهير فقد كان فظّاً غليظ القلب معارضاً بشدة لحرية وسيادة تلك الأقليات والدول الصغيرة. وقد أثار ذلك ضده الصرب الذين كانوا يأملون في إقامة دولة مستقلة لها سيادتها، بالاتحاد مع الصرب الذين يعيشون داخل الإمبراطورية النمساوية المجرية. وقد خاب أملهم في تحقيق ذلك خاصة بعدما تولى فرديناند قيادة الشؤون العسكرية للإمبراطورية. ومن ناحية أخرى، كان زواج فرديناند من زوجته صوفيا التشيكية الأصل مرفوضاً، لأن ذلك يعنى حرمان أبنائه من توارث العرش مما زاد سخط البعض عليه.

في ذلك الوقت ومع تزايد قوة ولاية صربيا انتشرت إشاعة مفادها أن ولي عهد النمسا يفكر في أن يستبدل دولته التي تقوم على أساس عنصري الألمان والمجر دولة تقوم على أساس عناصر الألمان والمجر والصرب، ما من شأنه أن يقضي على أحلام الصرب في إنشاء دولة تضمهم وتكون زعيمة لدول البلقان، لأنه لو نفذ ذلك القرار لذاب الصرب وسط الألمان والمجر ولذابت معهم قوميتهم وهويتهم الصربية.

كانت إمبراطورية النمسا والمجر قد ضمّت بالقوة إقليمي البوسنة والهرسك إلى ممتلكات الإمبراطورية عام ١٩٠٨م، وأعلنت نيّتها ضم الصرب أيضاً، مما أثار سخط القوميين الصرب الذين كانوا ينادون بدولة صربية مستقلة تضم الصرب والبوسنة والهرسك.

وفي الصرب تكونت بعض الجماعات السرية التي خططت لاغتيال الدوق لأجل تحقيق آمالهم في توحيد الصرب، وكان من أبرزها جماعة اليد السوداء التي تكونت عام ١٩١١م، وكانت تنتظر الفرصة لقتل الدوق.

ولما علم المتآمرون الذين ينتمون لتلك الجماعة بشروع فرديناند في زيارة سراييفو (عاصمة البوسنة) لحضور بعض العروض العسكرية هناك، بدءوا يخططون لحادث الاغتيال الذي اشترك فيه أربعة من المتآمرين.

ففي يوم الاغتيال مضى موكب الدوق إلى مجلس مدينة سراييفو، وكان فرديناند يجلس بجوار زوجته صوفيا في عربة خاصة مكشوفة. وأثناء مرور الموكب في شوارع سراييفو متجها إلى مجلس البلدية، لم يكن أحد يتوقع أن هناك بعض القتلة الذين اندسوا وسط الجماهير المحتشدة على الجانبين لإطلاق الرصاص على الدوق.

وتذكر إحدى الروايات أن هؤلاء القتلة كان عددهم أربعة، فشل الأول والثاني منهم في إطلاق الرصاص على الدوق ربما لعدم توافر الفرصة المناسبة. لكنه باقتراب الموكب من مجلس البلدية، ألقى المتآمر الثالث قنبلة على سيارة الدوق فارتطمت بها واندفعت للوراء وانفجرت في إحدى سيارات الحراسة، فأصابت بعض رجال الشرطة بإصابات شديدة .

واستطاع رجال الأمن أن يحددوا ذلك القاتل ويقبضوا عليه.

استكمل الموكب مسيرته تجاه مجلس المدينة بعدما زال الخطر. وقرر الدوق زيارة حراسه بالمستشفى متخذاً طريقاً آخر وشاءت الأقدار أن يتواجد المتآمر الرابع بالقرب من المسار الجديد حيث أطلق رصاصتين قتلت الدوق وزوجته .

اعتبرت النمسا حادثة الاغتيال مدبرة من حكومة صربيا، وتضامنت معها ألمانيا، واتخذت كلتا الدولتين الاستعماريتين من الاغتيال غطاء لتبرير أطماعهما الاستعمارية..

كان اغتيال الأرشيدوق هو الشرارة التي أشعلت نار الحرب أما الأسباب الحقيقية فكانت متعددة ومعقدة..

فقد نتج عن التحولات الاقتصادية التي عرفتها أوربا خلال القرن ١٩، تزايد الحاجة إلى الأسواق والمواد الأولية. ونهجت الدول الأوربية سياسة الحماية الجمركية، فامتدت المنافسة إلى البحث عن منافذ جديدة عن طريق التوسع الاستعماري، خاصة أن أغلب المستعمرات كانت تقتسمها آنذاك فرنسا وبريطانيا، ما دفع إلى السباق نحو التسلح والتحالفات العسكرية، رغم استعمال الطرق الدبلوماسية التي فشلت في حل النزاعات بين الدول الاستعمارية.

كانت هناك نزاعات دبلوماسية ناتجة عن التنافس حول المستعمرات. وتمثلت في عدة قضايا منها: قضية الكونغو؛ حيث كان مجالاً اقتصاديًّا تستغله فرنسا وإنجلترا والبرتغال. وأصرت ألمانيا على مزاحمتهم فيه، فاندلعت أزمة سياسية، انعقد على إثرها مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥م الذي أقر حرية التجارة في الكونغو. كما أن حصول ألمانيا على امتيازات داخل الإمبراطورية العثمانية شكل خطراً على المصالح الفرنسية والإنجليزية والروسية. ونافست ألمانيا كلا من فرنسا وإسبانيا في المغرب. وتجلى ذلك في زيارة غليوم الثاني لطنجة وتدويل القضية المغربية وانعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء. لكنه لم يحقق أطماع ألمانيا فهددت باستعمال القوة، مما دفع فرنسا إلى التنازل لها عن جزء من الكونغو، مقابل تخليها عن المغرب.

وبعد فشل الطرق الدبلوماسية في حل النزاعات بين الدول المتنافسة، أصبحت أغلب الدول تشجع الخيار العسكري وتتسابق نحو التسلح، مما دفع إلى التحالفات العسكرية التي مهدت إلى الحرب. وأهمها التحالف الثلاثي الذي عقد بين ألمانيا والنمسا المجر وإيطاليا في سنة ١٨٨٢م. ومعاهدة ١٨٩٢م الثنائية بين روسيا وفرنسا، التي انضمت إليها بريطانيا في سنة ١٩٠٧م فتكون ما سمي بالوفاق الثلاثي (الذي انضمت إليه إيطاليا في سنة ١٩١٥م).

كذلك عرفت أوربا موجة من النزاعات القومية قادتها إلى الحرب. وكانت منطقة البلقان مسرحاً لهذه النزاعات بين صربيا التي تمثل الشعوب السلافية وتسعى إلى

توحيدها، وتساندها في ذلك روسيا، وبين الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية اللتين سعيتا إلى إبقاء المنطقة خاضعة لنفوذهما. وللحد من طموحات صربيا والشعوب السلافية، قامت النمسا في سنة ١٩٠٨ بضم إقليم البوسنة والهرسك، مما أدى إلى أزمة سياسية سميت بالأزمة البلقانية الأولى. وقامت أزمة ثانية في سنة ١٩١٢م بسبب الحرب التي شنتها الدول البلقانية المدعمة من طرف روسيا على الإمبراطورية العثمانية.

لذا فقد استغلت النمسا حادث اغتيال ولي عهدها الذي وقع في البوسنة لتصفية حساباتها مع صربيا. واشترطت عليها القضاء على كل حركة معادية للنمسا، وأن تشارك الأخيرة في محاكمة المعتقلين الصرب. ورفضت صربيا تلك الشروط، فأعلنت النمسا الحرب على صربيا في ٢٧ يوليو ١٩١٤. وتدخلت روسيا حليفة صربيا وأعلنت الحرب ضد النمسا، ثم أعلنت ألمانيا الحرب ضد روسيا وفرنسا. وهكذا اندلعت الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى سنة ١٩١٨م.

انقسمت الدول المتحاربة إلى دول الحلفاء وهي: بريطانيا، وفرنسا،وروسيا ثم إيطاليا في١٩١٥ والولايات المتحدة في ١٩١٧. ودول المحور وهي: ألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا التي انضمت إليهم في١٩١٥. ومرت الحرب بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى:

تميزت بانتصارات سريعة للجيش الألماني الذي اكتسح بلجيكا وتوغل في شمال وشرق فرنسا. لكنه واجه مقاومة عنيفة منعته من الدخول إلى باريس، فاضطر إلى التوقف. ثم اتجه الجيش الألماني للواجهة الشرقية وألحق هزائم بروسيا. وبقيت بريطانيا بعيدة عن هجمات الألمان نظراً لموقعها وأهمية قوتها البحرية.

المرحلة الثانية:

من نوفمبر ١٩١٤ إلى١٩١٧: خلالها تمركزت الجيوش في مواقعها وبدأت حرب الخنادق. واتضح من خلالها أن الحرب ستطول مدتها، ولن يكسبها إلا القوي

اقتصاديًّا والقادر على الحصول على الإمدادات، مما دفع الدول الاستعمارية إلى تكثيف استغلالها للمستعمرات.

المرحلة الثالثة:

تميزت بقيام الثورة الاشتراكية في روسيا سنة ١٩١٧، وانسحابها من الحرب، ودخول الولايات المتحدة إلى جانب دول الوفاق التي بدأت تحقق انتصارات متتالية، في الوقت الذي بدأ فيه التراجع الألماني وباقي دول المحور، مما دفع ألمانيا إلى التوقيع على معاهدة الهدنة في ١١ نوفمبر١٩١٨. وبذلك انتهت الحرب لصالح الحلفاء.

غيرت الحرب العالمية وجه العالم بنتائجها التي تمثلت في:

ـ فقدت أوربا سيطرتها الاقتصادية على العالم:

بسبب خسائرها المادية والبشرية الهامة، حيث قدر عدد القتلى بحوالي ثمانية ملايين نسمة. وعدد الجرحى بعشرين مليون نسمة. وأصابت الحرب الفئة الشابة مما أثر على النمو السكاني واليد العاملة، ودفع إلى تشغيل النساء.

وأنفقت الدول المتحاربة أموالا باهظة على الحرب(ألمانيا٤٠ مليار دولار+ فرنسا ٢٥مليار دولار). وخربت الحرب عدة منشآت اقتصادية كالمعامل والمزارع والمناجم والطرق، فتدهور الإنتاج الزراعي والصناعي، مع صعوبة الانتقال من صناعة حرب إلى صناعة سلم. ودفع ذلك إلى الزيادة في استغلال المستعمرات ونهج سياسة القروض خاصة من الولايات المتحدة. وتدهور مستوى معيشة السكان نتيجة التضخم المالي وارتفاع الأسعار، ما عدا فئة الوسطاء التي استفادت من الحرب.

وفقدت أوربا مكانتها الاقتصادية لصالح الدول التي استفادت من الحرب كاليابان التي طورت صناعاتها وخلفت أوربا في أسواق جنوب شرق آسيا، والولايات المتحدة التي تطور إنتاجها الفلاحي بـ٣٠٪ والصناعي بـ ٤٠ ٪ مابين ١٩١٣-١٩١٧. وارتفعت قيمة الدولار حيث أصبحت الولايات المتحدة تملك نصف الرصيد العالمي من الذهب، وبذلك بدأت انطلاقة هيمنتها على العالم الرأسمالي.

ـ التحولات السياسية:

تمثلت في انهيار الإمبراطوريات الكبرى وظهور دول جديدة وتشكيل عصبة الأمم التي توجت معاهدات السلام.

(أ) ـ انهيار الإمبراطوريات الكبرى:

وهي الإمبراطورية الألمانية التي تخلى غليوم الثاني عن العرش في١٩١٨، فأصبحت جمهورية.

والإمبراطورية العثمانية التي فقدت معظم أراضيها في أوربا والمشرق العربي.

والإمبراطورية الروسية التي تغير فيها نظام الحكم بعد الثورة الاشتراكية سنة ١٩١٧. والإمبراطورية النمساوية المجرية، حيث تم فصل المجر عن النمسا.

وتغيرت خريطة أوربا بظهور دول جديدة، هي: بولونيا، ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا.

وفي المستعمرات ظهر الوعي بضرورة التحرر. وتسبب التدهور الاقتصادي في انتشار الأفكار الاشتراكية، ولجوء اليائسين إلى المنظمات المتطرفة كالفاشية بإيطاليا والنازية بألمانيا.

(ب) ـ نتائج مؤتمر السلام:

عكست نتائج مؤتمر السلام مصالح الدول المنتصرة. عقد المؤتمر بقصر فرساي بباريس١٩١٩، تضاربت فيه الآراء والمواقف خاصة بين فرنسا التي تريد إضعاف ألمانيا بفرض شروط قاسية عليها، وبريطانيا التي تعارض ذلك لأنه في صالح فرنسا، وحتى لا تهيمن على أوربا. ورفضت مطالب إيطاليا الترابية في تركيا. ورغم ذلك خرج المؤتمر بعدة معاهدات فرضت على الدول المنهزمة وأشهرها معاهدة فرساي التي كانت شروطها قاسية على ألمانيا، وسماها الألمان بالسلم المفروض.

(ج) ـ ظهور عصبة الأمم:

تقرر إنشاؤها بناء على بنود الرئيس الأمريكي ويلسون التي عرضها في مؤتمر السلام. وأهم أهدافها حل النزاعات بالطرق السلمية ونزع السلاح، ومنع المعاهدات السرية، وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

لكن العصبة لم تحظ بمشاركة جميع الدول حيث رفضت الدول المنتصرة مشاركة الدول المنهزمة والاتحاد السوفييتي. كما صوت الكونجرس الأمريكي ضد انضمام الولايات المتحدة. وهيمنت فرنسا وبريطانيا على عصبة الأمم لتحقيق مصالحهما الاستعمارية. واتخذت العصبة مقرها في جينيف، وتشكلت من هيئات مختلفة منها الجمعية العامة والمجلس الأعلى والأمانة العامة ومحكمة العدل الدولية (لاهاي) والمكتب الدولي للعمل.

انتصار الثورة البُلْشُفية

هم التيار الرئيسي الذي نجم عن انقسام حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي. وكان المؤتمر الثاني للحزب الذي عقد عام ١٩٠٣ قد شهد انقسام الحزب إلى تيار البلاشفة (وتعني الأغلبية) الذين تبنوا الحل الثوري، وتيار المناشفة (الأقلية) الذين تبنوا الحل السلمي، وفي النهاية غدا البلاشفة نواة الحزب الشيوعي السوفييتي.

الثورة البلشفية أو ثورة أكتوبر ١٩١٧م كانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية على القيصر التي وقعت في فبراير من العام نفسه ١٩١٧م، وقد قادها البلاشفة (تيار ناتج عن انقسام حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي) تحت إمرة فلاديمير لينين وليون تروتسكي بناء على أفكار كارل ماركس؛ بغرض إقامة دولة شيوعية . وهي تعد أول ثورة شيوعية في القرن العشرين الميلادي.

كانت ثورة فبراير قد أجبرت القيصر على التخلي عن العرش في مارس ١٩١٧م، وكانت سياسات الحكومة الروسية المؤقتة، التي تولت الحكم، قد دفعت البلاد إلى حافة الكارثة. تزايدت الاضطرابات في الصناعة والنقل، وانخفض إجمالي الإنتاج الصناعي في عام ١٩١٧ بنسبة تزيد على ٣٦ في المائة عما كان عليه في العام ١٩١٦. وفي الخريف، كان ما يصل إلى ٥٠ في المائة من جميع الشركات تم إغلاقها في جبال الأورال، ودونباس، والمراكز الصناعية الأخرى، مما أدى إلى ارتفاع معدلات البطالة. وفي الوقت نفسه، ارتفعت تكاليف المعيشة بشكل حاد. وتراجعت الأجور الحقيقية للعمال نحو ٥٠ في المائة عما كانت عليه في عام ١٩١٣. وكانت ديون روسيا في أكتوبر ١٩١٧م قد ارتفعت إلى ٥٠ مليار روبل، وشكلت الديون المستحقة للحكومات الأجنبية أكثر من ١١ مليار روبل.

كان البلد يواجه خطر الإفلاس..

في مايو ١٩١٧م بدأت مظاهرات العمال والجنود تحت قيادة البلاشفة، منددة باستمرار اشتراك روسيا في الحرب العالمية، ومطالبة بمزيد من السلطة للسوفيتات (الهيئات الممثلة للعمال في روسيا).

وتطورت الأمور حتى وصلت لذروتها يوم السابع من نوفمبر ١٩١٧م (الموافق ٢٥ أكتوبر بالتقويم الروسي اليولياني)، فقد تمكن المتظاهرون بقيادة البلاشفة من

السيطرة على المرافق الحيوية في العاصمة، وليلاً تمكنوا من الاستيلاء على القصر الشتوي للقيصر واعتُقل وزراء الحكومة المؤقتة، وزجّ بهم في قلعة بطرس وبولس. أما رئيس الحكومة كيرينسكي فاختفى وهرب إلى خارج البلاد.

وهكذا تمكن البلاشفة الشيوعيون من السيطرة على روسيا، وكان من نتائج نجاح الثورة، إعدام القيصر وجميع الأسرة الملكية، والانسحاب من معسكر الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، والتحول للنظام الشيوعي، وبداية حقبة الاتحاد السوفييتي الذي صار القطب الثاني عالمياً منذ خمسينيات القرن العشرين..

تصريح بلفور

كان نابليون بونابرت أول سياسي غربي نادى بعودة اليهود لفلسطين، وذلك أثناء الحملة التي قام بها على الشام سنة ١٧٩٩م انطلاقاً من مصر..

آرثر بلفور

الصهيونية هي حركة سياسية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر داعية لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين..

كان نابليون بونابرت أول سياسي غربي نادى بعودة اليهود لفلسطين، وذلك أثناء الحملة التي قام بها على الشام سنة ١٧٩٩م انطلاقاً من مصر، وقد أدرك يومها ضرورة وجود كيان استعماري في فلسطين موالٍ له، ويخلص أوربا في الوقت نفسه من اليهود، فأطلق نداءه ليهود العالم بالتوجه لفلسطين وإعادة بناء مملكة القدس القديمة..

التقطت بريطانيا المشروع الصهيوني، وسعت لتنفيذ تلك الفكرة لتحقق أكثر من هدف، فهي ستغرس جسماً غريباً في بلاد العرب يمنع توحدهم ويستنزف طاقتهم طوال الوقت، ويكون حامياً للمصالح الاستعمارية البريطانية في الوقت ذاته، وفي الوقت نفسه تتخلص أوربا من اليهود الذين صاروا عبئاً حقيقيًّا عليها..

وفي بازل ١٨٩٧م انعقد المؤتمر الصهيوني الأول تحت إدارة تيودور هرتزل، ذلك الصحفي النمساوي الذي نذر حياته للقضية الصهيونية، وفي المؤتمر تم تدشين المنظمة الصهيونية العالمية، لتنفيذ الهدف الصهيوني، وهو إقامة وطن لليهود في فلسطين..

اتخذت المنظمة لنفسها عدة مؤسسات وأجهزة داخلية تقوم على تنفيذ هدف إقامة الدولة، من هذه الأجهزة رئيس المنظمة ونائب الرئيس ومكتب التوجيه المركزي واللجنة التنفيذية والمجلس العام (شبه التنفيذي شبه التشريعي) والمؤتمر الصهيوني وهو السلطة التشريعية العليا في الحركة الصهيونية.

أما الأجهزة المحلية في المنظمة في كل بلد على حدة فقد ترك تقرير شكلها النهائي وشكل العضوية فيها للظروف المحلية السائدة في ذلك البلد.

فتحت المنظمة باب العضوية فيها لكل من يؤمن بالأفكار الصهيونية ويعمل على الإسراع بتحقيق أماني وتطلعات الشعب اليهودي، ونمت هذه العضوية بشكل كبير، ففي المؤتمر الصهيوني السادس الذي انعقد عام ١٩٠٣م وصل عدد أعضائها إلى ٦٠٠ عضو، وكان عدد الجمعيات الصهيونية ١٥٧٢ جمعية موزعة على بلدان مختلفة.

سارت المنظمة في عملها في اتجاهين متوازيين: السعي لنيل موافقة القوى الكبرى على إيجاد موطئ قدم لليهود في فلسطين، وفي الوقت نفسه العمل بكل جدية على تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين وزيادة المستوطنات بها.

وإزاء رفض الدولة العثمانية منح هرتزل ورفاقه صك الوجود الشرعي في فلسطين، كانت بريطانيا هي القوة الكبرى الرئيسية التي توجه لها الصهاينة، والتصقوا بها، وتوافقت معها مصالحهم، وفي هذا الإطار صدر تصريح وزير الخارجية البريطاني مستر آرثر جيمس بلفور، المشهور بـ«وعد بلفور»..

ففي الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧م أرسل مستر بلفور رسالة إلى اللورد روتشيلد بصفته رئيس الاتحاد الصهيوني العالمي، قائلاً فيها:

«يسرني أن أبعث إليكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك، بالتصريح الذي ينم عن العطف على أماني اليهود الصهيونيين والذي رفع إلى الوزارة ووافقت عليه: إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي بفلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية مع البيان الجلي بأن لا يفعل شيء يضر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن، ولا الحقوق أو المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى»..

كان ذلك هو أول إعلان بريطاني صريح عن تأييد الفكرة الصهيونية، وتمثلت خطورته في أن بريطانيا ستفرض وصايتها وسيطرتها على فلسطين بعد ثلاث سنوات عبر قرار انتدابها على فلسطين، وستعمل خلال فترة الانتداب على تسهيل هجرة اليهود

لفلسطين وإنشاء المستوطنات، ولن تنهي انتدابها إلا بعد اطمئنانها على نجاح المشروع الصهيوني، وإعلان الدولة الصهيونية في مايو ١٩٤٨م.

كان تصريح بلفور بمثابة الاعتراف البريطاني الرسمي بالمشروع الصهيوني، وستعمل بريطانيا خلال ثلاثين عاماً على رعاية ذلك المشروع الذي غير وجه بلاد الشرق العربي، وصار عاملاً رئيسيًّا في صنع الأحداث داخل بلاد العرب حتى اليوم.

إلغاء الخلافة

لم يكن أتاتورك ليقدم على هذا القرار الخطير، لولا أن ساعدته الأحداث التي تعاقبت على تركيا في تلك الحقبة..

أتاتورك

في الثالث من مارس سنة ١٩٢٤م كانت الصدمة الكبرى التي هزت أرجاء العالم الإسلامي، فقد أعلن رئيس الجمهورية التركية مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الخلافة العثمانية، ليصبح العالم الإسلامي بغير خليفة بعد ثلاثة عشر قرناً من الزمان تعاقب فيها الخلفاء الفعليون (والإسميون) على الأمة..

لم يكن أتاتورك ليقدم على هذا القرار الخطير، لولا أن ساعدته الأحداث التي تعاقبت على تركيا في تلك الحقبة، فحين نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م كان الضابط مصطفى كمال أتاتورك قد حقق شهرة كبيرة داخل تركيا، لبطولاته في الحروب التركية في ألبانيا وفي ليبيا في أثناء الحرب التركية الإيطالية ١٩١١-١٩١٢م.

وحين اندلعت الحرب العالمية كانت تركيا في صف النمسا وألمانيا، وقد صار الكولونيل مصطفى كمال بطلاً وطنيًّا عندما حقق انتصارات متلاحقة في حملة الدردنيل عام ١٩١٥م، ورقي إلى رتبة جنرال عام ١٩١٦م وعمره ٣٥ سنة، وقام بتحرير مقاطعتين رئيستين في شرق أنطاليا والقوقاز في نفس السنة. وفي السنتين التاليتين خدم كقائد للعديد من الجيوش العثمانية في فلسطين وحلب وحقق نصراً رئيسيًّا آخر عندما أوقف تقدم الأعداء عند حلب، لكن انتهت الحرب باضطراره للانسحاب من الشام للحفاظ على أرواح بقايا قواته غير المسلحة معدومة الإمدادات من هجمات قوات الثورة العربية وقوات إنجلترا.

وفي ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨م استسلمت الدولة العثمانية للحلفاء وأقرت بخسارتها للحرب، وفي ١٩ مايو ١٩١٩م وصل مصطفى كمال في ميناء سامسون على البحر الأحمر، مكلفاً بمهمة حل بقايا الجيش العثماني المتبقية تنفيذا لاتفاقية الهدنة، ولكنه قام بتجميع الضباط وحشد الجنود ليشن حرباً لتحرير تركيا من احتلال بريطانيا وفرنسا واليونان وإيطاليا، ومن تغول الأرمن، وقد تجمع حوله أغلب ضباط الجيش التركي، وبدأ حرب التحرير، معتبراً السلطنة قد خانت الوطن بقبول الاستسلام.

قاد أتاتورك جيوشه في الحرب على عدة جبهات، واستطاع الانتصار في ثلاث حروب : الحرب التركية الأرمنية والحرب التركية الفرنسية والحرب التركية اليونانية، وفي ٢٣ إبريل ١٩٢٠ تأسس مجلس الأمة الكبير وانتخب أتاتورك لرياسته، وفي ٣١ أغسطس ١٩٢٢م تمكنت الجيوش التركية من تحرير أراضي تركيا الآسيوية، وفي يوليو عام ١٩٢٣، وقعت الحكومة الوطنية معاهدة لوزان مع بريطانيا، وفرنسا ومملكة اليونان وإيطاليا وآخرين لتنسحب بواقي قوات الاحتلال نهائيًا في أغسطس ١٩٢٣م، وفي التاسع والعشرين من أكتوبر التالي أُعلن النظام الجمهوري في تركيا، وصار أتاتورك أول رئيس للجمهورية، وفي مارس التالي ألغى الخلافة نهائيًا.

في حواره لمجلة التايم في العام ١٩٣٠م، قال أتاتورك إنه ألغى الخلافة لأنها انتهت واقعيًا، وقد صار أغلب الولايات العربية المسلمة لها دساتير وأسر حاكمة، وسبق لأكثرهم أن قاتلوا العثمانيين لإخراجهم من بلادهم، لذا قد أصبحت الخلافة حبراً على ورق وليست خلافة حقيقية كما كانت على أيدي السابقين مثل سليمان القانوني ومحمد الفاتح، في الوقت الذي تمثل فيه عبئاً ماليًا وسياسيًا على تركيا.

أحدث إلغاء الخلافة صدى كبيراً في العالم، وجرت محاولات عربية وإسلامية في مصر والحجاز والهند لإعادتها، وظهرت جماعات إسلامية كبرى تأثر منشئوها بحل الخلافة الإسلامية، مثل جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وطرحت مشروعات بديلة لم تنفذ، ولا تزال عودة الخلافة حلماً يراود الإسلاميين حتى اليوم.

اكتشاف البنسلين

بداية عصر المضادات الحيوية

ولد ألكسندر فلمنج في لوتشفيلد بإسكتلندا سنة ١٨٨١م. وقد بدأ حياته العملية كما يبدأها غيره من الشبان الذين انتهوا من دراستهم، فما كاد يتخرج من الجامعة وينال جائزة الطب حتى التحق بإحدى الوظائف الحكومية فعمل طبيباً في أحد المستشفيات. وجاءت الحرب الأولى وأسهم فيها الدكتور الكسندر فلمنج بطبه فكان يقتحم خطوط النار ويعرض حياته للخطر ليقوم بواجبه، ولكنه كثيراً ما كان يصل إلى المصابين فيجد جراحهم قد تسممت بسبب مرور الوقت والأتربة والعوامل الجوية وغيرها. انتهت الحرب وعاد فلمنج إلى مستشفاه بعد أن تكشف له أن طب ذلك اليوم لم يبلغ مبلغ الكمال في علاج التسممات الناتجة عن الجراح، فانصرف إلى البحث وإجراء التجارب، بادئاً في البحث عن ماهية المكروبات وكيف تتوالد في الجسم الإنساني وأخيرا توصل إلى اكتشاف مادة اللايزوزيم ذات الأثر المدمر لكثير من المكروبات، وكان هذا الاكتشاف الجديد بارقة أمل أضاءت له الطريق.

أما اكتشافه العظيم فقد حدث في أحد أيام سنة ١٩٢٨، فقد تعرضت إحدى مزارع البكتريا للهواء وتسممت. ولاحظ فلمنج أن البكتريا تذوب حول الفطريات في المزرعة التي أعدها في المعمل. واستنتج من ذلك أن البكتريا تفرز مادة حول الفطريات، وأن هذه المادة قاتلة للبكتريا العنقودية. هذه المادة أطلق عليها اسم البنسلين أي العقار المستخلص من العفونة، وقد تأكد أن هذه المادة ليست سامة للإنسان أو الحيوان.

ونشرت نتائج أبحاث فلمنج سنة ١٩٢٩م ولم تلفت النظر أول الأمر. وأعلن فلمنج أن هذا الاكتشاف من الممكن أن تكون له فوائد طبية خطيرة. ولكنه لم يستطع أن يبتكر طريقة لاستخلاص هذه المادة أو تنقيتها.

وظل هذا العقار السحري عشر سنوات دون أن يستفيد منه أحد. وأخيرا في سنة ١٩٣٠م قرأ اثنان من الباحثين البريطانيين هما (هوارد فلورى) و(أرنست تشين)

ما كتبه فلمنج عن اكتشافه الخطير، وأعاد الاثنان نفس التجارب، وجربا هذه المادة على حيوانات المعمل. وفي سنة ١٩٤١ استخدما البنسلين على المرضى. وأثبتت تجاربهما أن هذا العقار الجديد في غاية الأهمية.

و بمساعدة من حكومتي أمريكا وبريطانيا تسابقت الشركة الطبية على استخلاص مادة البنسلين بكميات ضخمة. وتوصلت هذه الشركات إلى طرق أسهل لاستخلاص المادة السحرية وإنتاج كميات هائلة وطرحها في الأسواق. واستخدم البنسلين أول الأمر لعلاج مرضى الحرب... وفي سنة ١٩٤٤م أصبح في متناول المدنيين في بريطانيا وأمريكا، وعندما انتهت الحرب في سنة ١٩٤٥ أصبح البنسلين في خدمة الجميع. وقد أدى اكتشاف البنسلين إلى استخدام الكثير من المضادات الحيوية واكتشاف عقاقير سحرية أخرى. ولا يزال البنسلين هو أكثر هذه العقاقير انتشارًا حتى يومنا هذا.

وترجع أهمية البنسلين في أنه لا يزال حتى الآن يُستخدم لأغراض طبية كثيرة. فيستخدم في علاج الزهرى والسيلان والحمى القرمزية والدفتريا والتهابات المفاصل والالتهاب الرئوي وتسمم الدم وأمراض العظام والسل والغرغرينة وغيرها. ولا خوف من الإسراف في استخدام البنسلين، وإن كان هناك عدد قليل جدًّا من الناس لديهم حساسية ضد استخدامه.

الخميس الأسود

بـدأت الكارثـة يـوم الخمـيس الأسـود، ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩م

بدأت الكارثة يوم الخميس الأسود، ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩م، ففي بورصة وول ستريت الأمريكية طرح للبيع في ذلك اليوم أكثر من ١٣ مليون سهم، مما جعل العرض أعلى من الطلب، واتجهت الأسهم نحو القاع، فعمت الفوضى في المكان حيث بدأت أموال المستثمرين تتبخر، وازداد الأمر سوءًا حين ازداد عدد الأسهم المعروض إلى ٣٠ مليون سهم في الأيام التي تلت، الأمر الذي جعل أسعار الأسهم بلا قيمة، وحمل المستثمرين ديوناً ضخمة للبنوك عجزوا عن سدادها، ما أدى لإفلاس البنوك..

كان انهيار البورصة الأمريكية بداية لأزمة اقتصادية عالمية لم تفرق بين الدول الغنية والفقيرة، وانخفضت التجارة العالمية ما بين النصف والثلثين، كما انخفض متوسط الدخل الفردي وعائدات الضرائب والأسعار والأرباح، كما توقفت أعمال البناء تقريباً في معظم الدول، وتأثر المزارعون بهبوط أسعار المحاصيل بحوالي ٦٠٪ من قيمتها.

وكانت المناطق المعتمدة على قطاع الصناعات الأساسية كالزراعة والتعدين وقطع الأشجار هي الأكثر تضرراً، وذلك لنقص الطلب على المواد الأساسية بالإضافة إلى عدم وجود فرص عمل بديلة. كما أدت الأزمة إلى توقف المصانع عن الإنتاج، ونتج عنها أن أصبحت عائلات بكاملها تنام في أكواخ من الكرتون وتبحث عن قوتها في القمامة. وقد سجلت دائرة الصحة في نيويورك أن أكثر من خُمس عدد الأطفال يعاني من سوء التغذية.

يعود حدوث الأزمات الاقتصادية في الدول الرأسمالية إلى أن النظام الاقتصادي الحر يرفض أن تتدخل الدولة للحد من نشاط الأفراد في الميدان الاقتصادي، فأصحاب رؤوس الأموال أحرار في كيفية استثمار أموالهم وأصحاب الأعمال أحرار فيما ينتجون كمًّا ونوعاً. وهذا ما يمكن أن نسميه فقدان المراقبة والتوجيه. وتستتبع الحرية الاقتصادية حرية المنافسة بين منتجي النوع الواحد من السلع . كما أن إدخال الآلة في العملية الاقتصادية من شأنه أن يضاعف الإنتاج ويقلل من الحاجة إلى الأيدي

العاملة. وبالتالي فإن فائض الإنتاج يحتاج إلى أسواق للتصريف. وعندما تختل العلاقة بين العرض والطلب في ظل انعدام الرقابة تحدث فوضى اقتصادية تكون نتيجتها الحتمية أزمة داخل الدولة الرأسمالية.

ومن أسباب الأزمة في الولايات المتحدة الأمريكية عدم استقرار الوضع الاقتصادي، وسياسة كثافة الإنتاج لتغطية حاجات الأسواق العالمية خلال الحرب العالمية الأولى، بسبب توقف المصانع في بعض الدول الأوروبية بعد تحولها إلى الإنتاج الحربي، وعودة الكثير من الدول إلى الإنتاج بعد انتهاء الحرب والاستغناء عن البضائع الأمريكية. لهذه الأسباب تكدست البضائع في الولايات المتحدة وتراكمت الديون وأفلس الكثير من المعامل والمصانع وتم تسريح العمال وانتشرت البطالة وضعفت القوة الشرائية وتفاقمت المشاكل الاجتماعية والأخلاقية.

إضافة إلى ذلك فقد أثار تلكؤ الدول الأوروبية في تسديد الديون المتوجبة عليها للولايات المتحدة الأمريكية كثيراً من التكهنات عند المواطن الأمريكي، ففقد المستثمرون الأمريكيون والأجانب الثقة في الخزينة الأمريكية. وانعكس ذلك على بورصة وول ستريت إذ أقدم المساهمون في الشركات الكبرى على طرح أسهمها للبيع بكثافة. وأدى ذلك إلى هبوط أسعار الأسهم بشكل حاد وجر مزيداً من الإفلاس والتسريح والبطالة.

لم يبدأ الانتعاش في الولايات المتحدة إلا عام ١٩٣٣ مع سياسة «العهد الجديد» التي وضعها الرئيس فرانكلين روزفلت، حيث نصت على وضع حلول للأزمة المصرفية عام ١٩٣٣م وإعادة فتح البنوك السليمة، وإصدار قوانين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٥م التي تمنع البنوك من التعامل بالأسهم والسندات. وكذلك إنشاء مؤسسات لرعاية ضحايا الأزمة من العاطلين، بالإضافة إلى إصدار قوانين تحقق الاستقرار في قطاع الزراعة وإصدار قانون الإصلاح الصناعي عام ١٩٣٣م، وتصحيح استخدام الأوراق المالية من خلال إنشاء لجنة تبادل الأوراق المالية عام ١٩٣٤م.

اقتضى البدء بمعالجة الأزمة توافر السيولة المالية لتحريك السوق ولتأمين السيولة **لذلك وجب سحب الودائع الأمريكية من المصارف العالمية وخصوصا الأوروبية**، هذا الإجراء أسهم في انفراج الأوضاع الاقتصادية الأمريكية إلى حد ما، ولكنه أسهم في تدويل الأزمة فانتقلت إلى سائر الدول الرأسمالية في العالم وخصوصاً بريطانيا وفرنسا وألمانيا. وتبنى الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت سياسة اقتصادية جديدة تقوم على الدخول في مشاريع كبرى بهدف تشغيل أكبر عدد ممكن من العمال لحل مشكلة البطالة، وتم لأجل ذلك إنشاء مكاتب التوظيف والتوسع في المشاريع الإنمائية والاجتماعية.

تركت الأزمة الاقتصادية الكبرى تأثيراً كبيراً في الأنظمة الرأسمالية فقد تحول النظام الاقتصادي الرأسمالي الحر إلى اقتصاد موجه، وخضعت بعض القطاعات الحيوية كشركة إنتاج الفحم الإنجليزية وشركة المترو الفرنسية لنظام التأميم. كما تدخلت الدولة لتوجيه الصناعيين والمزارعين والمستثمرين وتوعيتهم.

وأسهمت الأزمة في وصول الأنظمة الدكتاتورية إلى السلطة في بعض البلدان، كالنازية في ألمانيا. وأغلقت أسواق كثيرة في وجه التجارة العالمية وتوقف التبادل التجاري واتبعت دول كثيرة سياسة الاكتفاء الذاتي مثل النظامين الفاشي في إيطاليا والنازي في ألمانيا.

كما أن انهماك الكثير من الدول في معالجة أزماتها الاقتصادية جعلها تغفل عن خطورة ما يجري على الصعيد العالمي من انتهاك لقرارات المنظمة الدولية وعودة إلى مبدأ التسلح وخرق المعاهدات الدولية. ولقد قوت الأزمة بطريقة غير مباشرة النظام الشيوعي الذي لم يتأثر بها بغض النظر عن أزماته الداخلية.

هكذا كانت الأزمة الاقتصادية الكبرى نتيجة من نتائج الحرب العالمية الأولى وسبباً من أسباب قيام الحرب العالمية الثانية.

دخول النازيين بولندا

اشتعال الحرب العالمية الثانية

بعد أن سُجن أدولف هتلر بعد فشل انقلابه على حكومة مقاطعة بافاريا الألمانية في نوفمبر ١٩٢٣م، قام بتأليف كتابه «كفاحي»، وكان مما بينه فيه ضرورة توسع الشعب الألماني، أولا باستعادة كل الأراضي التي يقطنها إخوتهم الألمان في دول أخرى، ثم التوسع نحو الشرق، أي على حساب الاتحاد السوفيتي.

بعد وصول هتلر وحزبه إلى السلطة عام ١٩٣٣م، بدأ رويداً رويداً تنفيذ مشروعه التوسعي، وباستيلائه على جمهورية التشيك في مارس عام ١٩٣٩م صار يفكر في الخطوة التالية، وهي التوسع على حساب بولندا، فبدأ بتصعيد الوضع بالمطالبة بضم الأراضي التي يقطنها الألمان، ولأنه انتهك معاهدة ميونخ، لم تعد حكومات بريطانيا وفرنسا تثقان به، فاتسع نطاق التوتر، ثم فوجئ الحلفاء الغربيون بتوقيع حكومة ألمانيا مع حكومة الاتحاد السوفيتي اتفاقية عدم اعتداء في ٢٣ أغسطس ١٩٣٩، لكن الحلفاء الغربيون لم يكونوا يعلمون بالبنود السرية في هذا الاتفاق والتي تتضمن تقسيم بولندا بين الدولتين في حال احتلالها.

وفي فجر الأول من سبتمبر من العام نفسه استيقظ العالم على الهجوم الألماني على بولندا ردّاً على هجوم (قيل إنه بولندي) على موقع ألماني في اليوم السابق، وقد شهد ضابط ألماني اسمه إيرفين فون لهاوزن في محكمة نورمبيرج بعد الحرب أن الهجوم دبره بعض القادة النازيين ليجد هتلر ذريعة للحرب. وقد نتج عن الضربة الجوية الأولى تدمير جزء كبير من سلاح الجو البولندي.

لم تكن الخطة العسكرية التي أعدها الألمان للغزو بالغة التعقيد، إذ إن موقع بولندا قبل الحرب العالمية الثانية يشكل نتوءاً داخل الأراضي الألمانية، مما يسهل الانقضاض عليها من الجانبين بطريقة «الكماشة». كما وافق النظام الحاكم في سلوفاكيا على دخول القوات الألمانية إلى أرضه لغرض مهاجمة بولندا.

بعد أن علمت الحكومة البريطانية بالهجوم الألماني أرسلت إنذاراً للحكومة الألمانية تطلب منها إيقاف الهجوم وسحب قواتها من بولندا، وإلاّ ستفي بالتزاماتها لبولندا.

في الثانية عشرة من ظهر يوم الهجوم دعا الزعيم الإيطالي بينيتو موسوليني إلى مؤتمر حول الأزمة في يوم 5 سبتمبر، واشترط الحلفاء الغربيون إيقاف الهجوم الألماني، والانسحاب من بولندا للمشاركة في المؤتمر، ولما لم يعر هتلر إنذار البريطانيين، أو عرض موسوليني، اهتماماً، أعلنت بريطانيا، وفرنسا الحرب على ألمانيا يوم ٣ سبتمبر، وهكذا بدأت الحرب العالمية الثانية..

كان الاتحاد السوفيتي مرتبطا مع بولندا باتفاقية عدم اعتداء وقعت عام ١٩٣٢م، وتنتهي عام ١٩٤٥م، لكن في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩م، أعلن السوفيت للبولنديين أن الاتفاقية فقدت صلاحيتها لانتهاء وجود بولندا كدولة، وقاموا في نفس اليوم بغزو بولندا فكان الضربة القاضية للمقاومة فيها.

قبل أن ينتهي سبتمبر كانت المقاومة البولندية انتهت، واختفت بولندا من خريطة أوربا بعد تقسيم أراضيها بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي، وقد عاد الجزء الذي احتله الألمان مع هزيمة ألمانيا في نهاية الحرب، ولكن بقي الجزء الذي احتله الاتحاد السوفييتي تحت سيطرته، نظراً لكونه أحد الحلفاء المنتصرين في الحرب، وعوضت بولندا بأراضٍ من ألمانيا.

تدمير الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر

اليابانيون يجبرون الولايات المتحدة على
دخول الحرب العالمية الثانية..

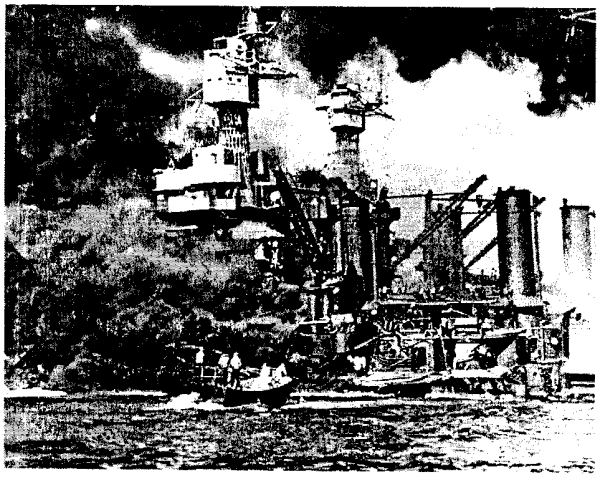

في سبتمبر ١٩٣٩ بدأت الحرب العالمية الثانية حين قامت قوات هتلر باكتساح بولندا، وفي أعقاب ذلك أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلندا وكندا واتحاد جنوب إفريقيا والنيبال الحرب على ألمانيا.

حققت القوات الألمانية انتصارات مبهرة وسريعة في بداية الحرب، فنجحت في احتلال النرويج والدانمرك وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورج وفرنسا في إبريل ومايو ويونيو ١٩٤٠م، وفي يونيو من العام نفسه انضمت إيطاليا إلى ألمانيا، وأعلن موسوليني الحرب على بريطانيا وفرنسا، وبدأت القوات الإيطالية عملياتها الحربية من أجل فرض السيطرة على منطقة البحر الأبيض المتوسط وشمال وشرق إفريقيا.

وجهت القوات الجوية الإيطالية في مطلع يونيو ضربة إلى القواعد الحربية البريطانية في مالطا وكينيا. وقامت القوات الإيطالية في شهر يوليو بغزو مستعمرتي كينيا والسودان البريطانيتين، منطلقة من أراضي إثيوبيا والصومال. وفي مطلع شهر أغسطس غزت القوات الإيطالية الصومال. فاضطرت القوات البريطانية والإفريقية الجنوبية إلى الانسحاب إلى عدن عبر مضيق باب المندب.

وفي شهر سبتمبر اعتدى الإيطاليون على مصر منطلقين من أراضي ليبيا فانسحب البريطانيون إلى مرسى مطروح. ثم قررت إيطاليا غزو اليونان بهدف تحسين وضعها في إفريقيا. فطالبت الحكومة اليونانية بالسماح بمرور قواتها إلى أراضيها عبر الأراضي اليونانية. وبعد رفض الحكومة اليونانية تنفيذ هذا المطلب بدأت إيطاليا في احتلال أراضي اليونان.

وفي ٢٧ سبتمبر من العام نفسه وقعت كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان اتفاقية ثلاثية حول تقسيم مناطق النفوذ لدى فرض النظام الجديد والمساعدة العسكرية المتبادلة. وانضمت المجر ورومانيا وسلوفاكيا وبلغاريا وفنلندا وإسبانيا إلى الاتفاقية. وفي مارس

عام ١٩٤١ انضمت يوغوسلافيا إلى الاتفاقية. وفي ٢٣ أبريل عام ١٩٤١م وقعت اليونان عقد الاستسلام للألمان والإيطاليين.

وفي ٢٠ مايو عام ١٩٤١ قام الألمان بإنزال بحري في جزيرة كريت التي يسيطر عليها الإنجليز . وبالرغم من مقاومتهم العنيدة سقطت الجزيرة على أيدي الألمان .

إزاء هذه الانتصارات الكبيرة، ومع التخطيط الألماني لغزو الجزر البريطانية لحسم الحرب، كانت بريطانيا ترغب في جر الولايات المتحدة لساحات القتال، للاستفادة من قوتها العسكرية والاقتصادية الضخمة، وإنقاذ الحلفاء من الهزيمة..

كانت الولايات المتحدة قد أعلنت في بداية الحرب حيادها، وكونت في عام ١٩٤٠ لجنة لتجنيبها دخول الحرب، ولكنها كانت ترجو انتصار الحلفاء خاصة أنها كانت تخوض صراعاً سياسيًّا مع اليابان في جنوب شرق آسيا. ومع الوقت بدأت الولايات المتحدة في مساعدة الحلفاء اقتصاديًّا وعسكريًّا لمواجهة الانتصارات الألمانية الإيطالية، ولكنها لم تستطع اتخاذ قرار الحرب، إلا بعد حادثة بيرل هاربر ..

في صباح السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١م شن اليابانيون غارة جوية مباغتة على الأسطول الأمريكي في ميناء بيرل هاربر بجزر هاواي، وأسفر ذلك عن تكبد الأمريكيين هزيمة لا مثيل لها في تاريخ المعارك البحرية، ففي غضون الساعتين اللتين استغرقهما الهجوم تكبد الأمريكيون خسائر فادحة في العدد والمعدات، أسفرت عن قتل وجرح ٣٥٨١ عسكريًّا (٢٣٤٣ قتيلاً، ١١٧٨ جريحاً)، ونحو ألف مفقود وإصابة تسع عشرة سفينة (٧ سفن حربية – ١٢ حاملة طائرات) و١٥٠ طائرة، بينما كانت خسائر اليابانيين في الهجوم طفيفة تمثلت بخسارة ٢٩ طائرة و١٥٥ مقاتلا. ومن حسن حظ الأمريكيين أن ثلاثاً من حاملات طائراتهم، وبعض السفن المرافقة لها كانت بعرض البحر وقت الهجوم في مهمات خاصة، وهي التي قدر لها أن تكون الورقة الرابحة والحاسمة في متابعة الحرب ضد اليابان.

في اليوم التالي أصدر الإمبراطور الياباني القرار الإمبراطوري الذي نص على ما يلي: «إن رغبتنا في تحقيق أهدافنا بالسيطرة على الشرق الأقصى اعترضتها قوة الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين أثارتا القلق والاضطراب في شرق آسيا، ومن منطلق الدفاع عن وجودنا وذاتنا فلم يكن هناك من سبيل سوى اللجوء إلى العمل العسكري». وهكذا أعلن الإمبراطور الياباني صراحة الحرب على دول الحلفاء لتحقيق أهداف اليابان في السيطرة على الشرق الأقصى .

أدى هجوم اليابانيين على بيرل هاربر إلى إحداث موجة من الغضب العارم في الولايات المتحدة، والتصميم على الانتقام من اليابانيين، وفي اليوم التالي وقف الرئيس الأمريكي روزفلت أمام الكونجرس بمجلسيه في جلسة مشتركة، وقرأ رسالته، التي استهلها بأن: «الهجوم الياباني - وهو يوم من الخزي والعار- لن ينسى إلى الأبد، وسيبقى يوم السابع من ديسمبر تاريخاً شائناً على مر العصور» وذكَّر أن بُعد المسافة بين اليابان وجزر هاواي يدل على أن الهجوم قد خطط له قبل عدة أسابيع، واعترف في خطابه بفداحة الخسائر التي نزلت بقوات بلاده البحرية والجوية، وأبلغ الكونجرس بأنه في الوقت نفسه لا يهم طول الوقت الذي سوف يستغرق للتغلب على هذا الغزو المتعمد، فإن الشعب الأمريكي بقوته وإصراره سوف يحقق النصر التام .

وافق الكونجرس الأمريكي بالإجماع على قطع المفاوضات مع اليابان، وإعلان الحرب عليها في الثامن من ديسمبر، وبذلك أدى الهجوم الياباني على بيرل هاربر إلى دخول الولايات المتحدة الحرب ضد اليابان. وفي المقابل أعلنت كل من ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة في ١١ ديسمبر. وفي اليوم نفسه أشار روزفلت للكونجرس عن الوضع الجديد قائلاً: «إن ما كان معروفاً، وما كان متوقعاً منذ فترة طويلة قد حدث الآن؛ إذ إن القوى التي تحاول استعباد العالم بأسره تتجه الآن نحو هذا الجزء من الكرة الأرضية». ونتيجة لذلك، أقر الكونجرس بالإجماع قرار الحرب

ضد ألمانيا وإيطاليا. وخُول الرئيس الأمريكي بموجب هذا القرار استخدام البحرية والقوات العسكرية وكل ثروات البلاد....

ومن جانب بريطانيا، لم يستطع تشرشل إخفاء فرحته بدخول أقوى قوة عسكرية إلى جانبه، لذلك طلب على الفور دعوة البرلمان بمجلسيه إلى الاجتماع في اليوم التالي لضرب بيرل هاربر، وطالب وزارة الخارجية أن تعد فوراً وبدون أي تأخير إعلاناً بالحرب على اليابان، وأن يكون جاهزاً في موعد اجتماع المجلس، كما أرسل تشرشل رسالة إلى السفير الياباني، يخطره بإبلاغ حكومته باسم جلالة الملك بأن حالة الحرب قد بدأت بين البلدين، ومن هذا المنطلق أعلنت بريطانيا الحرب فعلاً على اليابان، قبل أن يقرر الكونجرس الأمريكي إعلانها.

وهكذا دخلت الولايات المتحدة الحرب إلى جانب: (بريطانيا – فرنسا – الاتحاد السوفيتي) وحلفائهم ضد دول المحور: (إيطاليا – ألمانيا – اليابان) ؛ ليصبح الصراع صراعاً عالميًّا اسماً وفعلاً، وصارت عبارة «تذكروا بيرل هاربر» هي صيحة الحرب الأمريكية. وازدادت العلاقات بطبيعة الحال توثقاً بين الولايات المتحدة وبريطانيا، وكان أول مظهر لذلك هو عقد مؤتمر أركاديا في ٢٢ أغسطس، لتنسيق أعمال الحرب بين الدولتين. وأثناء المؤتمر اقترح تشرشل توقيع إعلان مشترك من قِبَل الدول التي أعلنت الحرب على دول المحور، وهو ما سمي بـإعلان الأمم المتحدة، الذي وقّع عليه ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتي والصين في أول يناير ١٩٤٢. ومن ثم تلا ذلك توقيع ممثلي اثنتين وعشرين دولة على تعهد باستخدام كل مواردها ضد دول المحور وضد الدول المنحازة لها، والامتناع عن إبرام أي هدنة أو صلح منفرد مع العدو، وأصبحت تلك الدول تحمل لأول مرة اسم «الأمم المتحدة».

وهكذا كانت بيرل هاربر السبب في تغير الموازين في الحرب العالمية الثانية، وسير الأمور لما سارت عليه أثناء الحرب وبعدها..

إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما

في السادس من أغسطس ١٩٤٥ كانت مدينة هيروشيما اليابانية، ومعها العالم، على موعد مع كابوس غير مسبوق في التاريخ البشري..

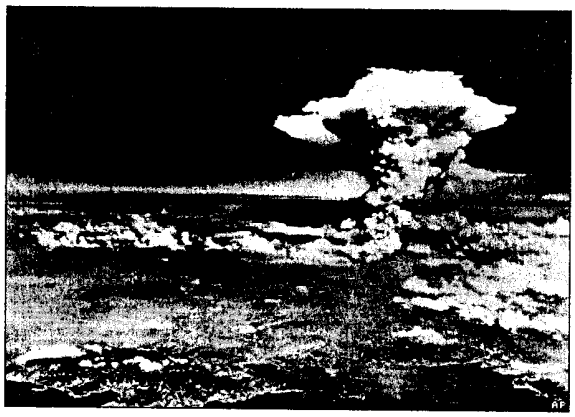

في السادس من أغسطس ١٩٤٥ كانت مدينة هيروشيما اليابانية، ومعها العالم، على موعد مع كابوس غير مسبوق في التاريخ البشري..

لقد اختار القدر تلك المدينة في جزيرة هونشو اليابانية لتمر بالتجربة الأبشع في تاريخ الحروب، ففي خلال دقائق معدودة من صباح ذلك اليوم لقي ثلث سكانها حتفهم (ثمانون ألفاً)، وجُرح سبعون ألفاً آخرون، ومع كل ثانية كانت الكارثة تزداد في حجمها ومداها..

لقد كانت التجربة الأمريكية الأولى للقنبلة الذرية..

في السادس عشر من شهر يوليو عام ١٩٤٥م والحرب العالمية الثانية تلفظ أنفاسها، كان العالم الأمريكي المشرف على فريق صنع القنبلة الذرية يشرف على إجراء الاختبار الأول للقنبلة في ترينيتي في ولاية نيومكسيكو الأمريكية، وفي السادس والعشرين من الشهر ذاته أصدر الرئيس الأمريكي هاري ترومان ومعه قادة الحلفاء إعلان بوتسدام، الذي يحدد شروط استسلام اليابان، وإلا قامت قوات التحالف بالهجوم على اليابان ودمرتها ودمرت قواتها المسلحة بالكامل، ولم يذكر البيان أي شيء عن القنبلة الذرية..

وفي الثامن والعشرين من يوليو، أعلنت الصحف اليابانية أن الحكومة قد رفضت إعلان بوتسدام. وفي ظهر ذلك اليوم، أعلن رئيس الوزراء الياباني في مؤتمر صحفي أن إعلان بوتسدام عبارة عن إعادة صياغة لإعلان القاهرة، ومن ثم تجاهلته الحكومة اليابانية عمداً، واعتبرت الصحف اليابانية والأجنبية هذا التصريح بمثابة رفض واضح للإعلان. ولم يسع الإمبراطور هيروهيتو لتغيير موقف الحكومة. وكان ينتظر الرد السوفييتي على النوايا اليابانية المبهمة نحو السلام.

وفي الحادي والثلاثين من شهر يوليو، صرح الإمبراطور لمستشاره كويتشي كيدو أنه يجب الدفاع عن الرموز الإمبراطورية اليابانية بأي ثمن.

فعليًّا كانت اليابان قد استسلمت، فقد دمرت القنابل التقليدية الأمريكية معظم المدن اليابانية، كما أن الحصار البحري حولها منع وصول الطاقة والموارد الأساسية، فجثمت الطائرات الحربية اليابانية في مطاراتها العسكرية بدون وقود، وخلت الأجواء اليابانية لقنابل الطائرات الأمريكية وبدون أية مقاومة. كما أصبحت السفن الحربية معطلة بسبب عدم توفر الوقود لتشغيلها. ومع أن تقاليد الساموراي اليابانية لا تسمح بالاستسلام ولكن كانت اليابان مستعدة له حينما يأمرها الإمبراطور، والذي كان يعتبر إلهاً في ذلك الوقت. ويبدو بأن الرئيس ترومان لم يعط اعتباراً للتقاليد اليابانية، بل أصر على المطالبة بالاستسلام وبغير شروط، وهو ما فهمه الشعب الياباني بأنه احتلال أمريكي وقضاء على الإمبراطور.

لذا لم تكن الولايات المتحدة بحاجة لإلقاء القنبلة الذرية على اليابان، فالمسألة كانت تحتاج لحل يحفظ ماء وجه اليابانيين ويحقق الاستسلام في الوقت نفسه..

وقد بينت الوثائق السرية بأن الرئيس ترومان خالف آراء مستشاريه، الذين نصحوه بالموافقة على المحافظة على حكم الإمبراطور، وأصر على استمرارية الحرب، واستخدام القنبلتين الذريتين ليتجنب انتقادات الكونجرس عن صرف ملياري دولار على إنتاجهما، في الوقت الذي كان الشعب الأمريكي يعاني من صعوبات اقتصادية جمة، كما كان موقف الرئيس ضعيفاً في الكونجرس، وهو على أبواب انتخابات جديدة لأعضاء الكونجرس في عام ١٩٤٦.

لذا فقد اتخذ ترومان القرار بتجربة القنبلة الذرية في الهدف الذي حدده الخبراء.

كانت مدينة هيروشيما تتمتع ببعض الأهمية الصناعية والعسكرية في ذلك الوقت. فكان هناك عدد من معسكرات الجيش، بما في ذلك مقر الشعبة الخامسة والمقر العام الثاني للجيش الخاص بالمشير شونروكو هاتا المسؤول عن الدفاع عن جميع الأجزاء الجنوبية في اليابان. كما كانت هيروشيما قاعدة لوجستية للجيش الياباني. وكانت المدينة مركزاً للاتصالات، ونقطة تخزين، ومنطقة تجميع للقوات. وكانت واحدة من المدن

اليابانية العديدة التي كانت بمنأى عن القصف الأميركي، وقد تراوح عدد سكانها آنذاك بين ٣٤٠ ألف نسمة و٣٥٠ .

في الثامنة والربع من صباح السادس من أغسطس ١٩٤٥م ألقيت القنبلة على هيروشيما دون سابق إنذار، وكان الانفجار عظيما، بلغ نصف قطره ميلاً، ودمر ١٢ كيلومترا مكعبا من المدينة، ووفقاً لمعظم التقديرات، أدى الانفجار إلى مقتل ما يقرب من ٧٠٠٠٠٠ شخص في الحال بالمدينة . وتشير التقديرات إلى أن مجموع الوفيات بحلول نهاية عام ١٩٤٥ نتيجة الحروق، والإشعاعات، والأمراض ذات الصلة، والآثار التي تفاقمت بسبب نقص الموارد الطبية، يتراوح بين ٩٠٠٠٠٠ إلى ١٤٠٠٠٠٠ شخص. وتشير بعض التقديرات الأخرى إلى وفاة ٢٠٠٠٠٠٠ شخص بحلول عام ١٩٥٠، بسبب السرطان وغيره من الآثار طويلة المدى .بينما ذكرت دراسة أخرى أن ما يقرب من ٩ ٪ من الوفيات بسبب سرطان الدم بين الناجين من القنبلة بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٩٠، نتج من الإشعاع الصادر من هذه القنابل.

لم تكتف الولايات المتحدة بهذا الدمار، فأكملت التجربة بعد ثلاثة أيام، وألقت القنبلة الثانية على مدينة ناجازاكي اليابانية في صباح التاسع من أغسطس، ولم تكن الكارثة أقل، وخططت لإلقاء قنابل أخرى في أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، لولا أن أعلن الإمبراطور استسلام بلاده في الخامس عشر من أغسطس.

أدى استخدام القنبلة الذرية لبدء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، وسباق التسلح النووي، حيث صنع بعدها الروس قنبلتهم الذرية، وردت الولايات المتحدة بصنع القنبلة الهيدروجينية، التي سيؤدي استخدامها لدمار العالم بأكمله. كما أدى استخدامها لتطور الحرب على الجبهة الكورية وما نتج عنها من حرب باردة مع السوفييت، والحروب المدمرة في فيتنام والشرق الأوسط.

لقد فتح إلقاء القنبلة النووية على العالم باب سلاح مدمر لم يسبق للبشرية أن عرفت مثله، وجعل العالم على فوهة خطر، ينتظر قراراً أحمقَ من أحد الساسة لتنفتح أبواب الجحيم.

قيام جمهورية الصين الشعبية

أكثر من مائة ألف رجل، وامرأة، و طفل، سافروا سيراً على الأقدام لمدة عام مارين خلال ١٢ مقاطعة،و ٢٤ نهراً، بالعديد من سلاسل الجبال، والغابات الكثيفة، والصحارى المهجورة و لم ينجُ منهم إلا عشرون ألفاً.

وُلد ماو تسي تونج في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٣م في مقاطعة هيوفن لأسرة من الفلاحين، وعندما كان في الثامنة عشرة من عمره قامت الثورة ضد سلالة تشينغ وبعد شهور من قيامها انتهت الملكية وأعلنت جمهورية الصين، التي لم تعرف حكومة مستقرة فكانت قاعدة لحرب أهلية مسببة الفوضى و ظلت الصين كذلك حتى ١٩٤٩م التحق ماو بجامعة بكين في ١٩١٨م وهناك اعتنق الشيوعية. وفي يونيو ١٩٢١م أصبح واحداً من الاثني عشر الذين أسسوا الحزب الشيوعي في شنغهاي. وترقى فيه ببطء فكان زعيمه في ١٩٣٧.

في البداية اعتقد ماو أن أنصار الحزب يجب أن يكونوا العمال في المدن متفقاً مع كارل ماركس وفى ١٩٢٥م تغير تفكيره بعد أن تغيرت ظروف الصين، فاعتمد على الفلاحين، موجهاً كل تركيزه إلى التنمية الزراعية، وعمل على تطوير مفهوم جديد للشيوعية سُمِّي «بالماوية» وكان مزيجاً من شيوعية لينين وماركس.

تمزق التحالف بين الجيوش القومية، والشيوعية في عام ١٩٢٧م عندما بدأ شيانج كاى شى تطهيراً عنيفاً للحمر، وهرب ماو و زملاؤه إلى الجبال على حدود هيزان كيانجسى لتنظيم أول حكومة سوفييتية صينية ترتكز على الفلاحين.

في سنة ١٩٣٤ أحاط القوميون بسوفيت هيوان – كيانجسى فانسحب الشيوعيون و بدأوا في الهروب من خلال رحلة طولها ٦٠٠٠ ميل نحو الحدود الغربية أكثر من مائة ألف رجل، وامرأة، و طفل، سافروا سيراً على الأقدام لمدة عام مارين خلال ١٢ مقاطعة، و ٢٤ نهراً، بالعديد من سلاسل الجبال، والغابات الكثيفة، والصحارى المهجورة و لم ينجُ منهم إلا عشرون ألفاً.

وضع الحزب الشيوعي خطة بطيئة التقدم للاستيلاء على الحكم، وبعد أن اغتيل عدد من قادته أصبح ماو القائد الوحيد وفي عام ١٩٤٧ بدأ التحرك لقلب نظام الحكم

بزعامة شيانج، وفي ١٩٤٩ انتصرت القوات الشيوعية، وفي الأول من أكتوبر من ذلك العام أعلن ماو قيام جمهورية الصين الشعبية.

كان ماو في السادسة و الخمسين، أما بلاده فكانت قد أنهكتها الصراعات والحروب وتركتها في حال من الفقر والتخلف والجهل، وقد استخدم ماو أساليب وحشية ليحكم قبضته على الصين فقتل الملايين من الثورة المعادية له ومن الرجعيين السياسيين وقطاع الطرق، كما أخذ على عاتقه تمدن الصين وتحويلها إلى أمة عصرية قوية، فبدأ بالعناية بالتعليم والتصنيع والصحة وحول النظام الاقتصادي من رأسمالية إلى اشتراكية، وسيطر على كل أجهزة الدولة وبعد أن كانت الصين تقدس الآباء والأجداد منذ آلاف السنين أصبحت تقدس الوطن وبدأت تعاليم كونفوشيوس في الانقراض حتى اختفت.

في آخر سنة ١٩٥٠ أرسل ماو قوة عسكرية ضخمة من المتطوعين إلى شمال كوريا لمحاربة جيش أمريكي تحت قيادة الجنرال دوجلاس ماك آرثر، واستطاع الصينيون هزيمة الجيش الأمريكي ودفعه لأن أن يتقهقر إلى كوريا الجنوبية.

بعد ذلك بعام غزت القوات الصينية جبال التبت، قتلوا الآلاف من المقاومة التبتية . وفي ١٩٦٢ أرسل ماو جيشاً عبر حدود الهيمالايا الهندية فدخلت الهند الأقل تجهيزاً الحرب، وبعد أسابيع انسحبت الصين بعد أن غزت مساحات لا تذكر على الحدود.

في سنة ١٩٥٨م بدأ ماو مشروع "القفزة الكبرى" وكان يرتكز على الصناعات الصغيرة في الحقول والقرى في الريف، حيث أجبر الملايين من الفلاحين والعمال والمدنيين على العمل في هذا البرنامج الصناعى بمعدل سريع لتحقيق نتائج كبيرة، ولكن لم يستطع الشعب أن يواكب السرعة المطلوبة فانهار المشروع، مخلفاً خسائر ضخمة تخطتها الصين بعد سنتين. وفي هذه الفترة العصيبة، دفع الشعب الثمن مواجهاً فقرا مدقعا بلا طعام و بملابس رثة، أما ماو فاضطر لأن يشتري القمح من الدول الرأسمالية ليطعم شعبه.

وفي سنة ١٩٦٤ استطاعت الصين أن تفجر قنبلتها الذرية الأولى، وبعدها بفترة وجيزة فجرت قنبلتها الهيدروجينية.

وفي سنة ١٩٦٦ أشعل ماو الثورة الثقافية الكبرى وكان في السبعينيات من عمره وقتها، وأراد منها سحق المعارضة، فقام بإطلاق ملايين الطلبة من المدارس العليا والجامعات ليخدموا كحرس حمر ولكنهم سببوا الفوضى في البلاد، دافعين بالصين إلى حافة حرب أهلية ضارية.

كانت العلاقة بين الصين والاتحاد السوفييتي (البلدين الشيوعيين الكبيرين) قد ساءت في أواخر الخمسينيات بعد أن قرر الروس التعايش السلمي مع الولايات المتحدة، فهاجمهم ماو بشدة متهماً إياهم بالانحراف عن فكر لينين الماركسي.

في عام ١٩٧٢ وفي ذروة الانقسام بين الصين والاتحاد السوفيتي التقى ماو بالرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في بكين لإقامة علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة. وفي السنة نفسها تم قبول جمهورية الصين الشعبية لدى الأمم المتحدة بدلاً من جمهورية الصين للحصول على عضوية الصين في الأمم المتحدة والعضوية الدائمة في مجلس الأمن.

وفي عام ١٩٧٦م توفي ماو.

اختراع الترانزستور

يستمد أهميته في حياة المجتمع من أن اختراعه أدى إلى تطوير الدوائر الكهربية، ومن دخوله في كل الدوائر الكهربائية الحديثة، بالإضافة إلى القدرة الفائقة على إنتاجه

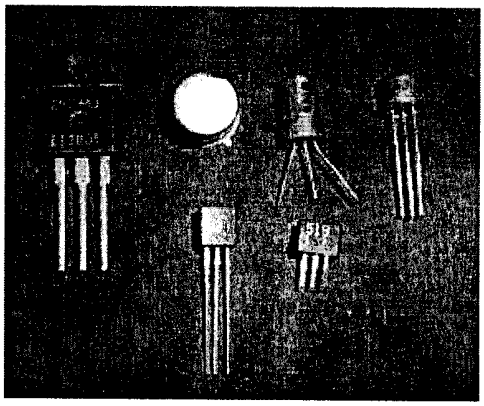

«الترانزستور» من أهم المكونات الإلكترونية الحديثة ويعتبر من أعظم الاختراعات في القرن العشرين، ويستمد أهميته في حياة المجتمع من أن اختراعه أدى إلى تطوير الدوائر الكهربية، ومن دخوله في كل الدوائر الكهربائية الحديثة، بالإضافة إلى القدرة الفائقة على إنتاجه باستخدام عمليات تلقائية آلية «عمليات تصنيع أشباه الموصلات» مما يجعل إنتاجه قليل التكلفة.

قبل وجود الترانزستور كانت هناك صمامات الراديو، التي اخترعها السير امبوروز فلمنج الذي ساعد المخترع الإيطالي ماركوني في تجاربه المبكرة. وقد أنتج فلمنج صمامه الأول في العام ١٩٠٤م، عندما اكتشف أنه إذا كان بحوزته أنبوب مفرغ بقطبين أحدهما ساخن والآخر بارد فإنه بالإمكان الكشف عن موجات لاسلكية. وفي العام ١٩٠٦ في فيينا أضاف روبرت فون ليبن المنكب على مسألة الإشارات الهاتفية، قطباً ثالثا ووجد أن ذلك سيجعل من الإشارات الضعيفة أقوى وأعلى بكثير.

وقد قدر للأمريكي لي دو فورست تحسين ذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن الترانزستور يعمل كل ما تعمله صمامات الراديو، لكنه أكثر أماناً وأمتن وأصغر ولا يحتاج إلا لجزء مما تتطلبه الصمامات من كهرباء. وقد أظهرت أولى الترانزستورات للمرة الأولى من قبل ويليام شوكلي، وجون باردين وولتر براتين في مختبرات شركة بل تلفون في الولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٩٤٨ م.

وقد اكتشف هؤلاء الباحثون أن موادًا مثل السليكون والجرمانيوم لا توصل الكهرباء ولا تعمل كمقاومات لها. وبالحقيقة، فهي نصف موصلات. وقد اكتشف شوكلي أنه بإضافة مقادير ضئيلة من مادة أخرى إلى السليكون يستطيع أن يظهر الكيفية التي يرد بها السليكون على مرور الكهرباء عبره.

مؤتمر باندونج

مولد حركة عدم الانحياز

انتهت الحرب العالمية الثانية بكل مآسيها وأحزانها، وشهد العالم تشكل نظام دولي جديد يتسم بالقطبية الثنائية ؛ حيث ظهرت على المسرح العالمي الولايات المتحدة و الاتحاد السوفيتي، وبدأ العالم يدخل مرحلة جديدة من تاريخه عُرفت بالحرب الباردة، فتشكلت أحلاف عسكرية استقطب فيها كل من المعسكرين الشيوعي والرأسمالي الدول التي تدور في فلكه، وفي ظل هذا الاستقطاب الشديد كانت بواعث حركة عدم الانحياز تولد ؛ فمنذ مطلع الخمسينيات شهد العالم أكبر حركة تحريرية في تاريخه المعاصر تمثلت في استقلال جزء كبير من المستعمرات في آسيا و إفريقيا و أمريكا اللاتينية، وبدأت هذه الدول تطالب بمكان لها في المسرح العالمي، وجمعتها قواسم مشتركة أهمها: معارضتها لسياسة الارتباط بأي من المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، ورغبتها في الوقوف بعيدًا عن سياسات الحرب الباردة وتكتلاتها وأحلافها، وسعت هذه الدول لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإيجاد أسس جديدة للعلاقات الدولية تضع نهاية للسيطرة الأجنبية بكافة صورها وأشكالها.

سعت الدول الآسيوية إلى تشكيل منظمة إقليمية تجمعها، وعقدت مؤتمر العلاقات الآسيوية في نيودلهي عام ١٩٤٣م، إلا أن تباين وجهات النظر بين الوفود حال دون تشكل هذه المنظمة، ثم ما لبثت الهند و باكستان و إندونيسيا أن دعوا إلى عقد مؤتمر في باندونج، اتسعت قاعدة عضويته لوفود إفريقية وآسيوية، وبدأ المؤتمر في ١٨ إبريل ١٩٥٥م، واستمر لمدة ستة أيام، وحضرته وفود (٢٩) دولة، وكان هذا المؤتمر بمثابة نقطة الانطلاق الأولى لحركة عدم الانحياز، وساد بين الحضور روح من التفاهم أُطلق عليها آنذاك «روح باندونج»، غير أن مفهوم عدم الانحياز إلى أي من القوتين العظميين لم يكن في حد ذاته هو المعيار الذي مع هذه الوفود، إذ كان بينها بعض الدول التي ترتبط بتحالفات وثيقة مع

الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي ؛ فكانت هناك الصين ذات الارتباط الوثيق بالاتحاد السوفيتي، و اليابان ذات الولاء للولايات المتحدة، ومع تراشق الاتهامات الحادة بين بعض الوفود المشاركة خاصة بين الصين وباكستان حول تزايد الخطر الشيوعي، تأكد للوفود أهمية وضرورة عدم الانحياز لأي من القوتين؛ وهو ما يفسر إهمال دعوة بعض الدول المرتبطة بتحالفات مع المعسكر الشيوعي أو الرأسمالي للحضور في مؤتمر بلجراد سنة ١٩٦١م.

لم تحُل الانتماءات السياسية المتعارضة بين الدول الحضور في باندونج دون صياغة عشرة مبادئ تُعد ميثاقا للعلاقات بين هذه الدول، ومن أهمها:

- احترام حقوق الإنسان.
- سيادة جميع الدول ووحدتها.
- عدم التدخل في شؤونها.
- تسوية المنازعات بالطرق السلمية.
- تنمية المصالح المتبادلة بينها والتعاون.

ونتج عن مؤتمر باندونج توطيد العلاقات الشخصية بين بعض زعماء الدول الحضور؛ فقد كان باندونج أول رحلة للرئيس المصري جمال عبد الناصر خارج مصر بعد نجاح ثورة يوليو، فتوطدت العلاقات بينه وبين الزعيم الهندي نهرو وساعد ذلك في ظهور حركة عدم الانحياز.

ترجع تسمية عدم الانحياز إلى خطاب ألقاه نهرو في أبريل ١٩٥٥م حيث رأى في عدم الانحياز هوية مستقلة ودورًا إيجابيًّا نشطًا، وليس موقفًا سلبيًّا إزاء التكتلات الخارجية.

ومع امتداد النصف الثاني من الخمسينيات تبلورت لحركة عدم الانحياز قيادة ثلاثية ضمت :نهرو، والرئيس اليوغسلافي تيتو، وجمال عبد الناصر، واستفادت هذه القيادات من تصدرها لحركة عدم الانحياز في خدمة تطلعاتها القومية ؛ فتيتو وجد في الحركة عنصرًا مؤازرًا له بعد قطيعته مع الاتحاد السوفيتي، أما نهرو فوجد فيها عونًا له في مواجهة التهديدات الصينية، وضغوط الأحلاف العسكرية الأمريكية في آسيا. أما عبد الناصر فكان يحتاج إلى مساندة عالمية له أثناء صعوده إلى السلطة -خاصة أنه حديث عهد بها- بما يضمن له استقلال مصر.

تأميم قناة السويس

يوم صارت القناة لمصر.. لا مصر للقناة

في ٢٦ يوليو ١٩٥٦م، في أثناء الاحتفال بالذكرى الرابعة لرحيل الملك فاروق عن مصر، فجَّر الرئيس جمال عبد الناصر القنبلة التي دوَّت في أنحاء العالم : تأميم قناة السويس، أي نقل ملكيتها وإدارتها من الشركة الأجنبية إلى الحكومة المصرية، وكان من المفترض أن ينتهي عقد امتياز القناة سنة ١٩٦٨م، لتعود ملكيتها للمصريين..

يرتبط تأميم القناة بتمويل السد العالي (ذلك المشروع الذي هدف لتوفير احتياجات مصر من مياه الري وإنجاز نهضة زراعية وصناعية) الذي وافقت عليه الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي، فطبقا للاتفاق مع بريطانيا والولايات المتحدة في ١٦ ديسمبر ١٩٥٥ تعهدت الدولتان بتقديم ٧٠ مليون دولار لتمويل المرحلة الأولى للمشروع، كذلك تعهد البنك الدولي بتقديم قرض قيمته ٢٠٠ مليون دولار.

والواقع أن الولايات المتحدة عندما وافقت على الاشتراك في تمويل السد العالي كان في ذهنها أن يؤدي ذلك إلى تسوية بين مصر وإسرائيل وإلى تغيير مصر لسياستها في الكتلة الشرقية فتوقف استيراد السلاح منها. لذلك اشترطت ألا ترتبط مصر بأية قروض أجنبية أخرى طول فترة تنفيذ المشروع.

وفي ١٩ يوليو ١٩٥٦ صدر بيان عن الخارجية الأمريكية يعلن سحب الولايات المتحدة عرضها لتمويل السد العالي، بدعوى أنه مشروع بالغ الضخامة وأنه لا يرتبط بحقوق مصر ومصالحها وحدها في مياه النيل، بل يؤثر كذلك في حقوق ومصالح بلاد أخرى تساهم في مياه النيل ومنها السودان وإثيوبيا وأوغندا. وأمعن البيان في إهانة مصر بأن شكك في اقتصادها وفي قدرتها على تنفيذ هذا المشروع الإنشائي الضخم. وفي اليوم التالي (٢٠ يوليو) قامت الحكومة البريطانية بسحب عرض التمويل لذات الأسباب. وأخيرا وفي ٢٣ يوليو سحب البنك الدولي بدوره العرض المقدم منه للمساهمة في بناء السد العالي.

كان تراجع الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي عن تمويل مشروع السد العالي محاولة لإفشال النموذج التحرري المصري الذي بدأ يؤثر في محيطه العربي، كما كان نتيجة لرفض مصر للتسوية مع إسرائيل، ولمحاولات تقييد سيادتها الوطنية وحقها في بناء سياسة خارجية متوازنة بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية. وكان سحب تمويل مشروع السد العالي هو السبب المباشر في اتخاذ جمال عبد الناصر قرار تأميم قناة السويس..

وجاء إعلان قرار التأميم في الإسكندرية في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ضربة كبرى للغرب ومصالحه في قلب منطقة الشرق الأوسط.

وكرد على تأميم القناة قامت كل من بريطانيا وفرنسا بتجميد أرصدة مصر وودائعها في البنوك البريطانية والفرنسية وتبعتهما الولايات المتحدة في هذا الإجراء.

وفي أواخر أكتوبر من العام نفسه، وقع العدوان الثلاثي على مصر، باشتراك الجيوش الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية، ومع الصمود الشعبي المصري والتدخل الدولي فشل العدوان وانسحبت القوات المعتدية في أواخر ديسمبر..

كان لتأميم قناة السويس نتائج على المستوى الداخلي المصري، والمستوى الإقليمي والعالمي.

فقد استردت مصر الملكية الكاملة للقناة، التي سلبت منها منذ منح امتياز حفر القناة عام ١٨٥٤م، ومع الملكية بدأت مصر في الانتفاع من عوائد القناة في مشروعات التنمية، وفي الوقت نفسه حرمت بريطانيا من الذريعة التي كانت تستخدمها للتدخل في الشؤون المصرية، وتعززت مكانة عبد الناصر وبدأت شعبيته الحقيقية في مصر وامتدت للعالم العربي.

إقليميًّا منحت الدول الصهيونية (إسرائيل) حق المرور في خليج العقبة نظير انسحابها من سيناء، وهو ما سيتسبب في نشوب حرب يونيو ١٩٦٧م حين تقوم القوات المصرية بإغلاق الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية..

عالمياً صار تأميم القانون ملهماً لثورات التحرر الوطني في العالم الثالث، وقد تجلى ذلك في قرارات تأميم للثروات الوطنية في عدد من الأقطار، خاصة في أمريكا اللاتينية..

كذلك كان التدخل الأمريكي والسوفييتي في أثناء العدوان الثلاثي، مؤشراً عمليًّا على انتقال مركز القوة في العالم من لندن وباريس، دول الاستعمار الكلاسيكي إلى نيويورك وموسكو، وبدأت الحرب الباردة بين القطبين الجديدين تلوح في الأفق.

إطلاق القمر الصناعي سبوتنك

وبدأ غزو الفضاء..

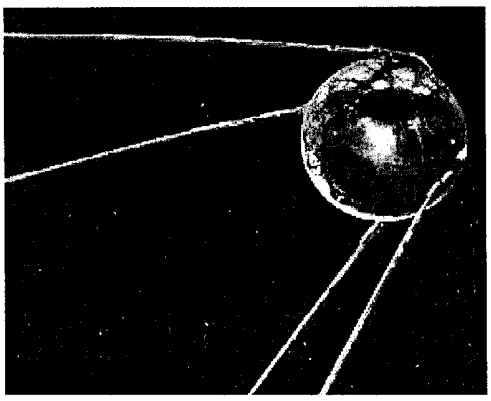

في الرابع من أكتوبر سنة ١٩٥٧م أطلق الروس أول قمر صناعي يسبح في الفضاء، وحمل اسم (سبوتنك ١)..

وقد استغرقت رحلته للوصول إلى مداره حول الأرض نحو ٩٨ دقيقة، بعد أن حمله صاروخ من طراز آر ـ ٧ من قاعدة الصواريخ في تيوارتم في كازاخستان .

وكان مهندس الصواريخ السوفيتي سيرجي كورولف قد بدأ مطلع خمسينيات القرن الماضي حملة لإطلاق قمر اصطناعي إلى الفضاء قبل الأمريكيين.

وكان العلماء الغربيون يستعدون لإجراء سلسلة من التجارب والاختبارات لمراقبة طبقات الجو العليا خلال تلك الفترة. وكان وجود قمر اصطناعي مجهز بمعدات قياس علمية في صلب تلك التجارب .

وفي يناير من عام ١٩٥٦ حصل كورولف على مراده، فقد وافقت الحكومة السوفيتية على خطته تلك عقب سماعها أن الولايات المتحدة تنوي إطلاق قمرها الاصطناعي .

كان القمر سبوتنك قادراً على إرسال معلومات حول درجة حرارة الأرض، وقياسات تتعلق بالكثافة على سطح الأرض، مما عنى للعلماء أن جهازاً متطوراً كهذا له أهمية كبيرة في توفير معلومات دقيقة ومن الفضاء الخارجي، وتوصلوا إلى إمكانية تطوير معدات تتحمل الظروف السائدة في الفضاء مثل انعدام الوزن والتغير المفاجئ في درجات الحرارة، وهي معلومات كانت ضرورية لرحلات الفضاء التالية.

إلا أن سبوتنك كان قمراً اصطناعيًّا عام الأغراض، ولم يكن مهيئاً ليقوم بتجارب علمية محددة. إذ كان عبارة عن شكل كروي بقطر ٥،٥٨ سنتم وبوزن بلغ ٨٤ كيلو جراما ومجهزا بعدة مرسلات من جوانبه.

وكان كورولف وفريق من المهندسين السوفيت قد استعدوا لإطلاق قمر اصطناعي أكثر تعقيداً، ويزن قرابة ألف كيلو جرام ويحمل معدات وأجهزة أكثر تطوراً، وعرف آنذاك باسم «الجسم دي»،لكن الحكومة السوفيتية تخلت عن هذا المشروع وفضلت إطلاق قمر صناعي أخف وزناً واقل تطوراً .

وفي الرابع من أكتوبر من عام ١٩٥٧، وتحديدا في السابعة و ٢٨ دقيقة لتوقيت جرينتش، انطلق سبوتنك إلى الفضاء الخارجي .وكان العالم يراقب بذهول هذا الإنجاز التاريخي الذي قالت عنه صحيفة نيويورك تايمز في حينها إن الولايات المتحدة باتت في سباق من أجل وجودها .

وقال السيناتور (ثم الرئيس) ليندون جونسون عنه أيضا: من سيطر على الفضاء سيطر على العالم .

ومنذ ذلك الحين انطلق العالم في سباق محموم حول من سيسيطر على الفضاء، السوفيت أم الغرب.

ففي ١٢ من أبريل ١٩٦١ أصبح رائد الفضاء السوفيتي يوري جاجارين أول إنسان ينطلق للفضاء عبر المركبة الفضائية فوستيك ١ . وبعدها بـ٢٣ يوماً، قام رائد الفضاء الأمريكي آلن شيبارد بدوران فرعي لمدة ١٥ دقيقة في الفضاء.وأصبح جون جلين أول أمريكي يدور حول الأرض في عام ١٩٦٢ .بعد ذلك أطلق الاتحاد السوفيتي أول امرأة في الفضاء وهي فالينتينا تيريشكوفا في عام ١٩٦٣ . وأجرى رائد الفضاء السوفيتي ألكسي ليونوف أول عملية مشي في الفضاء في عام ١٩٦٥ وكادت أن تنتهي الرحلة بكارثة حين أخفق ليونوف العودة تقريباً إلى الكبسولة.

وفي ٢١ من يوليو/ تموز ١٩٦٩ أصبح الأمريكي نيل آرمسترونج أول إنسان يضع قدمه على سطح القمر في حدث راقبه أكثر من ٥٠٠ مليون شخص حول العالم، كواحد من أهم أحداث القرن العشرين.

اكتشاف أشعة الليزر

يعتبر أينشتاين الأب الأول لأشعة الليزر، فهو الذي وضع الأسس النظرية للموضوع..

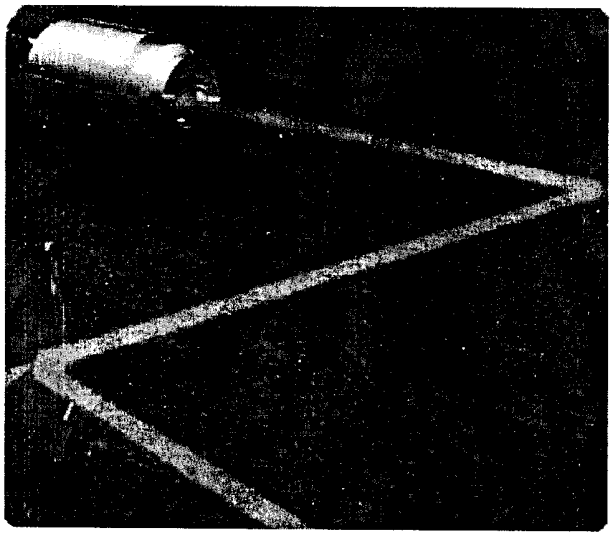

يعتبر اكتشاف الليزر من أكثر التطورات إثارة في القرن العشرين. ويمكننا القول إننا بدأنا نعيش فى عصر الليزر - فعلاً - فأشعته دخلت صلب حياتنا، وتطور تقنية جعلته عنصراً أساسيًّا فى كافة المجالات العلمية والاقتصادية المتطورة.

يعتبر أينشتاين الأب الأول لأشعة الليزر، فهو الذي وضع الأسس النظرية للموضوع، أما الأب الثاني، فهو العالم السوفييتي فابريكانت الذي كان قد اقترح منذ عام ١٩٤٠ تضخيم الأشعة عن طريق السيزيوم، و في عام ١٩٥٨م بدأ التسابق العلمي في الطريق لاكتشاف الليزر بمقالين نشرتهما في وقت واحد تقريباً مجموعتا عمل، الأولى أمريكية تضم (شارلز. تاونسنز، آرثرل. شادلو) و الثانية سوفييتية تضم أي. إم بروخوري، نيكولا س. باسو، وقد عرض المقالان الظاهرة وإمكانية التوصل إلى أشعة ما.

وفي يوليو من عام ١٩٦٠م وفي أحد المعامل بولاية كاليفورنيا، لاحظ العالم الأمريكي (ميمان) الومضات الأولى لهذه الأشعة الخارجة من جهازه. وكان هذا الجهاز يتألف من قضيب من الياقوت الأحمر طوله بضعة سنتيمترات، أطرافه مسطحة ومتوازية تماماً وجوانبه المسطحة مغطاة بطبقة معدنية عاكسة و قد لف حول القضيب و بشكل حلزوني أنبوب كانت الغاية من استعماله أن يعطي ومضات من الأشعة البيضاء بقوة شديدة. وحين كان تفريغ الشحنة في الأنبوب يتخطى حدًّا معيناً من القوة، كان القضيب يعطي بشكل عنيف حزمة من الأشعة الحمراء، لا يزيد قطرها على بضعة سنتيمترات وذات خصائص معينة هكذا بدأت ولادة أشعة الليزر. و بعد ستة أشهر قام الباحثون (بنيرت)، و(هيروه)، و(علي جافان) بتجارب أظهروا فيها أن الذرات الغازية مثل (هيليوم-نيون) قادرة على إرسال أشعتها بطريقة متواصلة لا بشكل ومضات متتالية. كذلك لاحظ الأمريكيان (بنيرت)، و(هيروه) في ذلك العام، عندما كانا يتكلمان بالقرب من مرايا جهاز الليزر، أن اهتزازات أصواتهما تدخل

تنوعات في إرسالات حزمة أشعة الليزر وهكذا أظهرا قدرة الليزر على نقل الأصوات.

يستخدم الليزر حاليا في مجالات متعددة كاستعماله في الأقراص المدمجة، وفي صناعة الإلكترونيات، وقياس المسافات بدقة -خاصة أبعاد الأجسام الفضائية- وفي الاتصالات.

كما تستخدم أشعة الليزر في معالجة بعض أمراض العيون حيث يتم تسليط أشعة ليزر عالية الطاقة على شكل ومضات في نقطة معينة في العين لزمن قصير -أقل من ثانية-.

كما يستخدم الليزر في العمليات الجراحية مثل جراحة المخ والقلب والأوعية الدموية والجراحة العامة...

وتستخدم أنواع من أجهزة الليزر في الصناعة في قطع ألواح الصلب، قد يصل سمك اللوح منها ٣ سنتيمترات. وميزتها أنها تقطع بدقة متناهية حيث يُوجه جهاز الليزر بوساطة الكمبيوتر.

ومن استخدامات الليزر لحام المواد الصلبة والنشطة والمواد التي تتمتع بدرجة انصهار عالية مع امتيازها بدقة التصنيع بسبب إطلاقها لحزمة كثيفة ضيقة مركزة. كما تستطيع أشعة الليزر فتح ثقب قطره ٥ ميكرومتر خلال ٢٠٠ ميكروثانية في أشد المواد صلابة (الماس والياقوت الأحمر والتيتانيوم) وبفضل قصر مدة التصنيع لا يحدث أي تغير في طبيعة المادة.

كما أن لليزر استخداماً مهمًّا آخر وهو قياس المسافات بدقة متناهية، سواء المسافات القصيرة أو الطويلة . وأشعة الليزر تستطيع قياس عشرة أمتار دون إحداث خطأ يتجاوز واحد على عشرة آلاف من المتر .كما استخدمت أشعة الليزر في تحديد بعد القمر عن الأرض . وقد تم ذلك في السبعينيات حيث وضع رواد الفضاء على القمر

مرآة لعكس الليزر عند سقوطه عليها، وبعد ذلك وُجه شعاع ليزر من الأرض إلى القمر وبانعكاسه على المرآة على سطح القمر وعودته إلى الأرض استطاع العلماء حساب بعد القمر عن الأرض بدقة لم يتوصلوا إليها من قبل.
وهي تستخدم أيضا في تحديد الأهداف بدقة بالغة جدًّا، حيث إن كان الهدف على مسافة ٢٠كم ووجهنا شعاع ليزر فسوف ينحصر مقطع الشعاع في دائرة ضوئية قطرها ٧ سم فقط، وإذا أطلقت إلى القمر فسيكون قطر الدائرة المشكلة ٢.٣ كم فقط.

وتجري في أمريكا أبحاث هائلة لاستخدام الليزر ذي الطاقة العالية جدا لتدمير الصواريخ المعادية عالياً في الفضاء قبل وصولها إلى أمريكا، واستطاعوا تحقيق بعض النجاح على هذا الطريق ولكن الأبحاث لا تزال مستمرة، أولا لإتقان هذه التكنولوجيا الجديدة، ثم بناء شبكة عظمى لاكتشاف الصواريخ المعادية حين انطلاقها، ويتبع ذلك توجيه أجهزة الليزر القوي (أو سلاح الليزر) على الصاروخ المعادي لتدميره في الفضاء، وتتضمن هذه التكنولوجيا أيضا استخدام الأقمار الصناعية وقيامها بدور في هذا النطاق. وقد رصدت الولايات المتحدة أموالا باهظة لإحداث تقدم في هذا المشروع.

كما يأمل العلماء في استعمال الليزر في التوصل إلى الاندماج النووي للعناصر الخفيفة مثل الهيدروجين الثقيل والتريتيوم والليثيوم بغرض إنتاج الطاقة الكهربائية.

أول عملية نقل قلب

كانت زراعة القلب هي التحدي الحقيقي
لجراحي زراعة الأعضاء

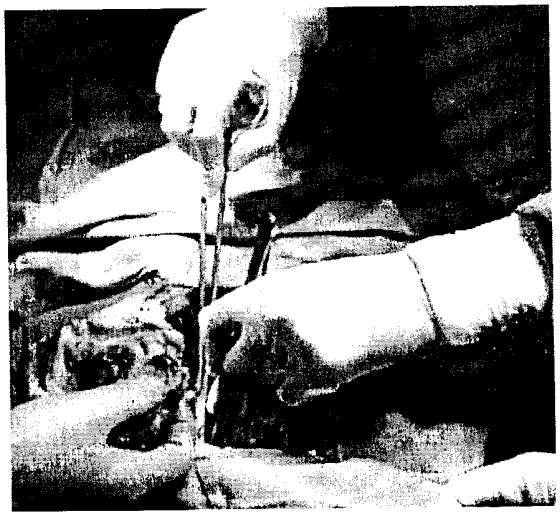

في عام ١٩٥٤م كانت أول عملية ناجحة لزراعة عضو، حين نجح كل من الجراحين جوزيف موراي وجي هارتويل هاريسون في إجراء عملية زراعة كلى بين توأمين متماثلين، ويرجع نجاح هذه العملية إلى عدم الحاجة إلى تثبيط المناعة في حالات التوائم المتطابقة وراثيًا.

وقد مهد نجاح الدكتور موراي في عمليات زراعة الكلى لإجراء محاولات لزراعة أعضاء أخرى. وفي يونيو ١٩٦٣م نجح الجراح الأمريكي جيمس هاردي في نقل رئة من أحد المتبرعين المتوفين إلى أحد المصابين بمرض سرطان الرئة وذلك في مدينة جاكسون بولاية ميسيسيبي الأمريكية .وقد ظل المريض على قيد الحياة لثمانية عشر يومًا قبل أن يموت بسبب الفشل الكلوي. وفي العام نفسه، حاول توماس ستارزل إجراء عملية زراعة كبد، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل وذلك حتى عام ١٩٦٧.

كانت زراعة القلب هي التحدي الحقيقي لجراحي زراعة الأعضاء. لكن، كما هي الحال مع المسائل المتعلقة برفض الجسم للعضو المزروع، تتدهور حالة القلب في غضون دقائق من الوفاة، لذلك يجب إجراء أية عملية بأقصى سرعة، كذلك، كانت هناك حاجة ماسة إلى تطوير جهاز القلب والرئة.

قام جيمس هاردي، رائد جراحات الرئة، بمحاولة زراعة قلب لإنسان في عام ١٩٦٤، ولكن الفشل المبكر الذي أصاب قلب المتلقي لم يمنح هاردي الفرصة للعثور على متبرع بشري، ولذلك استخدم قلب شمبانزي، ولكنه فشل بشكل سريع للغاية.

وفي ٣ ديسمبر ١٩٦٧م أجريت أولى المحاولات الناجحة لنقل القلب بواسطة كريستيان برنارد في مدينة كيب تاون، الواقعة في جنوب إفريقيا، إذ نقل للمريض لويس واشكانسكي، قلب امرأة توفيت في حادث سير، وبعد ١٨ يوماً توفي المريض بسبب التهاب رئوي.

ودفع اهتمام وسائل الإعلام إلى إجراء سلسلة من عمليات زراعة القلب. وأجريت أكثر من مائة عملية في الفترة من ١٩٦٨-١٩٦٩، ولكن غالبية المرضى توفوا في غضون ستين يومًا. ولكن الحالة الثانية لبرنارد عاشت لمدة ١٩ شهرًا، وكان مريضًا يُدعى فيليب بليبرج.

وكان ظهور السيكلوسبورين بمثابة ثورة نقلت زراعة الأعضاء من مصاف الجراحات البحثية إلى أساليب العلاج التي تؤدي إلى إنقاذ حياة البشر.

وفي عام ١٩٦٨، أجرى رائد جراحات زراعة الأعضاء دنتون كولي ١٧ عملية زراعة أعضاء بما في ذلك أول عملية من نوعها لزراعة قلب ورئة معًا. وقد أسفرت هذه العمليات عن وفاة أربعة عشر من مرضاه في غضون ستة أشهر من إجراء العملية. وبحلول عام ١٩٨٤، كان ثلثا من يجرون عمليات زراعة قلب يعيشون لمدة خمس سنوات فأكثر.

ومع انتشار عمليات زراعة الأعضاء، على الرغم من ندرة المتبرعين، انتقل الجراحون إلى مجالات أكثر خطورة، ألا وهي زراعة عدة أعضاء في الجسم البشري، والقيام بأبحاث حول إمكانية إجراء جراحات زراعة المخ في الحيوانات.

في ٩ مارس ١٩٨١، أجريت أول عملية ناجحة لزراعة قلب ورئة معًا في مستشفى جامعة ستانفورد. وقد أرجع رئيس الفريق الجراحي بروس ريتز تعافي المريض إلى استخدام دواء السيكلوسبورين-أ.

الهبوط على سطح القمر

إحدى معارك الحرب الباردة الفضائية

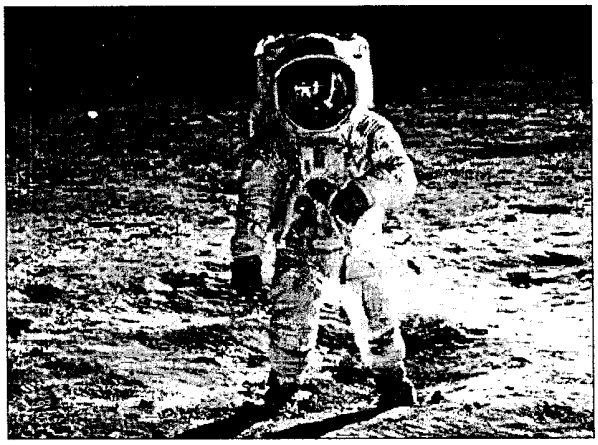

في يوم ٢١ يوليو ١٩٦٩ في تمام الساعة ٢٠:٥٦:٢ صباحاً بالتوقيت العالمي، وطأت قدم رائد الفضاء الأمريكي نيل آرمسترونج سطح القمر قائلا: إنها خطوة صغيرة لإنسان، ولكنها قفزة كبيرة للبشرية..

وبعد ذلك بنحو ٢٠ دقيقة خرج إليه زميله ألدرن من المركبة القمرية. وبدأ الرائدان نصب عدة أجهزة للتجارب العلمية على سطح القمر، منها تعليق شريحة ألمونيوم لقياس الريح الشمسية على القمر واستعادتها وقت الإقلاع. وقاما بنصب علم الولايات المتحدة الأمريكية وكان من الصعب غرسه، فلم يُغرس سوى نحو ١٠ سنتيمترات في تربة القمر. كما قاما بتركيب مقياس الزلازل الذي يعطي معلومات عن مدى النشاط الزلزالي على القمر، إلا أن هذا الجهاز تعطل عن العمل خلال الليلة الأولى على القمر بعد ذلك. وثبت الرائدان أيضا عاكسا لأشعة الليزر على سطح القمر يمكن به قياس البعد بين القمر والأرض بدقة بالغة. وبدأ الاثنان انتقاء عينات من صخور القمر ومن تربته، وجمعوا عينات تزن ٢١ كيلوجراما بغرض دراستها على الأرض. وانتهت فترة البقاء الأولى على القمر بعد ساعتين و٣١ دقيقة.

كان حدثاً غير مسبوق في التاريخ البشري، وجاء في سياق التنافس الفضائي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي خلال فترة الحرب الباردة، وقد تم إرسال خمس رحلات أخرى تحمل رواد فضاء لتهبط على سطح القمر. وبعد ذلك اتجه علماء الفضاء الأمريكان إلى مجالات جديدة حيث تم بناء محطة فضائية "Sky Lab" لجمع بيانات، وبرنامج المكوك الفضائي.

بدأت تقل المنافسة على غزو الفضاء بعد هبوط الأمريكان على سطح القمر وجاءت نهاية السباق بشكل واضح بالمهمة المشتركة بين الدولتين التي تسمى «أبولو-سيوز» في عام ١٩٧٥. حيث التحمت مركبة الفضاء السوفيتية «سيوز ١٩» مع مركبة الفضاء الأمريكية «أبولو»، وقام رواد الفضاء من كلا الدولتين بالعبور إلى مركبات بعضهم البعض وإجراء التجارب المشتركة.

إنشاء شبكة آربانت

الخطوة الأولى نحو إنشاء شبكة الإنترنت

في أوائل الستينيات افترضت وزارة الدفاع الأمريكية وقوع كارثة نووية ووضعت التصورات لما قد ينتج عن تأثير تلك الكارثة على الفعاليات المختلفة للجيش، وخاصة فعاليات مجال الاتصالات الذي هو القاسم المشترك الأساسي الموجه والمحرك لكل الأعمال.

كلفت الوزارة مجموعة من الباحثين لدراسة مهمة إيجاد شبكة اتصالات تستطيع أن تستمر في الوجود حتى في حالة هجوم نووي، وللتأكد بأن الاتصالات الحربية يمكن استمرارها في حالة حدوث أي حرب.

وأتت الفكرة وكانت غاية في الجرأة والبساطة، وهو أن يتم تكوين شبكة اتصالات Network ليس لها مركز تحكم رئيسي، فإذا ما دمرت أحدها أو حتى دمرت مائة من أطرافها فإن على هذا النظام أن يستمر في العمل. وفي الأساس فإن هذه الشبكة المراد تصميمها كانت للاستعمالات الحربية فقط.

في ذلك الوقت لم يكن أي نوع من الشبكات Networks قد بنيت على الإطلاق ولهذا فان الباحثين تُركوا لخيالهم ... وأسسوا شبكة أُطلق عليها اسم شبكة وكالة مشروع الأبحاث المتقدمة Advanced Research Projects Agency Network (ARPANET) وذلك كمشروع خاص لوزارة الدفاع الأمريكية، وكانت هذه الشبكة بدائية وتتكون من أربعة كمبيوترات مرتبطة ببعضها بواسطة توصيلات التلفون في مراكز أبحاث تابعة لجامعات أمريكية.

لقد جعلت الوزارة هذه الشبكة ميسرة للجامعات ومراكز الأبحاث والمنظمات العلمية الأخرى ولإجراء الأبحاث من أجل دراسة إمكانيات تطويرها، ونتيجة لهذا الوضع فإن ARPANET قد نمت بشكل ملحوظ، والشبكة التي كانت بسيطة تحولت إلى نظام اتصالات فعال.

السنوات التي تلت جاءت معها بتغييرات كثيرة، وفي ذلك الوقت فإن الوصول للشبكة كان قاصراً على الجيش والجامعات والباحثين، ونتيجة لهذا الوضع فلقد أصبحت ARPANET عبارة عن شبكه تتكون من شبكات ذات مفاتيح وأطراف متعددة، وترسل المعلومات فيها باستخدام تقنية تفتيتها إلى مجموعات Packets أصغر، تتحرك بحرية واستقلالية من طرف إلى آخر لتصل إلى مبتغيها.

كان هذا المشروع غير معروف حتى سنة ١٩٨٠م حين تم إظهاره للضوء، ومنذ ذلك الحين فإن التغييرات أصبحت تحدث بسرعة كبيرة واستمر هذا النظام في الاتساع.

ما بين سنتي١٩٨٢و ١٩٨٥م كانت ولادة الإنترنت فلقد انقسمت ARPANET سنة ١٩٨٣م إلى قسمين ARPANET و MILNET واستخدمت الأولى في جهود الأبحاث المدنية أما MILNET فاحتُفظ بها للاستخدامات العسكرية.

منذ سنة ١٩٨٠م فإن شبكات جديدة عديدة تكونت لخدمة بعض الفئات والمنظمات.. إحدى هذه الشبكات كانت للمجتمعات الأكاديمية، وأخرى لمنظمات أبحاث الكمبيوتر حيث وصّلت الباحثين بعضهم ببعض ليتشاركوا في المعلومات.

في سنه ١٩٨٦م كانت مؤسسة العلوم الوطنية ربطت الباحثين بعضهم ببعض في كافة أنحاء الولايات المتحدة من خلال خمسة كمبيوترات عملاقة، وسميت هذه الشبكة باسم NSFNET . لقد تكونت هذه الشبكة من مراكز لخطوط الإرسال المتكونة من الألياف الضوئية ومن الأسلاك العادية، وبمساعدة الاتصالات عبر الأقمار الصناعية والموجات الدقيقة Microwave وذلك كي تحمل كميات هائلة من المعلومات التي تتحرك سريعاً جدًّا ولمسافات بعيدة... إن هذه الشبكة NSFNET كونت العمود الفقري للبنية التحتية للإنترنت وخاصة بعد أن رفعت الحكومة الأمريكية يدها عنها.

بدأت تقديم خدمة الإنترنت للناس عمليًّا في سنة ١٩٨٥م وكان عدد المشتركين يتزايد بشكل كبير، وأصبحت الإنترنت الآن أكبر شبكة في تاريخ البشرية.

لا تحاول البحث عن المركز الرئيسي للإنترنت في أي مدينة ولا في أي مكان في العالم لسبب بسيط هو أن الإنترنت ليست لها إدارة أو مركز رئيسي على الإطلاق. وبدلاً من ذلك فإنها تُدار من تشكيلة من آلاف شبكات الكمبيوتر التابعة للشركات والأفراد، كل منهم يقوم بتشغيل جزء منه كما يدفع تكاليف ذلك. وكل شبكة تتعاون مع الأخرى لتوجيه حركة مرور المعلومات حتى تصل لكل منهم، وبمجموع هؤلاء تتكون الشبكة العالمية، ولهذا لا يملك أحد الإنترنت.

زيـــارة الســـادات للقـــدس

على عكس المعلن كان للسادات توجهات
وأفكار أخرى مناقضة لأفكار وتوجهات جمال
عبد الناصر..

السادات لحظة نزوله في المطار

كان من أسباب تشكيل الضباط الأحرار الذي قام بحركة يوليو ١٩٥٢م، التي قضت على الملكية في مصر وحولتها للنظام الجمهوري، الهزيمة التي تلقتها الجيوش العربية في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، لذا لم يكن الرئيس المصري جمال عبد الناصر ليعترف بالدولة الصهيونية (إسرائيل) أو يقيم معها علاقات سرية على الأقل، كما حاولت بعض الأنظمة العربية أن تفعل .

كان عبد الناصر يدرك بحسه السياسي والعسكري أن ذلك الكيان سيظل عدوًّا استراتيجيًّا لمصر والعرب مهما طال الزمن، لذا فقد مات عبد الناصر سنة ١٩٧٠م تاركاً ثلاث لاءات: لا اعتراف، لا تفاوض، لا صلح مع العدو الصهيوني.

حينما تولى أنور السادات الرياسة في مصر خلفاً لعبد الناصر أعلن أنه سيلتزم بسياسات سلفه، وسيكمل الجهود الرامية لتحرير سيناء والثأر من الهزيمة التي لقيها الجيش المصري في يونيو ١٩٦٧م.

ولكن في الحقيقة، وعلى عكس المعلن كان للسادات توجهات وأفكار أخرى مناقضة لأفكار وتوجهات جمال عبد الناصر، فقد قبل الرجل في فبراير ١٩٧١م بعد أشهر قليلة من توليه منصبه مبدأ الاعتراف والتصالح مع الدولة الصهيونية، عبر خطة عرضها عليه الأمين العام للأمم المتحدة، وتركزت مطالب الجانب الصهيوني في ثلاث نقاط: قرار صريح من النظام المصري بإنهاء الصراع مع الكيان الصهيوني، واحترام سيادة الدولة الصهيونية على ما اغتصبته من أرض فلسطين، وسلامتها، وإنهاء المقاطعة الاقتصادية العربية لها.

مع فشل تلك المبادرة، عاد السادات للحل الرئيسي من وجهة نظره، وهو شن حرب محدودة على الدولة الصهيونية تحرك الأوضاع وتجبرهم على قبول التفاوض على سيناء

والأراضي العربية الأخرى، وهذا ما تحقق في حرب اكتوبر ١٩٧٣م، وإن كان حجم الإنجازات التي حققها الجيش المصري في الأيام الأولى للحرب لم يكن متوقعاً بكل المقاييس.

وفي يناير من العام التالي وقع السادات على اتفاق فض الاشتباك، واستمرت حالة من اللا هدنة واللا حرب طوال السنوات التالية، ومعها استمرت اتصالات السادات بالأمريكيين والصهاينة أملاً في الوصول لحل تفاوضي، دون جدوى، حتى حدث أمر جعل السادات يعجل بالخطوة الخطيرة التي أقدم عليها.

فقد اندلعت في مصر ثورة احتجاجات شاملة من أقصى الشمال لأقصى الجنوب، بسبب سوء الأوضاع المعيشية، ووصل الأمر لدرجة استعداد السادات لمغادرة البلاد وطلب اللجوء السياسي، لولا أن بوادر الثورة الشعبية لم يكن لها قيادة توجهها، هنا أدرك السادات أنه فقد شرعيته الداخلية، وبحث عن الشرعية والحماية لدى الأمريكيين، وكانت زيارة القدس في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ هي الثمن الذي قرر دفعه..

كانت صدمة كبيرة للمصريين وعموم العرب، الذين شبوا وترعرعوا في الحقبة الناصرية على معاداة الكيان الصهيوني، وهم يرون رئيس أكبر دولة عربية ـ خليفة جمال عبد الناصر ـ وهو يتوجه للقدس المحتلة، عارضاً الصلح على الدولة الصهيونية، ثم يقبل في مارس ١٩٧٩م معاهدة للسلام مع الصهاينة تنتقص من سيادة مصر على أراضيها وتجعلها تابعاً للولايات المتحدة وخادماً للدولة الصهيونية..

في الغرب المتحالف مع الدولة الصهيونية، كان طبيعيًّا أن تُستقبل الزيارة باحتفاء وإشادة وتشجيع للرئيس العربي الذي توجه إلى الإسرائيليين بالسلام والصلح، وفي مصر حاول الإعلام تسويغ الخطوة وتبريرها وإقناع الشعب بها، وانتهى أمر السادات باغتياله بعد عامين في ٦ أكتوبر ١٩٨١م وهو يحتفل بذكرى انتصاره المحدود على الصهاينة، وإن بقيت الآثار الخطيرة للزيارة والمعاهدة التي أبرمها السادات..

فقد مثلتا أول اعتراف عربي بالحق المزعوم للصهاينة في أرض فلسطين، وجعلت حق العرب في فلسطين يقتصر على حدود ٤ يونيو ١٩٦٧م، كما جعلت معاهدة السلام

من مصر صديقاً دائماً للدولة الصهيونية، مفروضاً عليه التعامل معها وديّاً، والتعاون معها في كافة المجالات، وبذلك خرجت مصر من ساحة الصراع العربي الصهيوني.

عربياً، قاطعت غالبية الدول العربية مصر، ونقل العرب مقر جامعة الدول العربية من القاهرة لتونس.

ومع مرور السنين نجح النظام المصري، بمعاونة أمريكية، في جر باقي الأنظمة العربية لمعسكر الاعتراف والتطبيع بالكيان الصهيوني في مقابل إعادة الأرض التي احتلت في عام ١٩٦٧م، وفي هذا الإطار خرجت «المبادرة العربية للسلام» التي اعتمدتها القمة العربية عام ٢٠٠٢م، وهي تنص على اعتراف كافة الدول العربية بالدولة الصهيونية وتطبيع العلاقات معها شريطة العودة لحدود ٤ يونيو ١٩٦٧م، بما يعني التنازل عن الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨م، وترسيخ الوجود الصهيوني للأبد.

عودة الخميني لإيران

وبعد عدة أيام سمح رئيس الوزراء
بعودة الخميني إلى إيران وطلب منه تأسيس
دولة مثل الفاتيكان في مدينة قم..

في الأول من فبراير ١٩٧٩م عاد الخميني من باريس إلى طهران في إعلان عن انتصار الثورة الإيرانية، وقد استقبلته الجماهير الحاشدة في المطار، باعتباره قائد الثورة وملهمها..

كان الشاة وزوجته قد غادرا إيران نزولاً على طلب رئيس الوزراء الدكتور شابور بختيار، الذي كان لفترة طويلة زعيم المعارضة، فابتهجت الجماهير، ودمرت خلال ساعات «كل رموز سلالة بهلوي»، وأعلن بختيار حل البوليس السري (سافاك) وأفرج عن السجناء السياسيين، ووعد بانتخابات حرة وأمر الجيش بالسماح للمظاهرات الشعبية. وبعد عدة أيام سمح بعودة الخميني إلى إيران وطلب منه تأسيس دولة مثل الفاتيكان في مدينة قم، ودعا المعارضة للمساعدة على الحفاظ على الدستور.

أوضح الخميني في كلمة ألقاها في يوم وصوله شدة رفضه لنظام رئيس الوزراء بختيار، ووعد الجماهير:«سوف أركل أسنانهم لقلعها»!!

وبالفعل عين الخميني مهدي باذرخان ـ منافس بختيار ـ رئيساً للوزراء مؤقتاً، وقال: «بما أنني قد عينته، فيجب أن يُطاع»، واعتبر أنها «حكومة الله» وحذر من عصيانها، فأي عصيان لها «عصيان لله»، وفيما راحت حركة الخميني تكتسب مزيداً من الزخم، بدأ الجنود بالانضواء في جانبه، واندلع القتال بين الجنود الموالين والمعارضين للخميني بإعلانه الجهاد على الجنود الذين لم يسلموا أنفسهم.

وفي ١١ فبراير، انتصر الخميني على خصومه، حين أعلن المجلس العسكري الأعلى نفسه «محايداً في النزاعات السياسية الراهنة، لمنع المزيد من الفوضى وإراقة الدماء»، فانهارت الحكومة غير الموالية للخميني، وفي فترة قليلة تحولت إيران إلى «الجمهورية الإسلامية»، وصار الخميني هو المرشد الأعلى للجمهورية، وحاكمها المطلق.

اكتشاف مرض الإيدز

هناك الكثير من النظريات التي تحاول إيجاد تفسير لنشأة فيروس الإيدز، وكيفية انتشار الوباء بهذا الشكل على مستوى العالم، إلا أن أيّاً منها لم يصل إلى درجة اليقين من خلال البحث العلمي - ولن يصل بالطبع - لأن هناك من يمنع ذلك..

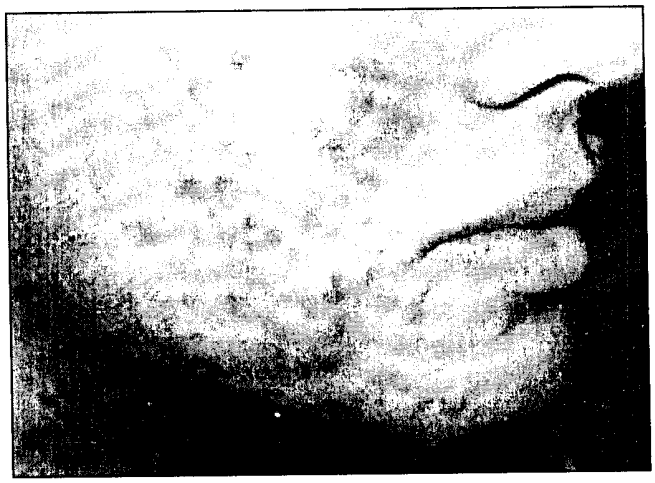

في الخامس من يونيو ١٩٨١ كتب الطبيب الأمريكي مايكل كوتلبز تقريراً عن حالة خمسة شواذ من لوس أنجلوس حملوا أعراض مرض جديد. وقد نشر التقرير في مجلة «التحكم بالأمراض» التابعة لوزارة الصحة الأمريكية، واعترض عليه معظم الأطباء. فالأطباء كانوا يعرفون بوجود المرض في قردة الشمبانزي منذ عام ١٩٥٩. ولكن لم يثبت أبداً إصابة الإنسان به، وكان يعتقد باستحالة انتقاله من القردة بسبب ما يعرف بالحاجز المناعي بين الأنواع. ولكن وبطريقة غير مفهومة تحور فيروس الإيدز إلى نوع يصيب الإنسان وهو ما استدعى فرضيات غريبة ـ مثل القول إنه أحد الأسلحة الجرثومية المحورة، أو إن المخابرات الأمريكية صنعته خصيصاً للحد من تناسل الشعوب الفقيرة!!...

كلمة AIDS منحوتة من تعريف المرض باللغة الإنجليزية (في حين يطلق عليه الفرنسيون اسم سيدا) وكلاهما يعني «مرض نقص المناعة المكتسب». وكما يشير التعريف يصيب الإيدز جهاز المناعة لدى الإنسان وبالتالي يتركه (مكشوفاً) أمام الأمراض المعدية والخطيرة. ففيروس الإيدز يدمر كريات الدم البيضاء ويلغي مهمتها المناعية، مما يجعل (حتى الأمراض البسيطة) خطيرة ومميتة.. ورغم هذا لوحظ أن أمراضاً معينة تسبق غيرها لدخول الجسم فور انهيار جهاز المناعة، وتعرف باسم «الأمراض الانتهازية» مثل تخمج الرئة، وسرطان الجلد!!

يسبب مرض الإيدز فيروس يدعى HIV تم التعرف عليه لأول مرة في فرنسا عام ١٩٨٣م. وفي عام ١٩٨٥ ابتكرت طرق سريعة ورخيصة للكشف عن وجوده.

وقد يكمن الفيروس في جسم الإنسان لعشر سنوات بدون أن تظهر عليه أعراض المرض.. والعدوى تنتقل من خلال الاتصال الجنسي، أو بتلقي الدم الملوث، أو من الأم إلى جنينها. ولم يثبت أبداً انتقال الإيدز بواسطة الهواء أو الغذاء أو الملامسة أو المشاركة في السكن وأدوات المطبخ.. فالقاعدة هنا أن الإيدز ينتقل مع السوائل البشرية ـ كالمني والدم واللعاب ـ إذا انتقلت من جسم لآخر!!

وهناك الكثير من النظريات التي تحاول إيجاد تفسير لنشأة فيروس الإيدز، وكيفية انتشار الوباء بهذا الشكل على مستوى العالم، إلا أن أيًّا منها لم يصل إلى درجة اليقين من خلال البحث العلمي - ولن يصل بالطبع - لأن هناك من يمنع ذلك. وتتراوح التفسيرات ما بين فكرة المؤامرة، والخطأ، إلى فكرة انتقال العدوى من الحيوانات - خاصة الشمبانزي - وأكثر النظريات قبولا والتي تفسر نشأة فيروس الإيدز هي نظرية «الصيادHunter theory »، وتشير هذه النظرية إلى أن انتقال عدوى الإيدز إلى الإنسان تمت من خلال نوع معين من الشمبانزي من سلالة «بان تروجلودايتس تروجلودايتس» أصابته عدوى فيروس نقص المناعة السيمياني SIV ، وأثناء عمليات الصيد انتقلت العدوى للإنسان إما من خلال العض من الشمبانزي أثناء نقله، أو نتيجة لوجود جرح في جلد الإنسان يجعل دم الشمبانزي يختلط بدمه أو ربما من خلال بعض الممارسات الجنسية الشاذة مع بعض هذه الحيوانات، ثم حدثت بعد ذلك طفرة حولت هذا الفيروس إلى فيروس «HIV» المسبب للإيدز.

وفي عام ٢٠٠٦ نشرت دراسة تشير إلى أن فيروس الإيدز جاء في الغالب من نوع من الشمبانزي يعيش في غابات المنطقة الشرقية من الكاميرون وبنسبة أقل في كينشاسا والكونغو، ومن خلال ٧ سنوات من البحث والدراسة على ما يقرب من ١٣٠٠ من هذا النوع من الشمبانزي، استطاع فريق البحث من جامعة ألاباما في برمنجهام الوصول إلى هذه النتيجة، من خلال التحليل الجيني للعينات التي تم أخذها من الشمبانزي، وبحساب نسبة حدوث الطفرات يقدر العلماء بداية ظهور هذا الفيروس في الفترة ما بين عامي ١٩١٥ و١٩٤١. وقد انتقل الفيروس من إفريقيا إلى جزيرة هايتي ومنها إلى الولايات المتحدة.

وفي عام ٢٠٠٧ أيضاً نُشرت دراسة تشير إلى أن فيروس الإيدز قد انتقل إلى الولايات المتحدة من جزيرة هايتي عبر الشواذ جنسيًّا، حيث كان الأميركيون يذهبون للسياحة وممارسة الجنس الشاذ هناك، وكان قد انتقل إلى «هايتي» من إفريقيا الوسطى والكونغو.

أما النظرية الثانية فهي نظرية «لقاح شلل الأطفال» وتشير إلى أن فيروس الإيدز انتقل إلى الجزء البلجيكي من الكونغو في إفريقيا في الخمسينات من القرن الماضي بواسطة هيلاري كوبروفسكي التي كانت تعمل باحثة في مجال لقاح شلل الأطفال الذي يؤخذ عن طريق الفم، والذي تم تحضيره على نسيج الكلى لهذا النوع من الشمبانزي، ومن خلاله انتقل فيروس نقص المناعة السيمياني من الشمبانزي إلى الإنسان، وحدثت له طفرة وتحول إلى فيروس HIV ، إلا أنه في فبراير عام ٢٠٠٠ تم العثور على زجاجة من تطعيم شلل الأطفال الذي تم استخدامه خلال هذه الفترة في معهد «ويستار» في فيلادلفيا بالولايات المتحدة، وتم تحليلها ولم يتم العثور لا على فيروس الإيدز HIV أو فيروس نقص المناعة السيمياني SIV .

وفي دراسة أخرى ثبت أن نسيج الكلى لا يمكن أن تتم عدواه بأحد هذين الفيروسين، وبالتالي فإن نظرية «لقاح شلل الأطفال» لم تثبت أيضاً علميًّا ورفضت بواسطة العلماء المتخصصين. وبعض العلماء يعتقدون أن فيروس الإيدز ما هو إلا صناعة أميركية، حيث تم تصنيعه كسلاح بيولوجي في المعامل البيولوجية العسكرية في «فورت ديريك» بميريلاند من خلال دمج جينات نوعين من الفيروسات هي Visna ، وأيضا HTLV-1، وبناءً على هذه النظرية، فمن المتوقع أن هذا حدث ما بين عامي ١٩٧٧ – ١٩٧٨، حيث تمت تجربته على المساجين بعد أخذ موافقتهم في مقابل أن يتم الإفراج المبكر عنهم، ويعتقد أن هؤلاء المساجين هم النواة الأولى التي نقلت بذرة الوباء بعد خروجهم من السجن حسب نظرية عالم البيولوجيا الألماني جالوب سيجال الذي اتهم بعد ذلك بأنه عميل سوفيتي يروج لهذه النظرية لصالح السوفيت.

والحقيقة أن هناك كثيرين يؤيدون هذه النظرية ومنهم فاجناري مآثاي الحاصلة على جائزة نوبل للسلام، وأيضاً فاسيلي متروخوم وكذلك آلان كانتويل الذي يعتقد أن هذا الفيروس قد تم تصنيعه من خلال الهندسة الوراثية لفيروسات موجودة بالفعل بهدف إبادة أجناس معينة، وتمت تجربته على الشواذ جنسيًّا من خلال التجارب على فيروس الكبد الوبائي «ب B» ما بين أعوام ١٩٧٨ – ١٩٨١ في كل من لوس أنجليس

- نيويورك، سان فرانسيسكو، سانت لويس - دينيفر - شيكاغو، ويعتقد د. كانتويل أن الذي أشرف على هذه التجارب كان اسمه د. وولف زمونس، وأنه حدث نوع من الإخفاء لهذه التجارب عن وسائل الإعلام عندما تم البحث عن مصدر فيروس الإيدز. إلا أن هناك أبحاثاً أخرى تعارض نظرية المؤامرة هذه ودور الولايات المتحدة فيها، فهناك تحاليل تم إجراؤها على الدم المختزن منذ أغسطس عام ١٩٥٩ على أحد البحارة الذي ظهرت عليه كل أعراض الإيدز ودخل أحد المستشفيات بمانشستر في إنجلترا، وبالطبع لم يتم اكتشاف سبب انهيار الجهاز المناعي وظهور العدوى الانتهازية والأورام، ولأن الحالة كانت محيرة، فقد تم الاحتفاظ بعينات من دم المريض قبل وفاته حتى تم إعادة تحليلها في عام ١٩٩٠ وثبت وجود فيروس الإيدز بها ونشر هذا البحث في مجلة «لانسيت» الطبية إلا أنهم عادوا ليلصقوا التهمة مرة أخرى بإفريقيا، حيث عادت المجلة ونشرت على لسان الباحثين أنفسهم عام ١٩٩٦ أنهم أخطأوا في التحليل، وأن العينات كانت ملوثة بعينات أخرى من الفيروس لينفوا التهمة عن أجناس الشعوب البيضاء المتقدمة ويلصقوها بالقارة السمراء.

وفي بحث آخر تأكد وجود فيروس الإيدز في عينات لرجل من كينشاسا في إفريقيا تم الاحتفاظ بدمه منذ عام ١٩٥٩، ولرجل آخر من جزيرة «هايتي» كانا مصابين بنفس أعراض الإيدز وماتا في العام نفسه، وثبت وجود عدوى فيروس الإيدز في العينات التي تم الاحتفاظ بها قبل موتهما.

وهناك بعض النظريات الأخرى التي نشرت في هذا السياق عن أصل فيروس الإيدز ولكنها لم تلقَ صدًى أو قبولا واسعاً في المحافل العلمية مثل تلك التي يتبناها «بيتر دويسبرج» منذ عام ١٩٨٤ وحتى الآن، وتشير إلى أن فيروس HIV ليس هو السبب في حدوث مرض الإيدز ولكن هناك عوامل أخرى مثل الفقر والجوع وسوء التغذية والأمراض والطفيليات المزمنة والتلوث والعوامل البيئية الأخرى، هي التي تؤدي إلى انهيار الجهاز المناعي، إلا أن دويسبرج لم يستطع أن يثبت لماذا لا يحدث كل

اختراع الكمبيوتر الشخصي

ظهر أول حاسب آلي في بداية الأربعينيات من القرن العشرين، وكان يتسم بضخامة الحجم والبطء الشديد وكان يحتاج إلى مساحات واسعة وتجهيزات خاصة وكانت إجراءات التعامل معه معقدة تحتاج إلى متخصصين.

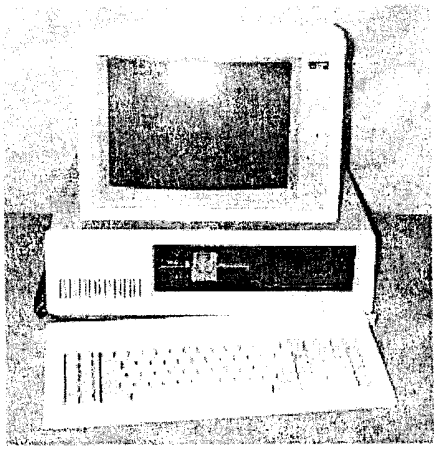

في عام ١٩٨١م أنتجت شركة آي بي إم الأمريكية أول جهاز كمبيوتر شخصي أطلقت عليه جهاز الكمبيوتر الشخصي من آي بي إم I.B.M Personal Computer، وشاع استخدام هذه التسمية حتى أُطلقت على كل جهاز كمبيوتر صغير.

الكمبيوتر أو الحاسوب ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية COMPUTER ، وقد شاع استخدام الكلمة الإنجليزية التي اشتُقت من الفعل COMPUTE أي حَسَبَ، وتطلق كلمة الحاسب أو الكمبيوتر على كافة الأحجام والأنواع من الحاسبات الآلية سواء أكان استعمالها للغرض الشخصي أو في مؤسسة أو شركة، أو أن يستخدم لأغراض بعينها في الصناعات المختلفة، وأصبح الكمبيوتر الآن عنصرا رئيسيا في مختلف نواحي الحياة، حتى بات الجهل باستخدام الكمبيوتر هي الأمية الحقيقية في هذا العصر.

وظهر أول حاسب آلي في بداية الأربعينيات من القرن العشرين، وكان يتسم بضخامة الحجم والبطء الشديد وكان يحتاج إلى مساحات واسعة وتجهيزات خاصة، وكانت إجراءات التعامل معه معقدة تحتاج إلى متخصصين.

لكن على مدار الخمسين عاما التي تلت ظهور أول كمبيوتر حدثت تطورات وطفرات، تمثل أولها في مرحلة الصمامات الزجاجية، ثم مرحلة الترانزستور الذي تم اختراعه بواسطة معامل شركة «بل»؛ مما أدى إلى تخفيض حجم الكمبيوتر وسعره وتكاليف صيانته وتبريده.

وكانت مرحلة المعالجات الدقيقة Processor و(أي وحدة المعالجة المركزية التي على قطعة واحدة) التي أسستها شركة إنتل Intel خطوة محورية في تاريخ الكمبيوتر حيث

دخلت بعد ذلك شركات كبيرة حلبة السباق، مثل زيلوج Zilog وموتورولا Motorolaوآبل Apple وأتاري. Atari

وفي العام ١٩٨٩ أعلنت أنتل عن ظهور معالجات (٨٠٤٨٦)، والذي يحتوي على مليون ترانزستور قادر على تنفيذ ١٥ مليون عملية في الثانية، وشهد عام ١٩٩٣ ميلاد معالجات طراز بنتيوم"Pentium" ، أو (٨٠٥٨٦) بطرازات وسرعات مختلفة تقترب من ٣٠٠ مليون ذبذبة في الثانية، وقادرة على إجراء عمليات لـ ٦٤ رقما ثنائيًا.

اختراع البريد الإلكتروني

رغم أنه لا يزال حيًّا.. فلا أحد يتذكر صاحب
هذا الاختراع الخطير..

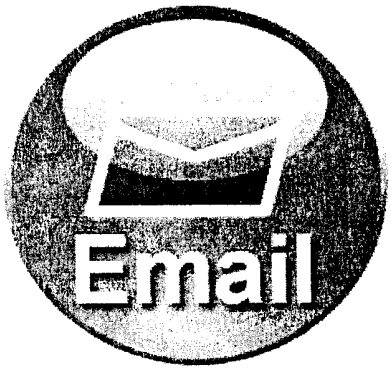

بالرغم من أن التاريخ يذكر بكثير من الوفاء هؤلاء الأشخاص الذين ابتكروا وسائل الاتصالات كالتليفون والراديو والتلغراف، فإن هذا التاريخ يكاد يغفل أحد أهم الشخصيات التي تركت بصماتها على سجل التقدم والحضارة الإنسانية، إنه المخترع (راي توملينسون)، الذي ابتكر لنا البريد الإلكتروني الذي نعتمد عليه حالياً في تواصلنا مع الآخرين .

عمل راي توملينسون كموظف بسيط في شركة (بي بي إن) الأمريكية بعد أن تخرج في عام ١٩٦٥ من معهد ماساشوستس الشهير للتكنولوجيا، وقد كلفت وزارة الدفاع الأمريكية شركته التي يعمل بها لبناء شبكة اتصالات آربانت (جدة الإنترنت)، وكان الهدف منها ربط كافة المعاهد العلمية والجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية لتبقى على تواصل فوري، وقد عمل توملينسون على إعداد برنامج بسيط لكتابة الرسائل على الكمبيوتر، أطلق عليه اسم SNDMSG، والهدف منه أن يكتب أحد الموظفين رسالة ويتركها للآخرين لكي يطلعوا عليها، وذلك ضمن ملف مثبت على جهاز الكمبيوتر بإمكانياته آنذاك.

كان الهدف الأساسي لبرنامج SNDMSG تدوين الملاحظات والمهام المنجزة أو التي يجب إنجازها، بحيث يتمكن الموظف الذي سيعمل لاحقاً على نفس جهاز الكمبيوتر من معرفة ما أنجز من أعمال وما يجب عليه القيام به دون حاجة لعقد لقاءات متكررة بين الموظفين .

وجاء عام ١٩٨١ ليظهر أول كمبيوتر شخصي في العالم، كان خلالها توملينسون يصمم برنامج CYPNET الخاص بنقل وتبادل الملفات بين أجهزة الحاسوب المختلفة المرتبطة بشبكة آربانت.

ما كاد توملينسون يفرغ من برنامج CYPNET الخاص بنقل الملفات عبر أجهزة الحاسوب المرتبطة بشبكة آربانت، حتى لمعت في ذهنه فكرة ربط برنامج

CYPNET وبرنامج SNDMSG المخصص بكتابة الرسائل، ليصبحا برنامجاً واحداً، وهكذا ظهر ما يعرف بالبريد الإلكتروني القادر على نقل الرسائل بين أجهزة الكمبيوتر المرتبطة ضمن نظام شبكة واحدة، وبالرغم من ذلك، فإن عدم توفر إمكانية التعرف على مصدر الرسالة، بقيت عائقاً أمام اكتمال الفكرة، حيث كان وقتها ١٥ جهاز كمبيوتر فقط، مرتبطة على شبكة آربانت موزعة في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن هنا كان لا بد من ابتكار رابط أو رمز يجمع بين اسم المرسل وموقعه .

يقول توملينسون:«تأملت لوحة المفاتيح، حاولت العثور على رمز لا يستعمله الأشخاص عادة ضمن أسمائهم، فكان الرمز @ هو ما اخترته من الرموز الموجودة على لوحة المفاتيح، إنه حرف الجر الوحيد الموجود على لوحة المفاتيح ويعني(at) .. لم يستغرق الأمر أكثر من ٣٠ ثانية للتفكير في هذا الرابط».

وهكذا تم اعتماد @ ليكون همزة الوصل بين اسم المرسل ومكان وجوده، وليتعرف بذلك الطرف الآخر على من أرسل الرسالة ومن أين تم الإرسال.

واكتملت الفكرة ..

أرسل راي توملينسون أول رسالة إلكترونية في التاريخ لنفسه في شهر يوليو١٩٨٢ تضمنت مجموعة من الحروف العشوائية وذلك في مقر شركة بي بي إن في ماساشوشتس .

وبالرغم من أهمية هذا الاختراع، لكن توملينسون لم ينشره، حتى إنه تحفظ على الفكرة، لكن دعم زملائه في العمل أدى إلى انتشار استخدام البريد الإلكتروني الجديد من قبل مستخدمي شبكة آربانت ومعظمهم من الباحثين والمحاضرين في الجامعات الأمريكية .

إن استخدام البريد الإلكتروني السابق كان محدودًا، نظرا للعدد المحدود من المستخدمين، وبذلك لم ينتبه العالم إلى أهميته، إلا عندما ظهرت شبكة الإنترنت الحديثة، والتي ضمت ملايين المستخدمين في شتى أنحاء العالم، الذين أقبلوا بشغف على استخدام هذا الاختراع الذي لم يسجله مخترعه راي توملينسون باسمه، وبذلك بقي اختراعاً بدون براءة اختراع، ومن هنا، أغفلت كتب التاريخ اسمه، وضاع اسم هذا العبقري في خضم تطور شبكة المعلومات الدولية المتسارعة.

اكتشاف البصمة الوراثية

برأت البصمة الوراثية مئات الأشخاص من جرائم القتل والاغتصاب وأدانت آخرين

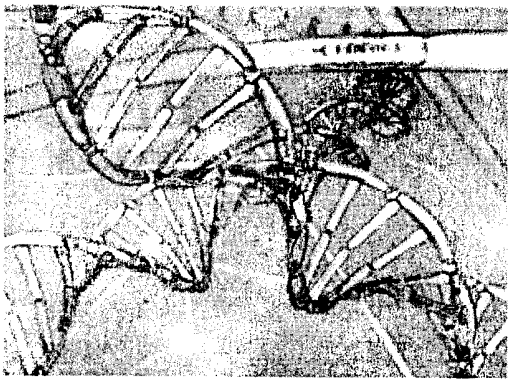

في عام ١٩٨٤ نشر د. «إليك جيفريز» عالم الوراثة بجامعة «ليستر» بلندن بحثًا أوضح فيه أن المادة الوراثية قد تتكرر عدة مرات، وتعيد نفسها في تتابعات عشوائية غير مفهومة.

وواصل أبحاثه حتى توصل بعد عام واحد إلى أن هذه التتابعات مميِّزة لكل فرد، ولا يمكن أن تتشابه بين اثنين إلا في حالات التوائم المتماثلة فقط ؛ بل إن احتمال تشابه بصمتين وراثيتين بين شخص وآخر هو واحد في الترليون، مما يجعل التشابه مستحيلاً ؛ لأن سكان الأرض لا يتعدون المليارات الستة، وسجل الدكتور «إليك» براءة اكتشافه عام ١٩٨٥.

وأطلق على هذه التتابعات اسم «البصمة الوراثية للإنسان وعرفت على أنها» وسيلة من وسائل التعرف على الشخص عن طريق مقارنة مقاطع "DNA " ، وتُسمَّى في بعض الأحيان الطبعة الوراثية "DNA typing" .

فى البداية استخدم اختبار البصمة الوراثية في مجال الطب، وفصل في دراسة الأمراض الجينية وعمليات زرع الأنسجة، وغيرها ولكنه سرعان ما دخل في عالم الطب الشرعي في التعرف على الجثث المشوهة، وتتبع الأطفال المفقودين. وأخرجت المحاكم البريطانية ملفات الجرائم التى قيدت ضد مجهول، وفتحت التحقيقات فيها من جديد، وبرأت البصمة الوراثية مئات الأشخاص من جرائم القتل والاغتصاب وأدانت آخرين، ولها الكلمة الفاصلة فى كثير من القضايا الآن.

انهيار الاتحاد السوفييتي

حين ظهرت ١٥ دولة مستقلة في يوم واحد

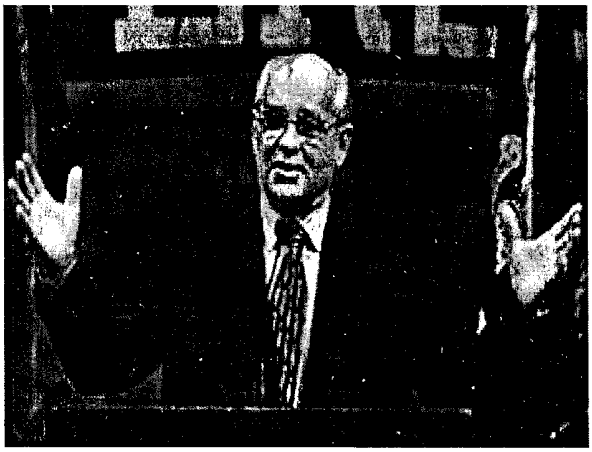

جورباتشوف

ولد الاتحاد السوفيتي من رحم الإمبراطورية الروسية التي أصابها الضعف والوهن مما حل بها من أحداث سياسية في بدايات القرن العشرين.

في فبراير ١٩١٧م اندلعت الثورة الروسية، التي اضطرت القيصر نيقولا الثاني للتنازل عن العرش، وتولت الأمور حكومة انتقالية، وما لبثت الأوضاع أن تفجرت واستطلاع البلاشفة الشيوعيون قيادة الثوار والاستيلاء على الحكم، وتطورت الأمور فيما بعد إلى الحرب الأهلية الروسية التي دامت أربعة أعوام كاملة فيما بين ١٩١٨ وحتى ١٩٢١.

في السادس والعشرين من ديسمبر تكون الاتحاد السوفييتي رسميًّا، من أربع جمهوريات: جمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية السوفييتية وجمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفييتية وجمهورية روسيا البيضاء الاشتراكية السوفييتية وجمهورية وراء القوقاز الاشتراكية السوفييتية، وإن كان اسم «روسيا» (كبرى الدول المؤسسة للاتحاد السوفيتي والوريث الشرعي له) ظل يطلق على الكيان السياسي الجديد لفترة من الوقت حتى مع وجود اسم «الاتحاد السوفيتي».

وبنظرة سريعة نجد أن الاتحاد السوفيتي لم تكن له حدود دولية ثابتة منذ نشأته، إذ تغيرت حدوده بتغير الزمن وتعاقب الأحداث التاريخية،حيث قاربت حدوده في أعقاب الحرب العالمية الثانية حدود الإمبراطورية الروسية السابقة خاصة بعد ضم مساحات شاسعة من الأراضي المجاورة لأراضيه، والتي تمثلت في دول البلطيق وشرق بولندا ومنطقة بس أرابيا في شرق أوربا، وبذلك كان الاتحاد السوفيتي قد استعاد كامل حدود الإمبراطورية الروسية ما عدا باقي الأراضي البولندية والفنلندية، وبحلول عام ١٩٥٦ كان الاتحاد السوفيتي قد أصبح كياناً ممثلاً لخمس عشرة دولة اتحادية.

ومنذ عام ١٩٤٥ وحتى تفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ (و هي الفترة التي عرفت في التاريخ بالحرب الباردة) مثل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة

الأمريكية القوتين العظميين المسيطرتين على الأجندة الدولية بكل جوانبها، سواء الاقتصادية أو تلك المتعلقة بالشؤون الدولية لباقي الدول وحتى العمليات العسكرية التي تشنها باقي الدول على بعضها البعض، إضافة إلى التبادل الثقافي والتقدم العلمي الشامل، خاصة في مجال أبحاث واستكشاف الفضاء، حتى امتدت السيطرة لمجال الألعاب والمسابقات الدولية مثل الألعاب الأوليمبية وبطولات العالم في الرياضات المختلفة.

وكما كانت البداية والولادة الرسمية في ديسمبر، فقد كانت النهاية والانهيار الرسمي في ديسمبر أيضاً، ففي يوم ٢١ ديسمبر ١٩٩١م أعلن رئيس الاتحاد السوفييتي ميخائيل جورباتشوف انتهاء الاتحاد السوفييتي، رسميًّا، كدولة فيدرالية، لتظهر بدلاً منه ١٥ جمهورية مستقلة، انضمت في رابطة سياسية شكلية، هي رابطة كومنولث الدول المستقلة.

كان قدوم الرئيس جورباتشوف، وخطط الإصلاح التي أعلن عنها، مثل البريسترويكا، قد مهد الطريق لانهيار الاتحاد، فقبيل الانهيار قام عدد من كبار المسؤولين بانقلاب على سلطة جورباتشوف بهدف إعادة الاتحاد السوفييتي نحو النظام الشمولي المركزي، والتخلص من البريسترويكا التي أقامها جورباتشوف، والتي تبتعد عن روح النظام الشيوعي. وتم إخضاع جورباتشوف للإقامة الجبرية وتشكيل لجنة حكم تقوم بأعماله.

ولكن رغم ثقل الشخصيات المشاركة في الانقلاب فقد فشل بسبب الجماهير التي كانت قد فقدت الإيمان بالاتحاد السوفييتي بسبب الانهيار الاقتصادي الشامل. ولم تقم الوحدات العسكرية المشاركة بضرب الجماهير المناهضة للانقلاب، ولم تكن قيادة الانقلابيين قوية كفاية لاتخاذ القرارات الحاسمة الجريئة في تلك اللحظات. وانتهى الانقلاب ببزوغ نجم بوريس يلتسن، وتوقيع رؤساء الجمهوريات السوفييتية على وثيقة حل الاتحاد السوفييتي.

بانهيار الاتحاد السوفييتي أسدل الستار على أول تجربة لنظام اشتراكي يقوم على أفكار ماركس وإنجلز ولينين. ويبقى الجدل لغاية اليوم: هل كان السبب في انهيار الاتحاد السوفييتي خللا في النظرية الاشتراكية ذاتها أم هو خلل في التطبيق؟

ولادة النعجة دوللي

أشهر نعجة في القرن العشرين

في ٥ يوليو ١٩٩٦م ولدت النعجة دوللي، التي صارت أشهر حيوان في العالم في أواخر القرن العشرين، فهي هي أول حيوان ثديي يتم استنساخه بنجاح من خلايا حيوان آخر بالغ، وذلك في معهد روزلين في جامعة إدنبرة في اسكتلندا بالمملكة المتحدة، ولم يعلن المعهد عن العملية كلها إلا بعد سبعة أشهر أي في فبراير من العام التالي، وهو ما أثار خلافاً عالميًّا حول آثار تلك الخطوة، ومدى إمكانية امتدادها لعالم البشر، بما يعني إجراء تجارب على استنساخ البشر من خلايا بشر آخرين، ورغم ذلك فقد اعتبر استنساخ دوللي من أهم الإنجازات العلمية خلال القرن العشرين!!.

في عام ١٩٩٨ وضعت دوللي مولودها الأول، وفي العام التالي وضعت ثلاثة حملان، وولدت مرتين أخريين خلال الأعوام الأربعة اللاحقة، وظلت تحظى برعاية العلماء، حتى اكتُشف في يناير ٢٠٠٢ إصابتها بالشيخوخة المبكرة وعدد من الأمراض المرتبطة بالشيخوخة، وهي لم تكمل عامها السادس بعد بينما من المفترض أن النعاج يمكن أن تعيش حتى تبلغ عامها الثاني عشر.

وفي فبراير ٢٠٠٣م أعلن معهد روزلين أن القتل الرحيم نفذ بالنعجة دوللي بعد أن عانت بالفترة الأخيرة من مرض رئوي عضال، يصيب النعاج المسنة عادة. وتبين أنها كانت تعاني منذ ولادتها من خلل في الصبغيات ومن التهاب في المفاصل ولكنها كانت في مظهرها الخارجي كأي نعجة أخرى....

أعلن البروفسور الإسكتلندي أيان فيلموت، من معهد روزلين أنه ليس ممكناً في حالة دوللي معرفة ما إذا كانت إصابتها المبكرة بداء المفاصل في قائمتها الخلفية اليسرى عند مستوى الورك والركبة ناجمة عن الاستنساخ أم أن الأمر «مجرد حادث مشؤوم».

لكنه أقر بأن إصابة دوللي بداء المفاصل وهي في الخامسة من عمرها تدعو إلى«الاعتقاد بوجود مشكلات»، وأكد أن «الحل الوحيد يتمثل في إنتاج عدد كبير من

(الحيوانات) المستنسخة ومقارنة معدل الإصابات بداء المفاصل أو غيره لدى الحيوانات المستنسخة» مع الحيوانات المولودة طبيعيًّا.

وهو ما أدى لجدال آخر حول كيفية قياس العمر الحقيقي للنعجة، ومخاطر الإصابة بالشيخوخة المبكرة لدى الكائنات المستنسخة، وهو ما قلل من حماس العلماء الداعين لإجراء تجارب مماثلة على البشر.

في سبتمبر ٢٠٠٣م وضعت دولي في المتحف الملكي بالعاصمة الإسكتلندية أدنبرا لتُعرض فيه على الجمهور بصفة دائمة.

تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر

"قميص عثمان الأمريكي"

لن تجد عبارة أكثر تكراراً في الإعلام الغربي والعربي في العشر سنوات الأخيرة من عبارة: ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكأن ذلك اليوم بما جرى فيه صار توقيتاً فارقاً في عالم اليوم..

حسب الرواية الرسمية للحكومة الأمريكية، فإن ١٩ شخصاً على صلة بتنظيم القاعدة الذي يقوده أسامة بن لادن، قد نفذوا هجمات على مبنى مركز التجارة العالمي بنيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) باستخدام طائرات مدنية مخطوفة، وذلك صباح يوم الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

انقسم منفذو العملية إلى أربع مجموعات، ضم كل منها شخصاً تلقى دروساً في معاهد الملاحة الجوية الأمريكية. وتم تنفيذ الهجوم عن طريق اختطاف طائرات نقل مدني تجارية، ومن ثم توجيهها لتصطدم بأهداف محددة. وتمت أول هجمة في حوالي الساعة ٨:٤٦ صباحا بتوقيت نيويورك، حيث اصطدمت إحدى الطائرات المخطوفة بالبرج الشمالي من مركز التجارة العالمي. وبعدها بدقائق، في حوالي الساعة ٩:٠٣، اصطدمت طائرة أخرى بالبرج الجنوبي. وبعد ما يزيد على نصف الساعة، اصطدمت طائرة ثالثة بمبنى البنتاجون. الطائرة الرابعة كان من المفترض أن تصطدم بهدف رابع، لكنها تحطمت قبل الوصول للهدف.

حدثت تغييرات كبيرة في السياسة الأمريكية عقب هذه الأحداث، فبعد أقل من ٢٤ ساعة على الأحداث، أعلن حلف شمال الأطلسي أن الهجمة على أية دولة عضو في الحلف هو بمثابة هجوم على كافة الدول التسع عشرة الأعضاء، ووجهت الولايات

المتحدة أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن، وأعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الحرب على الإرهاب، مطلِقاً مقولته الشهيرة: من ليس معنا فهو ضدنا، وصارت عبارة «الحرب على الإرهاب» الذريعة الأمريكية في التدخل في شؤون الدول، وتعقب المقاومين للمشروع الاستعماري الأمريكي في أنحاء العالم، ومحاصرة جماعات وتنظيمات مقاومة الاحتلال الأمريكي والصهيوني في العراق وفلسطين ولبنان وسورية.

لقد أدّت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى مباشرة الولايات المتحدة الأمريكية باحتلال أفغانستان بادئ الأمر، ثم العراق من بعد ذلك، هذا فضلاً عن تهديداتها المستمرة لدول أخرى في المنطقة كسوريا، وإيران . وهذا يعني أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد اتخذت كمبرر لظهور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة استعمارية من جديد، وكأن عهد الحروب الاستعمارية قد عاد مرَّة أخرى، ولكن تحت غطاء آخر مختلف وهو الحرب على الإرهاب.

كذلك فقد اتخذت فكرة تصدير الديمقراطية إلى البلدان التي سحقت تحت وطأة الديكتاتوريات الشرقية مبرراً آخر لتدخل الولايات المتحدة العسكري في شؤون البلدان الأخرى، بحجة أنّ هذه البلدان لا تمارس الديمقراطية، ولا تعتمد مبدأ الانتخابات، وبالتالي فهي لا تملك حق تقرير مصيرها بنفسها.

وقد أدّى التدخل العسكري الأمريكي في شؤون العالم إلى غزو أفغانستان في أكتوبر ٢٠٠١م، وغزو العراق في مارس ٢٠٠٣م واحتلاله. وهكذا غلب الطابع العسكري على الولايات المتحدة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأصبحت

تهدد بين الحين والآخر كل من يعترض سبيل تحقيق مصالحها، فضلاً عن إعطائها للضوء الأخضر - أو حجبه - لحلفائها في المنطقة ممن يريدون القيام بمغامرات حربيَّة، وخصوصاً إسرائيل التي شنت هجوماً على لبنان في يوليو ٢٠٠٦م.

كان لأحداث الحادي عشر من سبتمبر أثرها البالغ في زيادة الهوة بين العالم الإسلامي والغرب أو تحديداً بين الإسلام والغرب، حيث أعقبتها موجة من العنف تجاه المسلمين في الغرب، فضلاً عن محاولات متكررة للتجاوز على الإسلام ونبيه الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، فكانت أزمة الرسوم المسيئة التي تكررت في أكثر من بلد أوروبي، والتي كان لها آثارها السيئة على العَلاقات الإسلامية الغربية ليس فقط على الصعيد الدبلوماسي، وإنما أيضاً على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حيث بادرت بعض البلدان الإسلامية إلى مقاطعة السلع والبضائع القادمة من هذه الدول.

كما أدّت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى زيادة الكراهية للولايات المتحدة الأمريكية، خصوصاً لدى الشعوب المضطهدة والفقيرة التي بدأت تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها قوة استعمارية غاشمة لا همَّ لها سوى السيطرة على الشعوب الأخرى، بإسقاط حكوماتها، ونهب ثرواتها، وإقامة قواعد عسكرية في بلدانها لا يمكن أن تغادر أراضيها بسهولة، فهي تؤسس لحكوماتٍ عميلة موالية تسعى إلى الحفاظ على مصالحها، وتنوب عنها في تحقيق سياساتها وما تصبو إليه، وإن ادعت أنها ستغادر ما احتلته من أراضٍ بحجة أنّ الحكومات الجديدة التي تم تشكيلها في ظل وجودها قد أصبحت قادرة على حفظ الأمن والنظام وإدارة شؤون البلاد.

الفهرست

تقـــــديم 5

مقدمة تمهيدية: أيام التاريخ غير المكتوب 6

اكتــشاف النــار 6

اكتشاف الزراعـة 8

اكتشاف المعـادن 9

اخــتراع الكتابــة 10

طوفـــان نـــوح 12

إرســال الرســل والأنبيــاء 13

معركــة أكتيــوم البحريــة 15

تنصر بـولس الطرسـوسي 19

سقوط رومـا في أيـدي البرابـرة 23

قسطنطين يعتنق المسيحية 25
الهجرة النبوية 31
مقتل الخليفة عثمان بن عفان 35
موقعة بلاط الشهداء 39
بابا روما يدفع الجزية للعرب 43
دخول الفاطميين مصر 47
موقعة ملاذكرد 51
الحملة الصليبية الأولى 55
سقوط بغداد في أيدي المغول 61
عين جالوت 65
فتح القسطنطينية 71
اختراع الطباعة 77
سقوط غرناطة 81
وصول الاستعمار الأوربي للأمريكتين 85

ظهـور البروتـستانتية 89

إعلان استقلال الولايات المتحـدة 95

سقوط سـجن الباسـتيل 99

اختراع البطارية الكهربية 103

معركة واترلو 107

معاهدة لنـدن 113

استخدام التخدير في العمليات الجراحية 117

حفر أول بئر للـنفط في العـالم 123

اختراع القـاطرة البخاريـة 127

اختراع التليفـون 131

اختراع آلـة العـرض الـسينمائي 135

اخـتراع الراديـو 137

اخـتراع الطـائرة 139

اغتيال أرشـيدوق النمـسا 143

انتصار الثورة البُلْشُفية 151

تصريح بلفور 155

إلغاء الخلافة العثمانية 159

اكتشاف البنسلين 163

الخميس الأسود 167

اجتياح هتلر بولندا 171

تدمير الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر 175

إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما 181

دخول ماو تسي تونج بكين 185

اختراع الترانزستور 189

مؤتمر باندونج 191

تأميم قناة السويس 195

إطلاق القمر الصناعي سبوتنك 199

اكتشاف أشعة الليزر 203

أول عملية زراعة قلب بشري 207

الهبوط على سطح القمر 211

إطلاق شبكة آربانت 213

زيارة السادات للقدس 217

عودة الخميني لإيران 221

اكتشاف الإيدز 223

اختراع الكمبيوتر الشخصي 229

اختراع البريد الإلكتروني 233

اكتشاف البصمة الوراثية 237

انهيار الاتحاد السوفييتي 239

ولادة النعجة دولي 243

تفجيرات ١١ سبتمبر 247